روايات الهلال

محمد عبد السلام العمرى



صمت الرمل

العدد ٦٣٨ فبراير ٢٠٠٢ - ذو الحجة ١٤٢٢هـ

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمى
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

سكرتيرا التحرير
محمود قاسم
مؤمن حسين

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ دينار - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبى / أبو ظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال - المغرب ٣٥ درهما - فلسطين ٢,٥ دولار - سويسرا ٥ فرنكات .

الاصدار الأول
يناير ١٩٤٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج. م. ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت:
السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص. ب. ٢١٨٣٣ (13079) ت: ٤٧٤١١٦٤

الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات: ص. ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس :
Telex 92703 hilal u n

فاكس :
FAX 3625469

صمــت الرمــلَ

بقلم

محمد عبد السلام العمرى

●

دار الهلال

الغلاف بريشة الفنان :
عبدالعال حسن

(١)

تراكمت الأحداث فى رأسه ، لايستطيع استيعاب ما حـــدث، لـم يسـمع أذان الفجر، ظهر شفق دموي لشمس صباحية، ذهب إلى المكتب مباشرة، مبنى صغير مـــن دورين، العلوى لسكنه ، وجد لافتة ضخمة فى الدور الأرضى، أعطاه السائق الباكستانى المفاتيح .

قال الشيخ " أبا الخير " : كل شيء معد ومنظم ، يمكنــك أن تــداوم اليــوم " فرش السكن جديد ، المبانى جديدة ، تمدد، قلب الأمور على مختلف أوجهها، يغفو، يعيد النظر فى أحداث الليلة، لايصدق أنه عاشها أو رآها، أثناء نومه شـــعر بخطــر داهـم يقتحمه ، رؤيا كابوسية أم حقيقة ؟

ستائر غرفة النوم كثيفة وثقيلة، لاتسمح بتسلل ضياء الشمس، يغطى رأســه، طالت ليلته كثيرا ، لايرغب فى النوم قدر رغبته هذه اللحظة. أرق وسهاد وفكر مجـــهد تحول دون ذلك .

كانت فكرة الربط بين ما حدث بالأمس، وما حدث له منذ جاء تنبيهه إلى أهمية أن يكون يقظا دائما، رن التليفون، التقط السماعة، انقطع الخط، بعد غفوة رن ثانية.

منذ قدومه يحاول اســتخراج رخــصة قيادة. وعندما كان يظــن أنــه علــى وشــك الحصول عليها ابتعدت عنه، سائق ماهر استهلك حتى الان سيارتين، حصل على رخصة قيادة من مدينـــة " جارثيا " تطبق نفس القواعد، ونفس القوانين، يتعنتون معه. يعرفون كفيله .

عندما قدم الطلب تمعنوا فيه، قرأوه على مهل ، حتى لا تفلت كلمـــة، وحتـــى يتأكدوا بدقة أن كلمات الطلب لاتتجاوز القصد منها، أحد الشـــروط الأساســـية موافقـــة الكفيل، بعث بها وزيره إلى الفندق فور قدومه، طلبوا منه الذهاب إلى المستشفى لإجراء الكشف الطبى اللازم، كشفوا على أظافر يديه، شعر رأسه، وعندما حصلوا على صحيفة سوابقه صوروها عدة صور، قرروا إرسالها إلى الإنتربول، وإلى مباحث أمـــن الدولـــة التى استخرجها منها، إلى كل الأجهزة المباحثية الكثيرة التى تتعاون مع بعضها البعض، خافوا أن تكون صحيفة سوابقه مزيفة أو مغشوشة .

هل كانوا يقدمون صحائف المتعاقدين جميعا إلى تلك الأجهزة، أم أنه احتيـــاط خاص بهذا المعمارى ، على أية حال لم يكن هناك ما يسئ إليه، يظنون تحت معتقـــدات سابقة ، وأجهزة دقيقة وحساسة أن ثمة ما يقلـــق حيـــال أى شـــخص خـــارج نطـــاق الأشخاص العاديين ، وأنه ربما يكون متعاونا ضمنيا مع أعداء البلاد الذين كثروا فـــى الآونة الأخيرة .

أجهزة الكمبيوتر والتليفونات والإلكترونات تأخذ دورة عملها المعتـــادة فـــى دقائق إذا كانت المعلومات المطلوبة داخل البلاد، أما إذا كانت خارجية فلا تســـتغرق إلا مضاعفة الدقائق، يكررون محاولاتهم بأشكال مختلفة .

ما هذه القوة التى يتمتع بها هذا المعمارى ؟ ياترى من يسنده ويقف بجواره، وينير له الطريق هكذا، ويجعله صافى العقل، يقدم الحلول اللازمة، يقدم الأفكار، يقدم ما لا يستطيع أحد من أمثاله تقديمه .

تجاوز كل هذه الاختبارات والعقبات، كلما صنعوا له حفـــرة تخطاهـــا بصـــبر وأعصاب هادئة، لديه أحلامه، فقرر أن لا قوة فى الأرض سترده عما قرره حتى ولـــو كان الموت نفسه، وهوقابض على عجلة القيادة فى هذا البرد القارس أحـــس أن ثمـــة عرقا غزيرا يرشح من وجهه، رفع يده محاولاإزاحته عن عينيه، شاهدوه، بعد انتـــهاء الاختبار قرروا رسوبه، يوما آخر اهتز قمع بلاستيكى فرسب ، وأثناء قيادته التفت إلـــى

آلة تنبيه مزعجة فرسب، وبعد أن تجاوز كل العقبات أثناء ركنه بجوار سيارة خرج صاحبها لمس بابها باب سيارته فرسب، وفى يوم رسب لسبب لم يفصحوا عنه، ورسب مرة لأن الشمس أضاءت السماء الصافية فجأة، وكانت آخر أسباب رسوبه أنه ركن سيارته بجوار سيارة قائد المرور، كان قد قرر أن ينال رخصة السيارة فوعد بركنها بعيدا عن أى سيارة فلم يعجب كلامه الضابط المسئول فرسب أيضا .

وخيل إليه أنه ضابط مرور فى القاهرة ، وقد جاءه هذا الضابط ومعه رخصة قيادة من بلده، مجرد أن شاهدها أعطى له رخصة قيادة مصرية، دون أية اختبارات.

عرف من مهنته أن لا أحد يحاول إثبات قوته إلا كان فى أعماقه ضعيفا وهشا لدرجة سهولة تقويضه من أى عقبة صغيرة، ليست لديه أية أسباب للقلق، سيحصل على الرخصة بالشكل الرسمى الصحيح، لن يتورط أبدا، آخر ما كان يتصوره أن يخطر بعقله أنهم ربما يكونون بحاجة إلى هدية ما .

كانوا قد حددوا له الساعة التاسعة صباحا، يرسب عادة التاسعة والربع، يكون فى مكتبه التاسعة والنصف ، مرت عليه أيام وأسابيع ، فوجئ ذات صباح أنها على مكتبه، لم يفه الخادم الباكستانى بكلمة، لا يعرف من وضعها، ومتى أو كيف، شىء واحد فقط تسلط على فكره، رغبته فى معرفة من وضع هذه المحفظة، وهل الذى وضعها له علاقة بعدم حصوله عليها كل هذه المدة ؟ وبكل هذا العذاب الذى شككه فى قدرته على النجاح والتحمل، سأل كل أعضاء مكتبه والسعاة والسائقين ، كلا على حدة، لم يظفر بإجابة تشفى غليله ، لم يأت أحد من الخارج كما أخبره الخادم، وود فى لحظة ما أن يبلغ الشرطة ، هؤلاء المغرمين بفض مغالق الأمور، ومعرفة خفاياها، يعرف أن ذلك لن يرضى الشيخ .

استيقظت فى نفس عمرو كل نوازع وغرائز الهمجية البدائية ، أراد أن يجرب إسقاط عذابه على هؤلاء الذين لا ذنب لهم، تأكد أنه واصل إلى معرفة من وضعها فى وقت ما .

انتهوا من التصميم المعمارى والإنشائى لمجمع الأحذية والجلـــود، تصميـم المصنع على هيئة فردة حذاء أيمن والفيلا المقابلة على هيئة فردة حذاء أيسر، ناســب هذا التصميم بن درويش تماما، وتعجب مذهولا من هذه الفكرة التى تحدّث كثيرا عنــها مع كل من يقابله، قال : " هؤلاء مصريون مجانين، يجدون لكل مشكلة حــلا مناسـبا ، والله ما خطر على ذهنى أبدا " ، يواصل : " أنا زرت مصـــانع الأحذيــة فــى أمريكــا وإيطاليا، لم أرَ مصنعا بهذا الشكل، والله لك حق تسوى كل هذه الأخبـــار والدعايـــة "، يسمع " أبا الخير " فيتأكد من فراسته وذكائه وقدرة الأجهزة التى تعاونت معـــه علـــى حصار عمرو فى بلده .

* * * * *

خلال المدة الزمنية التى عاشها عمرو فى مصر بعد هروبه وقبل مجيئه لـــم يجد عملا مناسبا، ولامكانا قبله للعمل به، رغم كل الإعلانات والطلبات عن معمــاريين لديهم خبرة فى التصميم، يعرف أن من هم أقل منه كفاءة يقبلون فى هذه المسابقات .

نتائج اختباراته النجاح دائما ، طلبه يقطع شوطا فى التعيين، وفى آخر لحظـــة يتلقــى نظرات غريبة ، تتكرر النظرات فى أكثر من مكان ، ثم لا يعتذرون عن عدم توفيقـــه ، يرثون لحاله، قالها أحد أصدقائه صراحة " قلبى عندك " ولم يفهم أبدا حتى بعد ســفره ثانية، أن عليه حصارا محكما، وأنه لن يعمل فى أى مكان داخل وطنه أو خارجه .

كانت مدخراته تتناقص، وطموحه فى الحصول على عمل يناسبه ، فكــر فــى إنشاء مشروع خاص به، قوبل بعـقبات لاحصر لها، لم يوافقوا على إعطائه رخصـــة لمزاولة مهنته رغم أن المكان الذى اشتراه كلفه الكـثير ، عندما يأتــيه عمل من دولة ما ترفض السفارة إعطاء تأشيرة، وعندما أراد السفر سياحة إلى دولة أوربية رفضــت السفارة فى آخر دقيقة ، بعد وضع الختــم النــهائى ، أن تعطيــه الجــواز ، وتكفلــت باستخراج آخر .

لم يخطر بذهنه أن ثمة أيادى كارهة وحقودة تقطع عليه كل سبل الاتصال لمزاولة مهنته، لاحظ أيضا أن بعض الذين يعرفهم منذ أزمنة طويلة يبتعدون عنه من أول محاولة اتصال بهم .

وقرأ ذات مرة أن إحدى الشركات فى " جارثيا " تطلب معماريين، وكان مندوب الشركة هو خضر، وعرف أنها شركته، كونها بعد أن تمكن من الحصول على كفالة حرة، قرأ أيضا إعلانات كثيرة، إلا أنه وهو فى أشد محنته قرأ إعلانا عن طلب معمارى،، شرط الاختيار الأساسى فيه أن يكون حاصلا على تقدير جيد جدا فى مادة تخطيط المدن، ومشروع تخرجه عن العمارة العربية الإسلامية، وأن يكون بتقدير جيد جدا أيضا .. ياالله ، كأن الإعلان مفصل له، هل لم يقبل فى هذه الأعمال انتظارا لهذا الإعلان الذى ينطبق بحذافيره عليه، لم يذكر عنوانا، إنما ترك رقم التليفون فقط .

عندما اتصل وقبل أن يتكلم سأله : إيش اسمك ؟ قال : عمرو الشرنوبى، صمت الذى ينصت له قليلا، سأله دفعة كم أنت ؟ أجابه، زين، زين.. هل سافرت قبل الحين إلى أى بلد ؟ قال : نعم ، كم عاما داومت هناك ؟ عاما تقريبا ، ليش تركت شغلك، هل أنت تسوى مشاكل ؟ قال عمرو : إن الحديث فى التليفون لايصلح ، رد عليه غاضبا: هل من الحين تعرفنى إيش يصلح وإيش ما يصلح، قال عمرو : أنا لا أقصد، إنما أتحدث من الشارع، فقال له أليس لديك تليفون ؟ قال : لم تصل حرارته بعد ، هل كل الاشتراطات تنطبق عليك ؟ قال عمرو نعم ، قال : عجيب أكثر من مائة مهندس اتصل، كل واحد ينطبق عليه شرط ولا ينطبق عليه آخر ، وأنت تقول كل الشروط منطبقة .. هيه ؟ قال عمرو نعم ، قال له أحضر ورقك الأصلى وتعال فورا ، عندما ذهب إلى المنزل وجد الحرارة فى التليفون .

كان حصاره قد استمر عاما وبعض العام، ولقد تساوى لديه فى لحظة ما العمل فى أرض لا يرغبها ولا يحبها مع عدم العمل فى أرض يحلم بالموت فى ثراها، كتب العنوان، كلهم يأتون إلى الدقى والمهندسين، لكن العنوان نفسه مخاتل. سمع عنه

قبل الآن ، لم يتذكره إلا عندما وصل إلى باب الفيلا، هم بالتراجع ، انفتح الباب، نـاداه الشيخ " أبا الخير "، استقبله فاتحاً ذراعيه، مرحبا به، قائلا نبغى نسافر فورا ، اليوم لو أمكن، تساءل عمرو، قال الشيخ : لاعليك كل شىء جاهز .

أثناء تناول القهوة قال للشيخ : أنت تعرف ما الذى حدث مع الشريف ؟، قـال أعرف كل شىء ، ثم واصل : لم تكن المسألة كما تعتقد، كانت كما أردنا، إننـا بـاقون عليك، لن تذهب إلى الشريف بل ستأتى على كفالتى أنا .

جاء العقد موثقا ، كتبه عالم نفس درس ما يفكر فيه عمرو جيدا ، ينص فـى أحد بنوده : أن النهضة التى تتطلبها البلاد، والحرية التى يتمتع بـها الشـعب، ورأس المال الفائض تسمح بالعمل الحر، وأن المصرى عمرو الشرنوبى يرغب فى فتح مكتب للاستشارات والتصميمات المعمارية فى مدينة " ديستراكو " ، وأن الشيخ " أبا الخـير " ليس لديه ما يمنع من كفالته متحملا كل المسؤليات المتعلقة به، وقد نص أحـد بنـود العقد الملحق أن " أبا الخير" يأخذ عائدا صافيا قدره خمسون فى المائة،من قيمة دخـل المكتب ، والذى سيتولى حساباته محاسب وطنى يعيّنه " أبا الخير " بمعرفته .

العمل الحر الخاص هو ما يفكر فيه بالفعل ، لا يتحمل تلقى التعليمات من أحد، كفاءته وخبرته تجبان كل من سبقوه ، لم تتقبله العقلية الوظيفية ، سببت له المشـاكل الكثيرة فى الوفاء والأمل وفى غيرها من الأماكن ، بدت عقليته جديدة وطازجة وحـرة، فهم "أبا الخير" هذا منذ عمل فى مشروع حى المطلقات الأرامل الذى كان أحد الدوافـع القوية لإصراره على التعاقد معه .

بدا عمرو ساهما وشاردا يتذكر الأحداث والأفكار، يتمعن فى العقد الـذى لـم يحلم بمثله ، لدى " أبا الخير " قوة معارف ضاربة ، عليه أن يدفع أجور العمالـة مـن مهندسين وغيرهم ، عليه أن يدفع إيجار المكتب والسكن، تكفل الشيخ بهذا مقدما، سأل عن كمية المشاريع ونوعها، توقع الشيخ ذلك ، قال " أبا الخير " لا تقلق ، عندما تـأتى

سترى ما يدير رأسك ، مشاريع غير تقليدية ، أعمال كثيرة ، تتطلب ضعف أعداد العمالة التى طلبتها .

ساد الصمت مشغولا بالتفكير، يناقش الرأى من عدة أوجه، يفتش فى ذهنه عما عساه نسيه ، يواصل الحديث لعله يضئ نقطة ما غائبة عن ذهنه، يتساءل عن أهمية إصرار " أبا الخير " على كل هذا ، ما الذى يرغب فيه الآن ؟ ما الخطوة القادمة؟ ، رآه الشيخ مترددا أعطاه العقد وفرصة للتفكير، سأنتظر تليفون باكرا .

قضى عمرو جل يومه وليله بطوله حتى مطلع الفجر مسندا رأسه إلى حافة السرير شاردا ، هناك مسألة ما، رابطة ما، تربط الشريف و" أبا الخير " لايدرى ما هى، حريص على المعرفة حرصه على تنفيذ بنود العقد ، أغمض عينه، أخذته سنة من النوم، رأى فى إغفاءته حلما ، غيمة ودخانا وضبابا يحيط به، كلما انتقل من مكان إلى آخر وجدها فوقه، تتبعه أينما رحل، يراها فى حالة صراع وجلبة وصلصلة كأن مادتها الحديد والاحتكاك، كأنها الجنازير تلتف حول معصميه وساقيه ورقبته وعقله، كلما ذهب إلى مكان وجدها تحوطه مبتعدة عنه أحيانا ، تتعقبه أحيانا كثيرة ، يحاول التوارى والهروب دون جدوى ، يجدها متربصة به عندما يدخل إلى مكان عام أو إلى منزل أحلامه، لايراها سواه، تفرغ تماما للخلاص منها، كلما حاول أو اعتقد أنه نجح كان يصيبه فشل وإحباط شديد، مضت به السنون تباعا، أصبح رجلا مسنا ، متزوجا وله أولاد،ابيض فوداه، وخط المشيب شعره، أصبح شيخا، لا زالت تتعقبه، لايتغير شكلها، لم يوفق فى الهروب منها، وكان فى حلمه قد جعلها تمطر حتى تفك مراقبته، أحضر مدفعا، وجدها سهلة المنال ، أخذ يطلقه فلا يأتى إلا بأصوات ضعيفة، لاتخرج قذائفه، أشعل نيرانا كثيرة، يرتد دخانها عندما يصطدم بالغيمة الى النار فيطفئها، لقد خيل إليه أنه عاش حينا من الدهر زاد كثيرا عما توقعه لنفسه فى محاولة الفكاك، لاحظ أن التعب لم ينل منه، وكلما رآها زاده هذا قوة وتجددا .

ترى بماذا توحى هذه الغيمة ، وهذا الضباب ؟ هل هى مظلة ستره مدى العمـــــر ، ولماذا لم تمطر ؟ فابن سيرين يرى المطر فى الأحلام خيرا، وكذلك فرويد، ماذا تعنـــى ؟ وبماذا تشى هذه الغيمة الحلمية تلك ؟ شعر أن ثمة شيئا ما خيرا أو شرا سيتعقبه .

قالت له أمه إنها امرأة تنتظرك، قال صديق إنها الرقابة، قالوا رزقاً ضخمـــــا تستمتع به مدى العمر، قال لنفسه فى كل الأحوال هذا الحلم متعلق بهذا البلد ، ولو تـــم تفسير الحلم بغير ما تعتقد الأم لدعت العائلة إلى اجتماع عاجل، وبدا الاستعداد لاستقبال المصائب القادمة .

هل لآمال دخل فى هذا الموضوع ؟ وما علاقة آمال بالشيخ " أبا الخير " ؟ هل شم عطرها حقا فى ليلة الاحتفال الكرنفالى بقدومه، وبعيد ميلاد الصغيرة، وبافتتاح هـذا المكتب ؟

عليـــــــــه أن يدرك أن الخيوط كلها بدأت تتجمع، لماذا لم ينتبه إلـــى هـذا وهو فى القاهرة ؟ وما الذى كان عليه أن يفعله حيال ذلك ؟ عليه أن يحذر، اســــتنطق جذوره الكامنة، استدعاها متشبثا ومتوحدا بها، لم ينتبه إلى ما أصابه من حمية وقســوة وجسارة، أم هو الغباء والحمق ؟ فها هو الآن فى فم التمساح، عليه أن يقــرأ ماضيـــه جيدا، وحاضره ومستقبله بعين أكثر حدة وشراسة، هل كان لهم دخل بعدم حصوله على عمل فى بلده ؟ هل كان " أبا الخير " خلف هذا الحصار ؟ هل هى آمال ؟ ولماذا كـــانت مختفية تماما أثناء استعداده للهروب إلى القاهرة ؟ كاد عقله يزل ويشل . هـــل خانتـــه فراسته وموهبته فى كشف أبعاد اللعبة ؟ ولماذا جاءوا به إلى هنا ؟ ومـــا الـــذى كـــان يستطيع فعله؟

ترك كل هذه الأفكار جانبا ، عليه أن يفكــر فى عمله فقط ، أن يكسب جميـــع أصدقاء " أبا الخير " لايعرفون خلفية ماحدث، والرجل حريـــــص علـــى تكتـــم أخبـــاره وأسراره، يستمد قوة وجوده من ثقته بنفسه، وبقيمة عمله، وبجنسه الخالد أبد الدهــر، حاولوا ويحاولون إذلاله، واستئصال جذوره وشأفته، ستذهب حتما كل جهودهم سدى .

استغرقه التفكير العميق المرهق، لم يفق إلا على دخول سرب من الغنم سائر غـرف المكتب، تمأمئ، تزبل وتبول، اندفع الخادم الباكستانى جاريا فى عدة اتجاهــات، جـاء صاحبها، لاهثا، لاعنا، متهما، تساءل كيف دخلت ؟ كان على وشك أن يحرر محضـــرا متهما الباكستــانى بالسـرقة، هدأت الأغنام، أراحت رقابـــها علـــى الأرض، تســتمتع برطوبتها وبالهواء المنعش، لم يقم منها إلا اثنان، كأنهما يتأهبان للطراد والمناطحـــة، يصرخ الراعى صرخات وحشية، يصفق بيديه، يصدر عنه صياح كأنـــه ثغـاء، صفـر صفيرا متقطعا بنغمة بدت متعارفا عليها، خرجت خلفه، يعدها واحدة إثر الأُخرى، أجانب لصوص .

تركت الأغنام خلفها آثار معركة حربية، التهمت فى طريقها كل ما قابلـــــها من أوراق، أنقذ مشروع ابن درويش وجوده فى غرفة المطبعة المغلقة، تكـوم زبلـها وروثها فى أكثر من مكان، طلب عمرو من الزملاء الخروج، حثوا الخادم على ســرعة تنظيفه، بدا أنها تستخف به وتهزأ من مشاريعه وأحلامه وأفكاره، وأن هذا هو الواقـع بكل مرارته، عليه أن يتعامل معه من الحضيض غنما، إلى عظمـــة قصـوره وأبهتـها وكلاب ممراتها السرية.

وقفوا أمام المكتب ، بدت شمس الشتاء قاسية الحرارة، الخضرة النضرة المغسولة التى جاهدت البلدية فى زرعها وحمايتها، أتى عليها قطيع الخرفان الشارد، جاءه الخادم يقول الشيخ يبغاك ، صوته كطلقات مدفـع سريع، إيش الغنم اللى تدخل المكتب، وفين أنت ؟ وفين زمايلك، وفين الخادم ، وفين الحارس ؟ برز السؤال الذى حيره، كيف عرف؟ مـن أعطاه الأخبار الفورية ؟ الباكستانى لايتكلم كلمتين عربيتين، هل هى رقابة مــن نـوع حديث ؟ سأله عمرو : طال عمرك من فين تتكلم ؟ لم يجب، تردد قليلا.. ليـش تسـأل، مالك شغل، قلت لك ما تسأل أبدا .

هل هو الذى أرسل الأغنام ؟ بدأ يدق الحوائط بيـــده، ينظـر إلـــى الأسـقف والجدران والأرضيات ، يمشى بطيئا فى كل غرف المكتب، ناظرا مدققـــا خلـف أوراق

الحائط الجديدة اللامعة، وخلف الأسقف الأرمسترونج الصناعية، فـــى الدواليـــب، فـــى الأركان فى التليفون والدكتافون .

عليه إذن بعد أن تأكد أن حذره فى موضعه أن يأخذ زمام المبادأة، ألا يتـأخر رد فعله، أن يعرف كثيرا، بدا عليه هاجس ثقوب المراقبة، استبعد زملاءه، يرى أكـــثر منهم، وأن الحقيقة ليست هى التى تقودنا الى معرفة ما نفكر فيه، لكنه الشك، بدا عقلـه مشغولا باستـــمرار ، مجهدا ومهمـــــوماً من كثرة يقظته، أحس أنه فى حاجة لدورة المياه، وفى تلك الحالـة التى تتراوح بين العضوية المرضية والغيبية الماورائية لم تكن هناك إمكانية أبدا للشعور باللذة، فيومه سلسلة من الشك والإحباط والأغنام، حان له الزواج، وأن فترة الأمان التى زاد فيها بدانة لم تعطه الفرصة الكافية لكى يختار ويتزوج، انشغل بالحصول على عمل ، وقع فى سلسـلة رفض جهنمية، حاول أن يجد لها معنى أو سببا، يبدأ يومه بعـــد أن يســتيقظ متـأخرا بقراءة الإعلانات ، أثناءها يتناول فطوره، يتحرك إلى الأمـــاكن التـــى لديـــها وظـــائف شاغرة، يتناول غداءه فى الخارج، يدخل السينما، يأتى المنزل فى المساء ، لايرغب فى طعام ، يفتح التليفزيون، يدخن السجائر، يشرب الشاى، يأكل السودانى، يتسلى بقزقـــزة اللب ممددا فى سريره، ينتهى الإرسال، يتابع المسلسلات المصرية والأجنبية، يقرأ قليلا بلا تركيز، لا يرغب فى التحدث إلى أحد، يبتعد عن الجميع، لايرغب فى مداعبـــة ابنـــة أخته والحديث إليها، رغم أنها تشاغله كثـــيرا، كان مازال فى الحمام تنتابه الـــهواجس، وكلما أغلق بنطاله أحس أن ثمة أثرا ما باقيا يريد التخـــلص منه، يعرف أن أى هـــزة صغيرة أو ضعفا أوخطأ ما يحدث تحت تأثير رغبته سيكلفه عمره، وهم كما اعتقد لـــم يصروا على مجيئه إلا لهذا .

وهو يفتح الباب سمع صوت مأمأة، لم يعر الأمر أهمية، تواصلـــت إلـــى أن أصبحت خطرا يتهدد المكتب كله، زملاؤه مشغولون، سمعوا مثله ذلك. تحركـــوا إلـــى

مصدر الصوت، وجدوه فى أحد مخازن الورق الصغيرة، أغلق عليه الباكستانى الباب، لم ينكر، أخبرهم بانجليزية جيدة أن هذه الأغنام سببت له ضيقا، وأن من حقه أن يحتفظ بهذا الخروف الصغير تعويضا له عن تعبه، ثم أن رمضان والأعياد على الأبواب ، قال إنه لم يأكل بريانى منذ جاء إلى هذه البلاد، وهو يرغب فى أكل وجبته اللذيذة المفضلة، وسيعزمهم، لن تنسوها بأرزها وشطتها الخضراء .

كانوا مجتمعين حول الخروف عندما جاء الشيخ ومعه كوكبة، وجدوا هذا المنظر، بعث على عدة مشاعر متباينة من غضب، وضحك وفكاهة، أصبح منظرا مسليا، أشاروا إلى الباكستانى بالابتعاد، ظل لبرهة متخيلا التشنج الحذر القلق، فوجئ بالشيخ الذى لم يأت إلى المكتب مطلقا، تذكر أنه رأى الرجال عينهم ، عرف مدير الشئون الصحية، ومدير مستشفى الأمراض النفسية .

ضبط نفسه متفكرا بشعوره الذى يجعله يحس أنه مراقب، زاد من وطأة إحساسه الخجل كالعادة ، يرى نفسة ضعيفا ومهزوزا وأخرق إلى أن تماسك، رابط الجأش واثقا، بذل جهدا كبيرا كى يدع نظرته وعقله مُركَّزين فى معرفة ما يجول بخاطر هؤلاء الناس الذين لاتعرف من أين يأتى رد فعلهم، بدا أن صمتا قد حلق فوق رؤوس الجميع، يغص بأشياء صغيرة غير مألوفة، وبأصوات لاتدرك، كانت حناجرهم تعلو وتهبط، كأنهم عطشى يبلعون ريقهم، شابه خرير خافت وخشخشات غريبة، دعاهم إلى الصالون الملحق بغرفة مكتبه، لاحظ عند جلوسهم أنهم يلبسون شباشب جلدية ، لديهم تكليف من جهات عليا بإسناد الإشراف على ترميم المستشفى الرئيسى لمكتبه ، وترميمات مستشفى الأمراض النفسية ، وإنشاء مبانى سكن الممرضات لكل مستشفى على حدة .

عليه ألايتساءل حتى لايبدو له ما يسوؤه، يدرس حجم الأعمال ، وجد أنه فى حاجة لمهندسين جدد، حدد عددهم فرآهم أمامه، وعندما جاء ذكر سكن الممرضات استيقظت شياطينه، وجد عقله يشت ويذهب بعيدا، وتذكر خضر الذى أعطاه عنوانه فى

جارثيا " وأنه إذا رغب فى كفالته فعليه أن يكتب له، بدا كبندول ساعة ، كشخصية منفصمة جالسا معهم تعذبه رغبته، قرر أن يكون يقظا ومنتبها، انتفض قائما، صاح الشيخ: إيش بك ؟ تذكر أن الإحساس والشعور والضغوط والأعصاب كلمات خارج نطاق المتعارف عليه هنا، لابد أن يكون خشنا وفظا وغليظا، قاسيا أقسى درجات القسوة .

" أبا الخير " ينظر فى ساعته، أحضر الباكستانى القهوة العربية، شرب نعناعا دافئا، هدأ كثيرا من روعه، انتابته حالة رضا وصفاء، تحاور معهم بأشد ما يكون التركيز والانتباه، تأكدوا أنهم بين أيد أمينة، وأنه الاختيار المضبوط فى الوقت المناسب.

هل عليهم بن درويش فبدا لـ " أبا الخير " مفاجأة، تهاشوا وتباشوا، استأذن لدقائق، ثم دعاهم، فغروا أفواههم من المفاجأة، ماكيت مشروع بن درويش، خصص له غرفة المجسمات، ينظرون باستغراب، بدا المبنيان فى تآلف وتناسق هارمونى، وبارتفاع يتناسق ويتجاذب مع ثقافة المنطقة والمواد الأولية للمنشأ، يضيئان إضاءة خلفية متقطعة على فترات منتظمة .

كان كل شئ فى تركيب الحذاء يعبر عن وظيفة محددة، فبدت فتحات الأربطة كأنها شبابيك وشيش، ومقدمة الحذاء المدببة كالمدخل، ولما كانت التصميمات المعمارية التى يقوم بها غير تقليدية، اقترح عمرو على زملائه إقامة المصنع على عجل متحرك، يتزلق بسرعة، إشارة إلى الزلاقات الحذائية التى انتشرت تلك الأيام، ورأى أن سيمترية التصميم وهى مطلوبة فى بعض الأحيان تتطلب أن تقام على عجل أيضا، أعطى الماكيت إحساسا بالجديد والجدية، استحسنوا التصميم، تفاخر به بن درويش .

يشرح لهم على الماكيت ويطبق ما يشرح على الرسوم المعمارية، أحضروا له نسخة منها، أعلى ماكيت الفيلا أجنحة ضخمة " فولدد " متكسرة وأشعة منعكسة عليها، قال مدير الشئون : إيش هذا طال عمرك يامهندس ؟ قال : إنها عاكسات الشمس ، تمتصها، نستفيد منها فى توليد الطاقة التى تشغل حمام السباحة الموجود أعلى السطح

وأشار إليه ، لونه سماوى متدرج المزالق، مسلوب من ناحية، ذو درج من ناحية أخرى، تموج فيه المياه اللازوردية التى بدت طبيعية، حرص الجميع على تنفيذ قصر بهذه الفخامة، ديناميكى الحركة، يمكن نقله إذا أراد إلى أى مكان ، كان بن درويش مبهورا ، غير مصدق كل هذه الإمكانات ..وى ..وى .. وجدوا أعلى السطح أماكن لحمامات الشمس وبدت كراسى الشاذلنج المفرودة والتى صمم على أحدها ماكيت لامرأة ترتدى البكينى، تأخذ حماما شمسيا، أثار انزعاج بن درويش قليلا، أنقذه " أبا الخير " قائلا : طال عمرك الأمريكية التى سحبتك، ضجوا ضحكا، انبهروا حقا بما رأوا، وكان مدير الشئون ومدير مستشفى الأمراض النفسية فى حالة دوار، أسرع كل واحد يفكر بطريقته، حتى " أبا الخير " أيضا ، والذى ينظر خلسة إلى عمرو ، أيقن أن كل الحسابات التى وضعها قابلة لإعادة النظر بالتأكيد عليها وتعميقها، لابد من مواجهة العقل بالعقل، لكن كيف ؟

فى زحام الأفكار التى أغارت على عقولهم فشوشتها سأل مدير الشئون عن قدرة الطاقة الشمسية التى تمتصها هذه العاكاسات، وهل هى كافية لتوليد طاقة لتسخين مياه حمام بمثل هذا الحجم، كان سؤالا جيدا وجميلا، نادى على مهندس الطاقة، شرح كل شيء مستعينا بمذكرة وحسابات هندسية دقيقة ومعقدة، لكنها صحيحة .

أحس عمرو أن ثمة تشككا فى تساؤل الدكتور، قال : إن أى معالجة مجردة لن تكون سوى مجرد تسلية وتزجية فراغ، وإن كانت تتعلق بوظيفة ما فلابد أن تكون قابلة للتنفيذ، خاصة إذا كانت تتعلق بمشكلات إنسانية، وباستخدام واحتياج، لم نصمم هذا للاستعراض، إنما صممناه للاستخدام، سيتكلف كثيرا، لكنه سيستخدم أيضا، لم يسأل أحدهم عن التكلفة .

أصر بن درويش على أخذ الماكيت، كان ماكيت ضخما، بمقياس ١: ٥٠، قال عمرو إنه لن ينفذ من باب الغرفة، ثم أنه خاص بالمكتب. قال بن درويش هذا حقى. تهدمون الحائط طال عمرك . ويخرج من يره بره.

يرغب عمرو فى الاحتفاظ به ، إنه يتفاعل بالبدايات الأولى، حاول إقناع الرجل بطرق متعددة، وعندما لم يجدوا بدا وسعوا فتحة الشباك المطلة على الشارع ،جـــاءوه بسيارة نصف نقل، سارع المهندسون والموظفون فى إخراجه سالما، وضعوه فى مكـان آمن بالسيارة، لم يتركوه، انتظروا إلى أن خرج بن درويش قائلا : كلكم معزومون فـــى الموقع ذاته، قال " أباالخير " متى ؟ قال : تجيكم العلوم .وضعوا الرسوم ، تـــرك بـــن درويش سيارته الأمريكية الفخمة، ركب بجوار الماكيت ، مساهما فى تثبيته .

أنهى مدير الشؤون وزميله كل الإجراءات، وقعا العقود، خرجا بعد أن ســـألا عن بدء التـــنفيذ ، أشارا إلى اهتمام المسئولين بمشاريع الشئون الصحيـــة فـــى هــذه المدينة .

(٢)

هل كان هذا حلما أم حقيقة ؟ بدا مساقا بفعل قوى خرافية وهلامية ، يحاول قدر إمكانه الاختلاء إلى نفسه، يطرح الأسئلة، يعزل مكوناتها عن بعضها، حتى لاتتوه الرؤى وتتسرب الأحلام، و يعرف الدافع الحقيقى لمجيئه ثانية .

ترتج داخله ، ثم تعاود الكرة ، ليس ثمة خلاص من عذابه ، هل ثمة اتفاق بين "أبا الخير" والشريف على إحضاره ثانيةً ؟ يحاول ربط الخيوط ، يجمع المعلومات حتى تعطيه قراءة صحيحة لما يجول بخاطره، ولما يراه مشوشا وغير محدد المعالم .

لم يجد ردا مناسبا لسؤال الشيخ الذى بدا أنه قد تعود وأهل مدينته على هذه الفيضانات العجائبية، تنتهى عادة بغسل الشوارع والشجر، لم ير أثرا لها فور انتهائها، وبدا أنها من عوامل اقتناص القدر الأكبر من ثروات البلاد .

وجد السيارات تجوب الشوارع، أشار لتاكسى : قصر " أبا الخير " ، بدا منيفا حقا، يعتلى قمة أعلى جبل فى المدينة التى تتكون من سلاسل جبلية، يتمعن فى قدرة الخلق والابتكار التى ذهبت بخيال الشيخ ، حيث يناطح ويشتبك مع سحب كونتها المصادفة والريح .

إضاءة هادئة، رقيقة وعذبة، تنتثر على جانبى طريق مرصوف وناعم كالحرير، حلزونى مصمم بشكل علمى وتراكم معرفى بأصول الصناعة، قلل السائق من سرعته فاستمتعا بالمنظر الخلاب، غرق فيه، يرى على جانبى الطريق سلاسل من جبال غير متسقة، تنطق بما يفكر فيه من رسوخ واتزان وقوة. نظر إلى أسفل فبدت المدينة

بعيدة، الإضاءة المبذورة والمنسقة كحبات اللؤلؤ جاءته كما تجئ إضاءة مدينة لراكب طائرة من مسافة بعيدة ، الإضاءة الرسمية موزعة توزيعا متسقا ومتناسبا ، يضفى مع هذا الهواء البارد المنعش النشوة والبهجة والتحفز، وأسفل الجبل بجوار الطريق كانت الهضاب كمفاصل الأصابع، والوديان إلى الأسفل بين الأصابع ضيقة ومنحدرة ومظلمة .

وجد نفسه أمام بوابة ضخمة، يقف على كل جانب منها حارس خاص في كشك حراسة نصف اسطوانى، وبديا كحارسى القصر الجمهورى فى قصر القبة، اتخذت البوابة نسق الطراز الأيونى منتحلة سمتا عربيا، عندما توقف التاكسى لم يتحركا من مكانهما، سألاه فى توقيت واحد : من أنت ؟ قال : عمرو الشرنوبى .

انفتح الباب أتوماتيكيا عن شوارع عريضة على ضفافها أشجار ورد وفل وياسمين وروائح عطور طبيعية، وشذى أسكره، لم يتحرك ، أخذ يستنشق ويستنزف هذا الرحيق، بدا يعبه عبا، يختزنه حتى يحصل على أسانس العطور المركز، إضاءة تنبعث من الأرض ، موسيقى ناعمة، بدا المبنى البعيد بلآلئ إضاءاته كأنه الحلم الأسطورى الذى كلما قرب منه بعد . .

يصطف رجال على فسيفساء الأرصفة من الجانبين، بجوار أعمدة الإضاءة المتباعدة، بأزيائهم المغربية، وطرابيشهم الأندلسية، يمسكون مراوح ضخمة من ريش الطاووس، ينحنون عندما يمر عليهم، تنبعث موسيقى من أماكن خفية، وموشحات أندلسية .

فى نهاية الطريق المؤدى إلى القصر وجد رجلا متنكرا يحمل رأس أرنب، أخذه لارتداء ملابس تنكرية، رحب به سائلا عنه وعن إقامته بالمدينة، وعن الفندق الذى نزل فيه، وقد هيئ له أنه يعرف صاحب هذا الصوت، انفتح القصر عن روائح وعطور وبخور ومسك وعنبر ودفء وألفة حميمية، لم يكن انبهاره بهذا الجو أقل من انبهاره بهذا الرخام المعشق بالفسيفساء الزرقاء والخضراء والحمراء والمترابطة برقائق من ذهب .

ثريات فى أسقف تلمع إضاءتها على أقنعة مموهة وحوائط من مرمر، أنقى أنواع البللور فى العالم، أشكال منشورية توزع إضاءات متناثرة ومتعاقبة من وهج قزحى، تنساب مع موسيقى ومياه نافورات على حواف حمام سباحة ضخم يتوسط البهو الرئيسى للقصر، حوائط منقوش على مرمرها خيوط وآيات بطرق أندلسية، وشعر عربى بماء الذهب مكتوب ما بين قبة البهو والجدران، انتبه الجمع له، اصطفوا لتحيته، رجال يهللون صائحين مرحين، ونساء يزغردن، وجلجلات سعادة، ومزح تتكرر احتفاء بكل مدعو، يتوافدون متنكرين فى أزياء وأشكال غريبة، ثياب غجرية، وثياب مصارعى الثيران الإسبان، وثياب فرعونية، ورومانية، مشاهد راقصة متسقة وبديعة، حوريات مغربيات يستحممن عرايا ، تسبح صدورهن أمامهن فى حمام سباحة أسطورى غير خجلات، فرحات ومرحات يستنشقن أكسيجين معطرا، يقاومن خدر الشمبانيا التى يعمن فيها .

يحاول أن يعرف بصمت من فى هؤلاء الشيخ " أبا الخير " عرف صوت عزيزة جلال عندما غنت " دى رقبتى ألماظية، وشفايفى مشمشية، والسنان حلاوة حمصية، والودان حلاوة سمسمية "، وتأكد أن هذا هو محمد ثروت عندما غنى " والجنان حلاوة عباسية، جسمك نصه مهلابية، والنص التانى حلاوة طحينية " .

وقدمت عزيزة جلال أغانى كثيرة بناء على رغبة المتنكرين ، كلها من أغانى فرقة الموسيقى العربية، وفرقة أم كلثوم، وأهم أغنية قدمها محمد ثروت " ريم " لعيد ميلاد الأمورة الصغيرة .

يتحرك فى البهو الكبير ناظرا إلى الحور العائمات، الراقصات على أنغام الموسيقى، أجساد منتقاة، مرمرية من غير سوء، ليست هناك أية علامات مطلقا فى الأماكن الحساسة ، ولون الوجه كلون الصدر كلون الحلمات وردية بيضاء كلون الإبط، عبق العطور ملأ القاعات المتفرعة من البهو الكبير بممراتها الخيالية

والأسطورية، مثيرة للخيال ومدغدغة للحواس والأطراف، ليال تعيد المجد العربى فى بغداد والأندلس فى قرطبة ، ليالى الرشيد عادت حية نابضة نشوى بالترف والجمال .

انفتح باب آخر فبان عن قاعة طعام ضخمة وفخمة، تتصدرها شجرة أعياد الطعام المتلألئة بإضاءات راقصة وألوانها الكثيرة ، ذات أغصان محملة أفرعها بأنواع متعددة ومتنوعة من عنب ورمان وتين وبرقوق ومشمش وخوخ وسفرجل وتفاح وبطيخ وكمثرى، وبرتقال مقشر وكريز، وكل فرع محمل فوق قدرته، ويحف بالشجرة ويعلوها، ويجاورها ويرقد بين يديها آلاف من الصور والتماثيل الغريبة والعجيبة، مصنعة من خليط هذه الفاكهة، يربط قاعة الطعام بالمطبخ نفق تحت الأرض، يحملون إلى القصر كل يوم أطنانا من الثلج لتبريد مياه الشيخ.

قسمت القاعة إلى ست مجموعات ، كل مجموعة يقف عليها بعض الخدم، يلبسون أزياء تنكرية تأخذ نفس أشكال المجموعة، تباسى كبيرة مغطاة، يرفع الغطاء عن طلى كامل محشو بالفستق واللوز والأرز بالكارى بالزبيب والليمون الحامض بالبريانى الحار، رائحة شهية لأطعمة لا يمكن مقاومة تأثيرها، أباريق لغسيل الأيدى من الذهب الخالص، ماء الورد يصب على الأيدى، مناشف من الأحلام .

ثم قاعة أقداح الشاى الأخضر، والنارجيلة، شاى معطر، وجراك معجون من موز وتفاح، تفوح الأنفاس على سمار الليل، جاءت فرقة الرقص المغربية، مخدرات بفعل شمبانيا حمام السباحة ، معطرات، وماكياج حالم وردى خفيف، يبدين من أنوثتهن ورقتهن أكثر مما يخفين، قاعة رقص تحتوى على كل أنواع الفنون العربية التى على وشك الاندثار، صنعت من أحلام تبنى أحلاما .

وفى توهانه ودوخانه دار رأسه بسرعة آلاف الدورات فى الثانية الواحدة، لكنه لا ينسى أن هناك عينين تترصدانه منذ دخوله، لم تتركانه يفلت بنظرة واحدة متأنية، تنظران إلى أى اتجاه ينظر اليه، وهوينظر إلى مفردات قصر الفن، هذا يحس أن ثمة تحديا فى انتظاره، لايستطيع تنفيذه وصيانته إلا " أبا الخير " ، وبدا أنه بروعته تلك

لم يكن بناؤه تفاخرا بغنى صاحبه بقدر ما كان بعثا جديدا لفنون عربية كادت تندثـر، وقد عرف فيما بعد أن الشيخ اختار العمالة التى قامت بتنفيذه بعد الإعلان عن نوعيتـها فى عدة دول عربية وأسبانيا وإيطاليا، ممن آلت إليهم هذه الخبرة العريقة .

وبدت الدورة الدموية من أثر الطعام ثقيلة، وأن المعدة تقابل تحديـا كبـيرا، أضحت حركتهم بطيئة، انزوى البعض صامتا، تحدثوا فيما لاجدوى منه، مؤكدين علـى كرم الرجل وسخائه، مرت بجواره رائحة عطر يعرفها جيدا ، يعرف المناسبات الكثـيرة التى جمعته بصاحبته، تلك التى تعامل معها بنوع من الابداع والعبادة، أثار عطرها فيـه حفيف الحرير وارتعاشة الأحلام، عطور تقرأ الرغبة فى عيون النساء، سيد سـحرهن، عطر مرهف ومتواطئ فى غيه وفى حبه وفى عشقه، طلعتها عـالم حـيرة وتسـاؤل وسحر، تنجرف ريشته فيتوه فى الخيال وفى الرسم الذى يماهى أنموذجا أوحاه وأبدعـه جمالها، اغراؤها قوة فريدة، أخاذة وفذة .

عطرها دعوة لسفر داخلى، اثارة للشعور الحميم، وجرأة المغامرة فيه، دفـع إلى الوله والهيام، وبذل مجازفة سبر أغوار الذات، وهدر سكناتها الكاشفة، قـد يحلـو الصمت، ويسمع فوح العبير فى خلجات عزف متناغم صاخب، بدت الحياة رائعـة فـى ترتيبها الحسن، ينعطف من مكان إلى آخر متشمما آثار هذا العطر الذى يـترك خلفـه أحلاما تخص كل من لحقه .

رأى كيف تتألق الشجاعة والفرح الحى ونضارة الشباب فى عيونهم جميعـا، تلك المبرقعة والمتخفية تحت أقنعة مختلفة من الأشكال .

وجد المدعووين ينسربون إلى قاعات أخرى مجهولة لديه، وعرف أن هنـاك قاعة للأنفاس، وقاعة أخرى للمشروبات المتخيلة، استمر حديث البعض أثنـاء السـكر والسطلان بشكل عابث، وقبل أن ينضم إلى فريق كان قد اشـتعل داخلـه أمـل قـوى، لامعقول، غير قابل للتصديق ، كما تشتعل جمرات من نار أوشكت على الخمود، يأمل أن تعاد علاقته لسيرتها الأولى. وأن عطرها الذى فوحته حوله عربون انتعاشتها. وكـان

بإمكانها أن توفر عليه كل هذا العناء ، وتساءل لماذا لم تفعل هذا ؟ ولماذا الآن ؟ وهل هى فعلا أم رائحة مشابهة ؟

تأنى ونظر حواليه فوجدها تفكر بطريقة عاقلة وحساباتها موضوعية وصحيحة، ورأى العينين عيونا كثيرة تركز النظر عليه، ثمة شائبة ما تشوب تفكيره، وإحساسه بثقته بدا ضعيفا، ولم يرغب فى تقمص دور البطل والشهيد، ويرض بما آل اليه حاله، إلا أن حقه فى أخذ نصيبه من السعادة طغى وتأكد، وبدا أن له ركنا دافئا تحت الشمس، يستطيع منه الاستمتاع برؤية السماء الزرقاء والأزهار والنساء، وعليه أن يستمتع بسهرته وبليلته، وأن يستعد للتعرف على أصحاب الأقنعة ،حين بدأوا فى الإفاقة من غيبوبة الأدخنة الزرقاء والكحولات المستوردة .

وجد نفسه أمام الشيخ " أبا الخير " الذى خلع قناعه فجأة، فعرف فيه صاحب العينين المتميزتين اللتين ترصدتاه منذ قدومه، واللتين تابعتاه فى كل مكان ذهب إليه ، رحب به ترحيبا حارا، ماسكا قناع النمر فى يده، تحدث معه فى ود وأريحية عن الأيام التى قضاها فى الفندق آخذا بيده إلى قاعة أخرى، يرتدون أزياءهم الوطنية، جلابيبهم البيضاء، وغتراتهم الحمراء المزركشة .

رئيس البلدية ، ومدير شرطة المدينة، رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ورئيس تعليم البنات، حاكم المدينة، ورئيس ديوان المظالم، ورئيس المحكمة، مدير الرقابة الادارية، ومدير الشئون الصحية، كبير القضاة، ومدير مستشفى الأمراض النفسية، رئيس غرفة التجارة والصناعة، وبعض الشخصيات الكبيرة التى لا تشغل وظيفة ما ، لكن شهرتها نابعة من الثراء الفاحش الذى يتمتعون به .

فى البدء قال " أبا الخير " هذا هو عمرو الذى حدثتكم عنه ، هو الذى صمم حى المطلقات والأرامل ، وهو الذى يشرف عليه أيضا ، لديهم أعمال كثيرة قرروا بعد اقتناع تكليفه بها .

ذهل عمرو عندما دخل الشيخ الشريف، عانق عمرو طويلا بمودة وحرارة، أشار " أبا الخير " إليه بالجلوس بجواره على تكاءة عربية، وجد وسادة منفوخة، عندما جلس عليها أنت وتموجت على أنغام الموسيقى، انتفض لوهلة ثم تماسك عارفا بالعادات الغريبة التى تستهويهم، يحرصون على استيراد كل ما هو جديد وغريب من الاختراعات والمبتكرات والعادات عديمة الفائدة، ضجوا بما اعتقدوا أنه لايعـرف، عندمـا تماسـك وضعوا على وجوههم أقنعة الاعتدال والاحترام .

عرفهم الشيخ بموقع المكتب، أنهى إجراءات ترخيصه باسـم عمـرو، دفـع الشيخ إيجاره لمدة خمس سنوات قادمة، قال لعمرو : إن لديك أعمـالا لـن تسـتطيع إنهاءها فى سنوات كثيرة قادمة، لقد تعاقدنا مع كل هؤلاء، وبقدر فرحته بهذه الأخبـار بقدر ما انتابته مشاعر متضاربة .

استخرج له رخصة مكتب استشارى ، احضر لـه المهندسـين والمسـاعدين والسائقين، السيـارات والأجهزة الخاصة حسب طلبه وإرشاده ونصائحه، انتفخ صـدره بشعور رائع بالقوة لم يألـفه فى نفـسه حتى فى أوج انتصـاراته، هاهوذا الشيخ يفى بأول وعوده ، حسب لوهلة من فترة انتظاره الفندقية أن مسلسلا آخر قد بدأ عكس مـا وعد، وكانت آمال تقف دائما حائلا بينه وبين انطلاقاته ونجاحاته، ليس لأنها تريد ذلك، لكن لأنها أصبـحت نسيجا فى تكويـنه، وبدا أنه شعور انبسط له الفضـاء المحيـط، فانكمش البهو خزيا، وتضاءل الناس فى نظره إلى حد جعله يفيق من نشـوته، علـى وشك أن يؤكد معرفته بهؤلاء الناس عن طريق المعلومات المتوافـرة لديـه ، والتـى سمعها تفصيلا فى صالة الفندق، المدينـة صغيرة يغلب عليها الطابع العائلى أو القبلى كالقرى المصرية، تتناقل فيها الأخبار بسرعة ، يضاف إليها ما يؤكدها وينمو بحجمـها حسب من يحكى، وحسب خيـاله، وحسب رغبته فى التدمير أو البناء، فى تلك الفترة عرف تاريخ " أبا الخير " كاملا، كيف نجـح، وكيف تعـثر، وأيام عثرته التى طالت

زمنا، ثم كبا وسقط، وكيف بدأ من جـــديد، وارتفع ثانية بسرعة صاروخـــية، خاصة بعد الزيادة الرهيبة فى أسعار الثروة والتى تواكبت مع نصر أكتوبر عام ١٩٧٣.

يكاد يعرف كل واحد من الموجودين باسمه الثلاثى، ووضح له أنه الأكثر قوة، ليس بفعل الانتشاء والتقريظ الذى أحاطه به الشيخ، وليس بفعل سحر الليلـــة ودفئـــها وجمالها، وليس بفعل حضور آمال الطاغي، ولا بالمعلومات والأخبار التى عرفها عنهم، إنما بالإضافة إلى كل هذا تعاقدهم مع مكتبه ، هم الذين يستطيعون بطائراتهم الخاصـــة الوصول الى أضخم مكاتب العالم، أو إحضار العالم إليهم .

ياالله ما لهؤلاء الناس هادئون هكذا، صامتون، مهذبون، ومجـــاملون، حتـــى الشريف أصابته عدوى كبار القوم، يتحدثون بصمت، يوافقون بصمت، تـــدور فنـــاجين الشاى الأخضر المعطرة، ودالات القهوة العربى، تنحنى الفتيات المغربيات مرتكزات على سيقانهن، فتظهر صدورهن الناهدة خمرية تتلألأ وتترجرج تحت إضاءات لا مرئية .

حقا كان عالما ساحرا، يبعث على الانتشاء، لم يقدر على مقاومته، اندفع واقفا متحركا، ناظرا إلى الحائط الشمالى للبهو الفخم، تزينه مكتبة مصممـــة علـــى الطـــراز الإسلامى، مشى إلى هناك، نظر إلى الكتب الكثيرة التى بدت مرتبـــة ترتيبـــا أنيقـــا، مفهرسة فهرسة علمية، ظهر أن هناك من يراعى ويهتم بصيانتها، وجـــد فيـــها كتبـــا قرأت، متنوعة فى الطب والعمارة والأدب والشعر، يغلب عليها الكتب الدينية والتفاســير الكثيرة، وكتب الفقه ، وكان كل نوع من الكتب والشعر خاصة ينقسم إلى قسمين ، قسم للمؤلفين وقسم للمؤلفات، يفصل بين كل قسم وآخر حاجز مـــن خشـــب مـــاهوجنى ذو سماكة مختلفة عن باقى الأخشاب .

ورأى الشيخ حيرته ، وظن انه معجب بطريقة التصنيف، إلا أنه صمت ولـــم يرد على سؤاله مخافة أن يسبب حرجا ما، فتح الشيخ بابا سحريا من المكتبة، دخلا معا قاعة ضخمة مقسمة إلى عدد كبير من الأقسام، مليئة بالكتب، عندمـــا اقـــترب ودقـــق وفحص هاله ما رأى، وجد أن كل قسم عبارة عن مكتبة خاصة بـــأحد أعـــلام الأدب أو

التنوير المصرى تحديدا، فرأى مكتبة عباس محمود العقاد، ومكتبة قاسم أمين، ومكتبة عبد الرحمن الرافعى، وعبد القادر المازنى، وعبد الرحمن شكرى، ورأى آلاف المخطوطات من الكتب النادرة التى لم تحقق بعد، مخطوطات فرعونية، ومسيحية وإسلامية فى التاريخ والديانات، فى الفلك والطب والهندسة والجبر والكيمياء ، وسائر العلوم والفنون، وجد مساحات تحيطها هالة من الحرص خالية استعدادا لمكتبة طه حسين، وأحمد شوقى ويحيى حقى ونجيب محفوظ ويوسف إدريس.

على كل قسم من الأقسام لافتة صغيرة مكتوب عليها اسم صاحبها، وتاريخ حصول الشيخ عليها، ثم وجد امتدادا آخرللقاعة مقسما إلى أقسام أخرى فى انتظار شراء باقى مكتبات أعلام الأدب والتنوير المصرى والعربى، ومساحات أخرى مستعدة لاستقبال مكتبات الأجيال اللاحقة .

بدا الشيخ مرتب العقل ، متماسك الأعصاب ، قوى الذاكرة ، حاضر البديهة ، واعيا لما يمليه عليه ضميره الوطنى والقومى ، فى الوقت الذى يحس فيه بوهن شديد، وإحباط آلاف السنين ، فأقعى راكنا إلى إحدى المكتبات ، هادئا مذهولا وصامتا، أخذ الشيخ بيده، وبدا أنه قد أوشك على الدخول معهم فى دوامة الصمت والحياء .

* * * * *

كان بن درويش الراسى قد جاء من أمريكا منذ مدة، وبدا مشغولا مع مدير الشئون الصحية ، علا صوته مؤكدا أحقية قرية "سان بالراسى " فى أولوية تنفيذ مستوصف بها، وإدراجه على أول قائمة المستوصفات الأولى بالرعاية، خاصة – كما قال بصوت عال – أنكم وعدتم اكثر من مرة، وكل عام تخلفون، ولاندرى ما هو السبب طال عمرك .

مدير الشئون هندى الأصل ، تخرج من طب القاهرة، مريض بالسكر، مسافر دائما، باحث عن علاجات لأمراضه، قال د . كلكتاوى : هدى أخلاقك يابن درويش، ما تدرى الأولويات كيف تختار ؟ واصل : سأرتب لك اجتماعا مع الوزير.

كانوا يترقبون آثار الصياح، وعندما بدا أنهما قد تفاهما رجعت ثانية الأحاديث الجانبية، إلا أن الشيخ " أبا الخير " وجه الحديث لبن درويش : إيش الأخبار .. ايش العلوم .. ايش أمريكا، ما كلمتنا، نبغيك تسولف عن أمريكا، اعتدل بن درويش ومسح ذقنه مبتسما، مشعلا سيجاره ، ناظرا إلى الأسفل، هازا رأسه قائلا : تجيك العلوم يا " أبا الخير" .. هيه.. إيه الجديد ؟

قال والله الجديد اسم الله على مقامكم " شوز " ، عرف البعض ، وتساءل الآخر، فقال "جزمة " ، قالوا الرجال حصله خبل، وقبل أن تتأكد ظنونهم قال : الجديد فى أمريكا جزمة، صمت قليلا ثم أردف : جزمة تنور، قالوا : ماهى جديدة ، قال:الشركة طورت الجزمة التى تعرفون، وضعت لمبة على بوز الحذاء الشمال، ولمبة خلف الكعب اليمين، عندما تضاء بأصبع القدم الكبير تضاء لمبة الكعب أتوماتيكيا .

بدأ يشرح فوائد الحذاء الذى يعطى ضوءا يجنب من التعثر ، ويحذر من الأجسام الغريبة، ويحمى القادم من الخلف من الاصطدام، قال أعزكم الله تمشون بالليل ولا تدرون ، تدوسون ذيل قطة، تلتف إليكم وتخمشكم، تبحثون عن علاج وطبيب وواحد وعشرين حقنة فى البطن، ويمكن تسافرون، يمكن تتكعبلون فى السلالم، له فوائد أخرى، تبغون تتسللون بالليل من غير ما يراكم أحد ، لاتضيئون الأنوار، خاصة اذا كانت غرف الفلبينيات بعيدة .

ضحكوا ضحكا متواصلا، والله عفريت، مخبول ، ما يهمد الرجال، من أمريكا إلى أسبانيا، إلى ايطاليا، إلى مصر، مايجلس وكمان يبحث عن مستوصف لبلده ، قال آخر والله ليفعلها هذا العام ، سأل مدير الشئون مارأيت فى أمريكا غير " جزمة" ؟ قال : عز الله مقامكم، وجدت زحاما، وقفت فى الطابور، قطعت تذكرة، دخلت، ارتشف قليلا من الويسكى، أخذ حبتين كاجو، وجدته معرض جزم، انفجار الضحك فى الجنبات أنفضهم وقوفا، ضحك هستيرى صاخب، قال أحدهم : ما حكاية الجزم معاك ؟

منذ مجيئه وهو فى غير وعيه، زاد من ذلك هذه الأنواع المختلفة من الويسكى، الذى جاء خصيصا ضمن إرساليات خاصة للقنصل البلجيكى القائم فى " جارثيا " ، والمـــورد الرئيسى لويسكى " أبا الخير "، وكانا قد تحادثا عن الطرد الجديد الذى أخذ نصفـه بـن درويش وجئ بالنصف الآخر إلى قصر " أبا الخير " ، كان طردا كبـيرا ونحسـا علـى القنصل فى نفس الوقت، به أكثر من ٢٠٠٠ زجاجة ويسكى فاخرة، بدا على أثرتوزيعه تساقط الشيوخ فى الخليج واحدا إثر الآخر ، وفى تعداد للزجاجـات التـى اسـتهلكت بواسطة المجموعة التى يثق فيها " أبا الخير " ، وجدوا أنهم قد استوردوا فى عام واحد ٣٨ ألف زجاجة، وكانوا لايدرون كيف واتت هذا القنصل الجرأة علـى اسـتيراد هـذه الكمية، إلا أن القنصل المتمتع بحصانة دبلوماسية كان يعرف حقوقه وواجباته، فاستطاع الإفلات من العقوبات البدنية المطبقة رغم افتضاح أمره، وقد نقلته بلاده عقابا له .

قال بن درويش : لم أتعمد ذلك، الموضوع بدأ بالمعرض، لم أكن أدرى ايـش فيه، رأيت تاريخ وتطور صناعة الأحذية منـذ بـدء الخليقـة، أحذيـة لآدم وحـواء، وللشيطان، أحذية فرعونية وبابلية ورومانية، أحذية للهنود الحمر، وكولومبس، أحذيـة رؤساء الولايات المتحدة، أحذية رواد الفضاء، حذاء لمارلين مونرو مسكته بيدى فتـأوه متوجعا، وأحدث ضجة عندما صاح وشهق، كان رقيقا ودافئا، منعنى الحارس من مواصلة تمليسه، رأيت احذية كثيرة ، ومن ضمن ما رأيت حذاء طويل مدبب مثنى مـن الأمام يربط فى ركبة لابسه، وواصل منتشيا من الجو المحيط ، وتشجيعهم : رأيت طـال عمرك حذاء يصنع نعله من المطاط ، ليمتلئ بالهواء فيزيد من طول قامـة صاحبـه ب ٢٥ سم ، أما الأعجب ياجماعة الخير فهو هذا الكرسى الذى أحضرته معـى، كرسـى سيارة تم تصنيعه حسب وزنى بالضبط ، والذى يجلس عليه أثقل منى ، أو أخف يصدر نفيرا وصياحا ، يخرج كلبشات أوتوماتيكية تقبض على يديـه وقدميـه ، ثـم قـال : الأمريكان لهم تقاليد عجيبة . لقد أقاموا نصبا تذكاريا لحذاء برقبة ، عجيب والله .

قال رئيس غرفة التجارة والصناعة، عسى ما تبغى تفتح مصنع أحذية، قال : والله ما أخيب ظنك أبدا، جايلك فى الكلام، رأيت هذا الحذاء فقررت شراء عدة أحذية منه، اتفق أن صاحب المصنع كان موجودا، كتب لى عنوان المعرض، أوصى باضافة واحد زيادة، عربون صداقة، وهو يكتب التوصية سألنى : هل هناك ما يمنع من إقامة مصنع فى بلادكم ؟ لم أتردد ، وافقت على الفور، أعطانى امتيازات عديدة .

أى .. أى .. أى .. هكذا رددوا جميعا فى نفس واحد، كل هذا الكلام من أجل الاعلان عن المصنع، فقال والله يا جماعة الخير ما قصدت، لقد تطورت المسألة بشكل مذهل ، استندوا بارتياح على مساندهم ، أحدثت المخدات موسيقى جماعية ناعمة .

بعد أن تأكدت الفكرة سأل نفسه، لماذا لا أكون وكيلا لهذه المصانع فى الشرق الأوسط ؟ وافق الرجل على الفور، وبطريقة الرجال العمليين كتبنا العقود اللازمة التى تضمن حقوقنا وحقوق الرجل، ناقشوا الخطوط العريضة، ومستقبله الباهر، وبنود العقود، لم تكن سيئة أو جيدة، منصفة لكلا الجانبين، حتى أن المرء يمكن أن يحصى مكسبه خلال جلسته، وجدوا شرطا واحدا مجحفا له من وجهة نظرهم، هو بالتحديد وجده ميزة، لقد كانت نقطة الاختلاف محاطة بآراء عميقة ومتأنية ومدروسة، وجدوا ثغرة يمكنهم منها تقويض تعاقده، ويجب معالجتها لأنها ستكلفه الكثير فى المستقبل .

أوصى مدير الشئون مسئول مستشفى النفسية بالتعاقد من الآن للمرضى الذين ازدادوا كثيرا، خاصة أنه بشكله هذا وبالأوصاف التى سمعها يمكن أن يساعد كثيرا على اتمام شفاء المرضى.

اتصل بمدير المستشفى الرئيسى، رآه صالحا للمرضى أيضا، ويمكن التعاقد بأعداد كل ممرضات الشئون فى المدينة والقرى التابعة لها، قال " أبا الخير" : والله مصنعك لديه عمل لمدة عام على الأقل لجهة واحدة ، ولن تفلت من العمولة ، الا أن ما كان يهدف إليه بن درويش هو التعامل مع الوزارة نفسها . لما وجدوه صامتا، عرفوا

أنه يفكر فيما يتجاوز خيالهم، تأكد " أبا الخير " من ذلك عندما وجده يتجه الى مدير الشئون ليسأله متى اجتماعنا بالوزير ؟

كانت دراسة الجدوى التى أعدها فور تعاقده قد أكدت أن هناك سوقا شرق أوسطية فيها المتسع الكافى لتصريف أحذيته، رأى أن هناك تفكيرا يشغل بالهم، قال : سأوزع الحذاء مجانا اذا لزم الأمر، رفع " أبا الخير " حاجبيه مندهشا .

بدأ الموضوع منذ رأى هذه المرأة فى أحد شوارع نيويورك، نظرت إليه بعطف ورثاء، أرخى أهدابه، وانتابته عاطفة وجدانية، اتبع خطاها، حتى وجدها هكذا فى طابور معرض الأحذية، وقف خلفها ، هذا كل ما فى الأمر .

استعان بالملحق التجارى فى السفارة، وجد أن شروط التعاقد تلزمه بكل بند فيه، وأن سمعة بلده تتطلب فى المقام الأول أن يكون جادا وصادقا، تعطى البلاد دعما كبيرا لكل مشروع جديد يخدم البلاد وينهض بها، تتنازل عنه بعد تأكدها من جدية صاحبه .

نسيت والله أقول لكم، وأنا فى السفارة مع الملحق التجارى رأيت نفس المرأة التى وقفت أمامى فى الطابور داخلة علينا، دهشت عندما رأتنى، تحادثا مع بعضهما ولم أسمع ايش يقولان ، واصل : من هنا ورايح تلبسون أحذية صناعة بلدكم يازينة الرجال، واليوم يا " أبا الخير " جئنا ليساعدنا مكتبك فى تصميم المصانع اللازمة .

قال : ها هو ذا الكلام، واصل : على ها الخشم، قال بن درويش وعليه الشحم، نظر إلى عمرو الذى رأى أن الخيوط كلها قد انفرطت ، إلا أنها تجمعت لحظة أن أعلن عن طلبه .

وبدا أن مكتب عمرو و" أبا الخير " سيكون محورا ثابتا وأساسيا لأحداث كثيرة قادمة. فقد أصبح معروفا لكل أهل المدينة أنه معمارى كبير بحق، وأن ذلك حدث قبل أن يبدأ .

يوغل الليل فتخفت الأصوات، يأتى بخار تثاؤبهم مـــــارا مـــن بيـــن فتحـــات مجالسهم، يضفى ثقلا كابوسيا يغرى بالاسترخاء والتمديد، يكبحـــون جمـــاح نعاســـهم ويقاومون، تذكر الشيخ أن لديه ضيوفا أجانب، وأنهم سقطوا من الذاكرة كالعادة، وجـد سببا كبيرا فى تأجيل مقابلاتهم، ولو لم يكن هذا النعاس الذى أوشك أن يعمهم لما كـــان قد أولى الأمر أهمية ، قال : الهدايا .. قاعة الهدايا.

خرجوا من باب سحرى إلى أحد الممرات الهلامية، جئ بضيوفـــه الأجـــانب، كسالى، مخمورين، يجرون أذيالهم حمقى إلى نهاية ليلة ، سافروا بـــلادا مـــن أجلـــها، انتظروها طويلا، تستأهل كل هذا العناء والسهر .

فى استقبالهم جمع من النساء فـــى أبـــهى زينـــة ، يرتديـــن عبـــاءات مـــن أسمانجونى، فتحة الرأس فى وسطها ، لها حاشية حولها ، مثل فتحة درع، على أذيـــال العباءات رمانات من أسمانجونى، وأرجوان وقرمز، على أذيالها وحواليها جلاجل مـــن ذهب، ورمانة على أذيال الجبة وحواليها، تســـمع الجلجـــلة والجلبـــة كتـــحية استقبال وعرفان لدى كل قادم ،آخذا عطاياه وهداياه التى كانت لكل واحد حسب حظـــه ونيـــته، تراوحت بين عقيق ومرجان، ذهب ولؤلؤ، وكانت أقلها قيمة تلك الهدايا مـــن العمـــلات الورقية الدولارية الألفية .

عندما يتناولونها يسمع صليلها، اعتقادا بطرد الأرواح الحـــاقدة والحســـودة، التى تقبع فى نفس كل متلق على صاحب الدعوة، واستعدادا لأن تنقض ثانية على ذوى النوايا الشريرة منهم.

وهم يستعدون للذهاب إلى فنادقهم ومنازلهم ، محملين بهداياهم ، مروا مـــن نفق الكلاب كى يذهبوا تحت تأثير نباحها، بلا خطايا أو نوايا سيئة، وحتى يبقى القصـــر صافيا كما كان قبل قدومهم .

(٣)

لمدينة " بوط " سمعة سيئة، التصقت بها منذ أن طردوه، استغاث بهم فخذلوه، استقبلوه بالحجارة والألفاظ الجارحة والبذيئة، فدعا ربه : "اللهم أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس " ، وقفوا صفين ، ثم جلسوا صفين ، يمسك كل واحد منهم بقطعة حجر، سار بينهما، كلما وضع قدما دقوها ، طاردوه حتى شجت رأسه وأصابع قدميه، أغاثه رجل على أطرافها، ظلله فى بستانه، أعطاه مياها باردة، وأطعمه، عنبا ورمانا تشتهر به، ظل فى حراسته حتى غادرها .

بدت الملصقات المنتشرة على جدران المكتب قبيحة، تعلن فى فجاجة عن معرض للصور يحكى تاريخ المدينة، تحت رعاية رئيس بلديتها .

كانت الصورة الأولى لنخلة ، وحدائق مختلفة أقامتها البلدية فى سرعة، ثم بعض المنازل الأثرية، وبوابة أحد المنازل ، وألعاب الأطفال بالمدينة، مناظر للشوارع، منظر عام للمدينة، وطريق ونفق ، والمجمع الحكومى والسوق .

جاءت شخصية كبيرة لتفتتح المعرض، صحبت معها التليفزيون والإذاعة والصحافة، أقيمت الاحتفالات على مدى ثلاثة أيام .

بدت مناسبة قومية لاستعراض النجاحات المتوالية للمشاريع التى تنفذ فى جميع أنحاء البلاد ، تواقين لاكتشاف المواهب والاحتفال بها، لديهم رغبة لا تكل فى إبراز هويتهم الوطنية .

أوصوا رئيس البلدية بالمدينة، أصبحت تسابق الزمن لتكون مصيفا نموذجيا، ومن هذه اللمسات استطاعت أن توقع فى شباكها الأدباء والشعراء والفنانين، وفى مقدمة هؤلاء فنانو التصوير الفوتوغرافى، استطاعوا أن يظهروا ملامح كثيرة من جمالها، تترجم انطلاقتها وتطورها .

مدينة ترتفع عن سطح الأرض مائة وثمانين مترا، يعدونها كمصيف عالمى، ناظرين إلى المستقبل بعد نضوب الثروة، مدينة مبانيها من الحجر، صلدة وجامدة، بلا فتحات، شوارعها ضيقة، ناسها بدو يرتابون فى كل قادم جديد، لكل منزل شارع من السلالم ، تتكون من العلاقات بين مسافات فراغها وأحداث ماضيها، منازل عمياء ليس لأصحابها غير طريقة واحدة للهروب، يحبون الحجارة والأسمنت والحديد، تجد شوارعها مزدحمة دائما بسيارات مليئة بموادالبناء، وفى أحياء أخرى تجسد فيلات وقصورا ذات أفنية واسعة، تمتد المدينة فى جميع الاتجاهات بناء على التخطيط العام لليونسكو، أحياء تحتوى على مستشفيات ومدارس وأقسام شرطة وسجون، تزدحم بالدكاكين والسوبر ماركت والمجمعات التجارية المتكاملة على أحدث طراز .

يحتوى أحد أشهر أحيائها على مستشفى الصدر، كما يحتوى على مستشفى الأمراض النفسية " الصحة النفسية فى المستقبل " مديرها حديث المدينة .

لايوجد فيها مصنع أو مياه، محاطة بقرى جبلية، ساعد مناخها البارد على تساقط الأمطار فقامت زراعة محاصيل موسمية كالشعير والذرة والبرسيم فى بعض الأحيان، قرى بها بساتين تنتج عنبا ورمانا ليس لطعمه مثيل، وعسل نحلها يفوق العسل الجبلى لطبيعته .

يحمل البدو حميرهم بكراتين العنب والرمان والكرنب، داخلين إليها، خارجين منها، تاركين آثارهم فى شوارعها التى تزداد بخروجهم سوادا وقذارة .

مدينة صارمة وشكاكة، تطرد الذين ينتمون إليها شر طــردة، وقــع قــدح شرارات حدوات الحمير على شوارعها البازلتية والأسمنتية يثــير القلــق والــترقب، يلتفعون لاساتهم وعباءاتهم الثقيلة، اتقاء برودة تخترق العظام وتقوضها .

* * * * *

بدت المدينة صافية عند نزوله من الطائرة، عليه مــن تجربتــه الســابقة أن يتحلى بالهدوء وأن يترك الحدة والعنف جانبا، أن يصمت صمتا أبديا حتى يتســنى لــه تحقيق أكبر قدر من الأمـــان، عليه أن يعى وصية الشيخ " أبا الخير " التى أوصاه بــها قبل أن يأتى ثانية .

كان المطار بعــيدا عن المدينة، شرح له السائق تاريخها وموقعها من البــلاد المجاورة، وبعدها عن " رون " والبلاد الكثيرة التى تتبعها فى دائرة قطرها ٦٠٠ كم . ذهب الى فندق قصــر التــاج، قال السائق .. آه .. هذا حق المصريين، وجــد رجــال الاستقبال مصرييــن، وآخرين فى الصــالة، حجز غرفــة، لا يعرف المدة التى سيمكثها فى الفندق .

بعد أن أخذ حماما ساخنا تمدد فى سريره، فتح التليفزيون ثــم أغلقــه، غفــا غفوة طال زمنها، نزل إلى صالة الاستقبال فى المساء، طلب شايا وتعـــارفوا، جــاءت سيرة الدكتور عبد المنعم بركات، يعمل فى المستشفى الرئيسى طبيب اســـتقبال، أحــد أبطال سباق الســـباحة، حصــل على درع الجامعة ومسابقة محافظة بور سعيد التــى يفخر بأنه أحد أبنائها، لايترك قادما جــديدا، يســتضيفه إلى أن يحــصل على ســـكن أو يشاركه فى شقته .

* * * * *

كانت التركيبة العقلية لعمرو تمجد الإخلاص للذات فى كل ما يخصــــها، مــن جلسته أحس أن ثمة تقاربا ومعرفة قد تحدث من تكرار مداومته على السهر معهم، وأن ثمة أفكارا جامحة تموج فى عقله لايستطيع التحكم فيها قــد تضــر بــه وبعملــه فــى

المستقبل، قلل من نزوله، متقفيا الحذر فى كل تصرفاته، عدم المشاركة فى شىء، عليه منذ البداية أن يكون حاسما .

أثناء جلوسهم دخل عبد المنعم بركات، رحبوا بـــه، يســـتطيع أن يســاعدهم ويوصى عليهم، لديه القدرة وبسرعة مدهشة على التعرف بأى إنسان مستغلا وظيفته.

تعرف على عمرو ، أصر بلباقة ودهاء وخبرة على استضافته إلى أن يـــأتى الكفيل، قال : هذه أعباء مادية عليك، قال عمرو : إن الكفيل سيتحمل كل المصـــاريف، عندما عرف أنه " أبا الخير " أصر إصرارا غير مسبوق على استضافته، قال : الرجـــل لديه مشاغل كثيرة، وقد لايتذكر أنك جئت أصلا، عليك إذن أن تقتصد فى مصاريفك إلـــى أن يأتى .

وجد أن فكرة الاقتصاد مقبولة، ورغم ذلك عليه أن يتأنى، وقد بات عليـــه أن يعرف أن هناك أمورا كثيرة فى شتى المجالات لابد أن يكتشفها بنفسه ويعرفهَا .

بنظرة ثاقبة صنف عبد المنعم الجالسين، ، لم يكن عمرو مثلهم، إنه مـــهندس معمارى، لن يعمل موظفا، بل سيفتتح مكتبا، وفى المستقبل سيكون لديه معارف كثيرون عليه أن يختار الطريقة المناسبة والتى لاتثير شكه أوحفيظته، تبدو كأنها طبيعيـــة فـــى توطيد وتأكيد معرفته به .

لم يلح على استضافته، تريثوا فى التفكير وتعجبوا من عدم مواصلة إلحاحـه، وكانو قد علموا من الدكتور رشدى أن الشئون الصحية حولته إلى التحقيـــق لأن أحـــد المطوعين ضبطه يزاول التمرينات الرياضية فى صباح أحد الأيام، كانت طريقتـــه قـــد أصبحت محفوظة، وظنوا أنه طورها مع عمرو، ترقبوا وانتظروا ما ستسفر عنه الأيام.

لديه قدرة عجيبة على خلط الحقائق بالأكاذيب، بينما يرفع حاجبيه المثلثين مؤكدا مـــا يقوله بجهامة فيضفى صفة الجدية والصدق على ما يقول، وفى غمرة هـــدوء ضيفـــه وتصديقه لما يقول ينقض طالبا البقاء من ضـــيفه يوما آخر، مضيفا إليه أعباء جديـدة، تتمثل عادة فى احتراق سخان المياه الكهربائى، احتراق كمبروسور الثلاجـــة. احـــتراق

التليفزيون، وشعلات البوتاجاز، وماكينـة الكنس الكهربائية، طالبا مشاركة ضيفه فى هذه الأعباء، لم يكن يعرف أنهم يعرفون، أكد لنفسه مرارا أن ما يقوله هـو الصـدق عينه، يبدل هذه الأجهـزة من الأجهزة المحترقة المعدة فى غرفته، بعد أن يكـون قـد أقنع ضيفه بأنها جديدة .

يضطر الضيف صاغرا إلى مشاركته أعباءه الفادحة، ثم يتذكر كل شىء منـذ شغل الشقة، خراطيم المياه التى اشتراها، الصابون الذى استهلك، الصبانـات والأدوات الخاصة بالنظافة من فرش ومساحيق، معدات صيانة الكهرباء والنجـارة، بـودرة رش الصراصير والعناكب، ثم يعطى سعرا حسب وظيفة شريكه الجديد، يقتسـمها مناصفـة قائلا إن المشاوير والوقت الذى أهدره فى شرائها لن يحاسب عليه، وفيما بعد سـجنه وترحيله أعلن عن مزاد لبيع قصرية اشتراها لمولوده لم تعجب زوجته.

تكررت هذه الأحداث مع كل قادم جديد، وكان قد تعرف بصفته طبيبا اجتماعيا، يتوقع لنفسه مستقبلا باهرا ، بكل موظفى استقبال الفندق منذ جاء أول مرة، قدم لـهم خدمات جليلة بدون مقابل، أوصى عليهم زمـلاءه وممرضاتـه، صمتـوا أمـام هـذه التصرفات الصغيرة، لديه حاسة عجيبة فى قنص معارفه والتعرف عليهم، يقـول : إن الطبيب اجتماعى فى المقام الأول، ينظر إلى عمرو مؤكدا أنـها صفـة مشـتركة مـع المعمارى وإلا من أين يكتسبون ثقة زبائنهم .

من تجربة سفره السابقة اكتسب عمرو بعض الخبرات الخاصة التى تتناسـب مع طبيعة هذا البلد، فالأوقات فى بعض الأيام طويلة، خاصة تلك التى لايوجد فيها أعمال تشغله، أحضر معه صندوقا صالحا لاستغلاله فى لعبتى الشـطرنج والطاولـة، هوايتـه الشطرنج منذ زمن بعيد، يعيد ترتيب أفكاره أثناء اللعب، يجد التباديل والتوافيق الخاصة التى تتناسب مع كل حركة مباغتة وغادرة للخصم، فى الوقت الذى يكون قد أعد عـدة ردود مناسبة تصيبه فى مقتل، فينكمش حتى يتم الإجهاز عليه، اكتسب خبرة طويلـة، طور منها أيضا، أصبح يباغت الخصم بخطط جديدة غير متعارف عليها .

لايوجد أحد يشغل فكره أو يهتم بهذه الألعاب إلا عبد المنعم، يأتى إلى الفندق بعد أن ينتهى دوامه المسائى، يلعبان الشطرنج ثم الطاولة، يطلبان شايا، يشاهدان المسلسلات المصرية والأجنبية، تنقضى الأوقات وتمر.

* * * * *

وكان قد مر عليه أسبوع عندما جاءه تليفون من الشيخ " أبا الخير " يخبره بضرورة حضوره فورا، ينظرون إليه أثناء كتابة العنوان ورقم التليفون، قام ، وقف بجواره ناظرا، نقل عمرو جهاز التليفون من بينهما، نظر إليه بقليل من الازدراء مبتعدا عنه .

بدت تصرفاته دونية، تثير متاهة من الشك والخديعة، عليه أن ينتبه، فذلك الباب يؤدى إلى البرحة، وإلى جهنم فى نفس الوقت، بدا شخصية منفرة، طافحة وخادعة، وضع السماعة بهدوء وتأنى ناظرا إليه بلا رد على سؤاله، ثم عندما كرر السؤال قال: إن هذا لا يعنيك، وعندما عرض عليه أن يوصله بسيارته رفض عمرو .

خبأ توتره وعاد واثقا ، أغلق صندوق الشطرنج ، حان تغيير نمط حياته الفندقية، يقضى سحابة يومه فى الفراش مدخنا، محتسيا الشاى، قارئا الجرائد والمجلات المصرية، يتناول غداءه فى الفندق، يعده طباخ مصرى، ينام قيلولته التى تعود عليها منذ أزمنة طويلة، حين يصحو يبدأ الاستعداد للنزول حاملا شطرنجه .

أحس بانقضاء الوقت وضياعه، هدأت فيه جذوة الحماس رويدا رويدا، والتى لم يضارعها إلا إنقاذ ذهنه واشتعاله وحماسه فور سماعه صوت الشيخ، طاقة عمل جبارة وساحرة، عقل ينبت ذهبا، عصاه السحرية تبين عن كنوز العالم، حلم العاملين فى هذه البلاد، حتى أصحابها، فبقدر ما يتمنون . فإن أمنيتهم الحقيقية هى العمل مسعه، يدعو دائما " اللهم ارزقنى وارزق منى " ، عندما علم الدكتور رشدى بأن عمرو ذاهب لـ "أبا الخير " تمنى أن يكون معه حتى يشغل وظيفة الطبيب المقيم لمؤسسته فى "ديستراكو" .

يتردد على الفندق مساء، جاوز الخامسة والستين، أحد الأصدقــــاء الذيــن تعرف عليهم، وعلى قدر بشاشته وابتسامته فإنه يحمل هموما وأشجانا تنيخ بها الجبال، ومنذ غادر القاهرة فى منتصف الستينات لم تطأها قدمه بعد .

يستعد للذهاب وهو يشعر فى أعماقه بأن تلك الخطوة التى أعادته ثانية إلـــى تلك البلاد تتطلب كثيرا من الحذر وعمرا من الخوف، فى كلا الأمريـــن كـــان شـــعوره بالخجل أمام نفسه هذه الأيام طاغيا،فليس الابتعاد عن مدينة للذهاب إلى أخرى تعبـــيرا عن رفض لمعنى ما، هل كان تعبـــيرا عن التـــمرد وعدم الرضـــا ، ورفـــض انـــتزاع اختصاصاته وتقليم أظافره ؟ هل كان رافضا لانتزاع ســـلطاته ؟ ولمـــاذا يحـــس هـــذا الإحساس ؟ هو الذى لم تكـــن لديه نزعات سلطوية فى يوم ما ، أم كان رفضا للخـــوف الذى لازمه لعلاقته بآمال ؟ أم الاثنين معا ؟ ولماذا كان إصرار الشيخ على التعاقد معـــه غير مسبوق ؟ وغير لاحق ؟

إحساسه بالتخوف والخجل يلازمه، وقد أصبح من الطبيعى ومـــن العـــدل أن ينفض هذا من مخيلته بعد كل التأكيدات والضمانات التى حصل عليها، ومن جانبه أيضا أحس بأنه قام بعـــمل ضخم وصـــعب باتخـــاذه هذه الخطـــوة الجريئة وموافقته علـــى المجئ ثانية .

* * * * *

بدا أن سر قوته يكمن فى عناده ورفضه ووحدته، فحرص على عدم إعطـــاء أحد أسراره حتى لايخترق بها خطوط دفاعاته، لذا فإنها وحدة محببة، حتى مع زمـــلاء العمل فيما سبق، أو مع الصداقات التى ظنها عابرة ومؤقتة فى هذه المدينة .

لم يكن يود رؤية أحد منهم سواء هنا أو هناك، لكننا لا نختار النـــاس الذيـــن يعملون فى حقل تخصصنا، أو الذين يقطنون معنا فى فندق واحد، إنهم يثـــيرون فيـــه الاشمئزاز والقرف لأنهم جاءوا إلى هنا بأحقادهم وعداواتـــهم وحســـدهم، وأهوائـــهم السياسية أيضا، تلك التى لايسمح بالكلام فيها كالمحرمات، وكان ما يغرى علـــى ذلـــك

الثراء المتوحش اللابد فى أرض تعج بكل المتناقضات، والتى أفرزت كل هذه البثور، ما فتىء يعانى منها حتى الآن، فود لو تقوقع على نفسه حتى يحميها، وبقدر رفضه لكل ذلك، كانت لديه رغبة حارقة تتجدد باستمرار فى الرجوع إلى بلده .

كان حلمه أن ينقذها الله بالطريقة التى يختارها، وأن يساعد الشعب ربه فى ذلك، وبدا أن غضبة الله كاسحة ، غير قابلة للاستئناف أو الحوار، وأن غضبة البلد على شعبه لا تقل قسوة، تعصبه لمصريته فاق كل تصور، يضع قدما هنا ، وأخرى هناك، وإذا مات هنا فستساعده مصريته على نزع ساقه ليدفن هناك .

انتبه إلى أنه يفكر فى الموت الذى أصبح مسيطرا على تفكير كل المصريين وعلى أفعالهم، وبدا أن هناك سمة جديدة واضحة ظهرت بها الشخصية المصرية منذ السبعينات، لا مبالية ، وقدرية، واتكالية، وجدوا أنفسهم ذوى ذقون طويلة، لها رائحة، ملابسهم غير معتنى بها وغير نظيفة، ساعدت المساجد وخطب الشيوخ على ترسيخ هذا الاعتقاد الذى ما خبأ يوما، البعض منهم يقتنص لحظة الفرح ويتشبث بها، يستنزفها حتى الرمق الأخير، خاصة الذين سافروا إلى بلاد غربية، والذين عاشوا وتذوقوا واستطعموا الحياة بالمشاركة والمساهمة فيها، أما المصريون الذين جاءوا إلى هذه البلاد فقد شحنوا معهم ملابس باكستانية وعباءات وبراقع وأحجبة وسواكا، شحنوا معهم أيضا أتوابا من الأقمشة ذات الألوان المتعددة، تلك التى تصلح أكفانا لهم ولذويهم، بنوا مقابر جديدة وكتبوا أسماءهم على رخامها .

كان مازال يقاوم سحابات الموت بالانهماك فى العمل، يدرك أن هذه الفرصة الوحيدة، إذ إن عمله وتخصصه هو هوايته وفرحه، يصل إلى درجة الاستمتاع القصوى عندما يرى تصميمه مجسدا، ينمو مع كل يوم جديد، وأن هذه الأبنية أولاده من دمه وصلبه، آخذة كل وقته، وجهده وطاقته، تصل به إلى الدرجة القصوى من المتعة، عندما يحس إحساسا قاتلا بالتعب، عندما ينضح عرقه متنطط من دور إلى دور، ومن سقالة إلى أخرى، عندما يتأكد أن وهن العظم قد تملكه. لحظتها يعرف أنه حارب حربا حقيقية،

وانتصر على الطبيعة وطوع وحشيتها، وانتهك بكارتها، فقد حارب الأرض والريح والمطر، الحر ورياح السموم والبداوة .

* * * * *

بدت المدينة لحظة خروجه من الفندق ثقيلة وكثيفة ، ضبابيتها مركزة ، تنحدرالمياه فى شوارعها والسيول ، أمطار غزيرة تتدفق مشبعة بطعم الشجر وحنين الطبيعة، آخذة معها رقصات أسطورية لنجوم وكواكب تتكسر على سطحها، يمشى بحذر باحثا عن تاكسى، لم يكد يتقدم عدة خطوات حتى هاجمته السيول الجارفة، الرعود والبروق، ثم جاء البرد، حبيبات ثلجية صغيرة فى البداية، ثم حبيبات كبيرة تساقطت بسرعة، أخذت تحدث أصواتا رعدية، وفجوات دائرية فى أسقف السيارات الراكنة غير منتظمة الأقطار والأعماق، لها وقع ورنين وأصوات متداخلة، وبدا أن الأمطار تهطل دما، والسماء ترسل كرات نارية، سمع الأمطار تغنى نغما للأزمنة البعيدة المنسية، رجع مسرعا، نظر من خلال الزجاج إلى السيول الجارفة التى لم يتعود عليها، وجدهم يدخنون ويشاهدون التليفزيون، ويشربون الشاى والنارجيلة والحلبة الحصى ، وجدوه غارقا فى مياهه ، فبعث كل واحد بنصيحة، أخذ مفتاح غرفته ، خلع ملابسه، أخذ حماما، ارتدى ملابس داخلية وبيجاما، تمدد على السرير، بحث عن مجلة أو جريدة أو كتاب ، غير تلك التى قتلها بحثا، وحلولا لكلماتها المتقاطعة، حتى صفحات الوفيات قرأها .

يتردد فى المساء على المكتبات، يبحث عن كتب يحبها وتحبه، فلم يتآلف مع ما هو موجود فيها، بدت كلها تمارين على الموت، لم يجد كتبا سياسية ذات قيمة تثير مشكلة ما أو تطرح رأيا أو تهتم بقضية، ولم يجد فى كتب الأدب رواية أوقصة أو ديوانا من الشعر تخالف غير المسموح، أو غير المتعارف عليه، إنما وجد كتبا تمجد الموت وتحذر من الشيطان، والإنجازات المتوالية .

أخذ سنة من النوم، فلم ير فى أحلامه إلا طوفانات إثر أخرى، كتبا منحـــدرة تجرفها السيول، رأى المغول ونهر دجلة مليئا بالكتب، وهارون الرشيد والمأمون ينقذان ما تبقى، أخذ على عاتقه مساعدتهما، يعمل بهمة وإخلاص شديدين، العرق يتصبب منه، أحس أن طاقته وهنت ونفدت فاستيقظ راضيا عن ما قام به .

ازدادت حاجته إلى القراءة، طلب من الاستقبال أى كتاب، قرأ ببطء، قلب عدة صفحات دون تحديد، دون تعيين، أغلقه وفتحه من جديد، ألقى به، بدا كتابا فقير الـــدم منعدم الرائحة، والطعم والجوهر الإنسانى، مجرد كلمات مرصوصة بالحبر الأسود، على ورق أبيض لامع ومصقول، فقدت لونها، فارغة تماما، معلقة فى الهواء، مجـــرد مـــاء مقطـــر صاف، بدون جراثيم، أو كائنات غامضة، لكن أيضا بدون مواد مغذيـــة، بـــدون حياة .

بدت الكتب والمكتبات مجرد زينة، حتى تستكمل حلية الحضارة، وتتناسق مـــع الديكور، صالحة لتعميق العزلة الإنسانية، تجولت عيناه فى سماء غرفته، فرأى الإضاءة تتراقص، اعتدل قليلا فاركا عينيه، يزداد التراقص، تصطك الدواليب عنفا، وجد نفســـه يتأرجح يمينا ويسارا، يدور ويلف بسرعة رهيبة جاوزت مقدرته على المقاومــــة، ثـــم انقطع التيار الكهربائى، ثم أبرقت السماء وأرعدت، ثم هدير من الأصوات والصيحـــات المستنجدة، تلك التى تندلق وتتكوم على السلم، ووضح أن هناك زلزالا لم يســـبق لـــه مثيل، وأنها المرة الأولى التى يحدث هنا، ولم يعرف كيف وصل إلى الدور الأرضى، ولا كيف وجد نفسه فى صالة الفندق،وأسعفته ذاكرته المشتتة إلى ضرورة التحـــرك إلـــى الخارج، وأن الدور الأرضى والبدروم هما أكثر الأماكن ضررا، عندما أبدى رأيه أيدوه ، وعندما هم بالخروج رأى النيران مرعدة ومزبدة تبرق فى وجهه كأنها فـــى انتظـــاره، حسب أنها بعيدة، وجدها اختلطت بنيران تجرى أمامه عائمة على سطح المياه، ساعدت على ذلك طبيعة أرض المدينة المنحدرة، والتى لا تجد فيها شارعا مســـتويا، شـــوارع

بمناسيب مختلفـــة، تجد منازل مسحورة فى مستوى الشوارع، وأهلة المآذن تطولـــها أيادى الصغار .

كانـــــت المدينة سلــسلة من المخالفات المتناهية، فوق كل سلم سلم آخـــــر يخالفه فى الاتجاه، ومضاد له فى القوة، نابع من أعمدة وكمرات غير تلك التى بدأ بـــها من أسفل.

سمعوا انفجارات السيارات واحدة إثر الأخرى، تنتقل الحرائق بـــلا مقاومـــة، اعتصموا فى منازلهم، وحسبوا أنهم بمنجاة من الغضبة تلك، وعندما كـــــانت النـــيران تتحرك حارقة كل شىء كانت تتساقط أمطار غزيرة، تقلل وتشعل النيران فى آن، وبـــدا أن اعتصام الناس لتمكن الرعب والخوف منهم ، لم يستطع أن يتحـــرك مـــن مكانـــه ، انقطعت كل سبل الاتصال، فلا تليفونات ، لا برقيات ولا مواصلات، أصبحــــت الأمـــاكن منعزلة، وكل مكان جزيرة قائمة بذاتها، صالحة ومهيأة لنوع آخر من الانتقام الإلـــــهى، فرأى حيوانات ديناصورية، وأشكالا غريبة لثعابين وحيات وعقارب سابحة ومنحـــدرة، تلمع أعينها وجلودها تحت تأثير اللمحات الخاطفة للبرق والرعد والنيران .

كانوا يقفون خلف الأبواب الزجاجية، متكتلين صـــانعين مصـــدات وحواجـــز، والبعض منهم يضع الخيش واللباد ويزنقهما بحشرهما أسفل الفجـــوات بيـــن الأبـــواب والأعتاب، ولم ير أثرا لأصحاب البلاد، هؤلاء الذين تكلموا كثيرا ، فيما كانوا يصلـــون لمدة سنوات متصلة حتى يجيئهم المطر، يتصلون هاتفيا ببعضهم ليطمئنـــوا، .. جـــاكم المطر ..ها .. والله زين .. تبارك الله .. كأنهم وجهوا من قبل الراديـــــو والتليفزيـــون المنقطع الإرسال لتأدية الاستغاثة، طالبين منع البلاوى والكوارث دون تحـــرك إيجـــابى واحد من قبل النجدة أو الشرطة أو المطافئ، مستسلمين لقضاء الله الذى يفعل عكس ما يسألونه بوجه عام .

أشعلوا نيران مواقدهم وخشبهم فى أحواش فيلاتهم للاستدفاء، ولطهو الطليان والسليق .

كان لتعدد المناسيب وانحدارها فضل السبق، وعدم تجدد الكـوارث المتعـددة والمتنوعة، انقطع الغليان والغضب على فترات، وصفا الجو وأينع، عـادت الإضـاءة أتوماتيكيا، اشتعلت التليفونات بالمكالمات للاطمئنان وتناقل الأخبار، لم يبق أثر للميـاه فى الشوارع، بدت نظيفة تحت إضاءة الأعمدة النيونية، بدت السيارات المحترقة فـى شريط أسود طولى على الجانبين بطول شارع الفندق .

رأى الرعب على وجوه الأجانب ، الدكتور رشدى مرتاعا، يتذكـر بناتـه، وكان عبد المنعم بركات يستعد للعوم إذا ارتفع منسوب المياه داخل الفندق جارفا الأبواب والحوائط، ولم يكن يؤرقه شيء قدر أرق موته قبل أن يقيم مشروعه التجارى الذى يعد له منذ عدة سنوات .

ثم جاءت روائح طعام العشاء الدافئة والبسيطة التى تليق بنزلاء أجانب، بـدت الشوارع كامرأة أخذت حماما طازجا، ناثرة شعرها، ولم يدر لم خطر بذهنه هذا التشبيه، فقد رأى أن خيوط المياه المتصلة من السماء إلى الأرض شبيهة بالاتصال العنيف الـذى لا يهدأ بين رجل وامرأة، ولماذا تذكرها أصلا ؟ هل لأن الشتاء هو الحنين للمرأة ؟ وأن لا شيء جميلا فى الشتاء كالنساء، أم أن ذكرى امرأة ضاجعها شـتاء خطـرت لعقلـه وذهنه ؟ أم هو البرد والحنين إلى الدفء ؟ أم هى الوحدة ؟ أم هـو الخـوف الـذى لا ينقشع إلا فى رحم امرأة وحضن امرأة وصدر امرأة ؟

جاءته ذكريات قراءاته المتعددة عن الأرض والنساء والمطر، وعن الفتاة التى تحولت إلى امرأة بعدما سقطت عليها نقاط مياه شتائية ، والأرض التى أخصبت بفعـل سقوط نقطة مطر من غيمة .

ينظر خائفا ألا يكون الكابوس قد انتهى ، متوقعا نيرانا ومياها أخرى تذكـره بنهاية العالم ، حارقة فى طريقها كل شيء ، أمطارا فيضانية ونيرانا وخرابا، هدأ مـن روع نفسه ، ورجع ثانيـة ، ليتلقى مكالمـة من الشيخ " أبا الخير " سائلا : لماذا لم تأت ؟

(٤)

لن يتخلى عن الأرض التى يقف عليها ، رغم أن الخيوط الهلامية المتشـابكة بدأت تلتف حوله بخبرة واتقان، استقر رأيه على القيام بعمله على الوجه الأكمل تحت ضغط أية ظروف، ينصت بانتباه إلى رأى مدير الشـئون الصحيـة فـى عقـد ترميم المستشفى الرئيسى، وضح أنه يتكلم كثيرا، ومن خبرة عمرو استمع إليه جيـدا ، لـم يقاطعه، يوجد مجموعة من الأطباء، تخصصات مختلفة، كبيرة الممرضات، وكبير الخدم ، وحملة المباخر، منهم عبد المنعم بركات، يمشون فى موكب المدير، يبـدى رغبـات بعيدة كل البعد عن العقد، عن دفتر الشروط والمواصفات، والمقايسات المرفقة، وضـح أن عمرو سيعيد كتابة الشروط من جديد، سأله عما إذا كان قد قرأ هذه الشروط، قال : مالى شغل، هذا العقد من العام السابق، ونحن فى عام جديد، فيه أشياء زادت ونرغبها، الدولة ما قصرت، ولن تقصر، قال عمرو: إذا كتبنا مقايسة جديدة تتطلب تعاقدا جديـدا، وهذا يتطلب موافقة جهات عليا، ربما تأخذ بعض الوقت .

صمت الدكتور كلكتاوى، نظر فى عينى عمرو، ثم قال بعد قليل : احنا نبتـدى هذه المقايسة ثم نطالب بالجديدة، أقره ، سأله مزهوا بفكرته: هيه ايش رأيك ؟ قـال : فكرة صحيحة، قال : هل هناك رأى أو شىء بخصوصها، قال عمرو : إننا سنقوم بعمـل المقايسة فورا، فقط نود أن نعرف البنود التى تريد إضافتها، وفى أى مكان ، ثم سـأله عن المبلغ الذى " سنتحرك فى حدوده " ، قال إنه بلا حدود، اشتغل ولا يهمك شىء، أنا المسئول، عرف فيما بعد ان هذا المدير يكن احتقارا شـديدا لكـل الأقـوام البدويـة ،

يتصورها دائما معادية للحضـارة، يقول حياتـهم قائمـة علـى السـلب والنـهب والخطـف والعدوان، وفى أحيان أخرى يقول : لم أر عربيا إلا وكان حـاملا بندقيـة، كأنها أداة انتاجه، أو كأنه فى حرب دائمة مع البشرية ، ثم يتساءل كيف يمكن أن يقيـم مدينة من ليس له عنوان .

مدير المستشفى المسئول عصمت الفار طبيب مصري لـه خـبرة بالمسـائل الإدارية، استمر أكثر من عشر سنوات فى هذا المستشفى، أدخل تحسين نظام الرعايـة الطبية، ووجه دفة الإدارة، هما الهدفان اللذان لايمكن الجمع بينهما، أثنى عليه مديـرو الشئون الصحية الذين تناوبوا، وعلى خلقه الرفيع وعلى الأهم عدم تدخله فيما لا يعنيه، حتى ولوكان من اختصاصه .

يشاهد عبد المنعم بركات يطل كل مدة ، لا يجرؤ على الخروج من الموكـب، تصادف أن جاءت عربة إسعاف بسرعة، أطلقت سارينـاتها عاليا، توقف المدير سـائلا جميع رؤساء الأقسام حوله، لم يتفرقوا إلى أعمالـهم إلا عندمـا طلـب منـهم ذلـك، استأذنوه، أدهشه كسلهم وتراخيهم، تساءل : هل قوة حضور المدير الطاغيـة تجعـل الأطباء الأجانب ينسون واجباتهم؟ أم لأنهم يخافون مـن اسـتقبال الحـالات الخرجـة والحوادث ومرضى الإسعاف ؟ يحملونهم تبعة موت المريض، يحاكمونهم بناء على ذلك، عندما ينفردون بأنفسهم لايجدون بدا من إطلاق ملكة الإبداع لديهم حتى ينشئوا خلقـا آخر، مكتملا من بقايا خلق متهرئ تحت تأثير حوادث أو كوارث تتكرر يوميا .

استفاق على صوت المدير ، ياعصمت اسبقنا إلى مكتبك ، هـرول، عندمـا دخلا سأل عن رئيسة الممرضات، تأنت قليلا، جادة ومتصلبة الملامـح بتـأثير الثيـاب المنشاة والسلطة المخولة لها، كانت جميلة جمالا يفوق الوصف، اندفعت داخلة : أوامر سعادتك يا افندم، قال : لا تتركينى لحالى، خليك جانبى، ثم أشار للدكتور عصمت : لماذا لا تحضر لنا الشاى ؟

لم يظهر عليه أثر للمفاجأة ، وضح أنه قد تعود على قضـــاء مثـل هـذه الخدمات، وعندما ابتسمت رئيسة الممرضات المصرية، عرف عمرو لماذا، لا يسـتطيع المدير الاستغناء عنها، ابتسامة من السحر المنسكب السيال، الهادئ، ذات كثافة ووزن، لاتمحى ولا تنسى ببساطة، كانت من تلك النساء اللاتى لارغبة لهن إلا الحظوة بإعجـاب الجميع، لكى يشعرن بحلاوة الحياة، تهتم كل الاهتمام بشبابها، تعنى كل العناية بوجهـها ويديها وأسنانها، بكل تقاطيع جسدها التى يمكن أن تكشف عن مفاتنها .

ظلت على صمتها الواثق، التفت إليها، سألها عن هذه المشكلة التى طالت أكـثر ممـا يجب، قالت : نريد رأى سعادتك ، وكانت تعرف أنها كاذبة، لأنه منذ طلبت منه من عدة أسابيع البت فى شراء دواليب الممرضات قبل أن تنتهى الميزانية، وهو يماطل، يختلـق الأعذار المختلفة، فى الوقت الذى كان يساوم بالاتفاق مع مديرى المشـتريات ببعـض الشركات على الأسعار، قرر أن يشترى أغلى أنواع الدواليب وأكثرها جودة، لم يسـتطع عمرو التحكم فى لسانه المنفلت، قال : إن هناك دواليب تايوانية رآها فى السوق جيـدة جدا، قال المدير : إننا نرغب فى دواليب تليق بمكانة البلاد وثروتـها، صمـت عمـرو تماما، أخذ على عاتقه عدم التحدث فيما لا يعرف خلفياته، وفيما لايخصه، قال المديـر أرسلوا إلى فيحان ، جاء مسرعا مبتهجا، ألقى السلام واضعا ساقا على أخرى، قال ايش سويت فى الدواليب، قال : طال عمرك كل شىء جاهز على توقيعك، استأذن قليلا راكنـا فى أحد جوانب الغرفة، وقفا ، تحادثا بهمس، ثم جاءا .

كانت الدواليب الجديدة صناعة وطنية، حجزوا نقودها من ميزانية هذا العـام، لأكثر من ثلاثمائة ممرضة يخدمن مستشفيات المدينة، سينتهى تصنيعها فور تسلم سكن الممرضات الذى لم يبدأ العمل فيه بعد، سيتحدث المدير مع عمرو بخصوصه، بصفتـه استشارى وزارة الصحة بالمدينة والمشرف من قبلها على سكن الممرضات .

رئيسة الممرضات سألت عمرو عن انطباعه عن الناس هنا بصفتـه وافـدا جديدا، وعما إذا كان هناك شىء ينقصه، وعن طعامه وكيف يعده، وأين يسكن. أسـئلة

ودودة ومريحة ودافئة وعائلية، يحب أى رجل غير متزوج أن يسمعها، عرف أن اسمها لطيفة، يشغل زوجها وظيفة مهمة فى وزارة الداخلية، سعى له فيها الدكتور رشاد الذى قال إن كل شىء سيكون جاهزا، لا تقلقى، ثم سألها عن الأولاد .

بصفتها المسئولة عن ممرضات المستشفيات والمستوصفات فى المدينة والقرى التابعة طالبت بعدة أشياء خاصة بهن أصدر المدير عدة أوامر بتشكيل لجان خاصة للتنفيذ والمتابعة، منها لجنة شئون الملاءات، اتفق على أن تكون بيضاء، والمراتب تكون بمسطح ملة السرير الذى لم يعرفوا أبعاده بعد، سيتحدد حسب مساحة الغرفة، ولجنة خاصة بعجل الدواليب والسراير حتى يسهل تحريكها .

كانت هناك لجنة لشئون المخدات، وأخرى لأكسسوارات الدواليب ومفاتيحها، وأخرى لاختيار نوع اللمبة أعلى السرير ، ولجنة لاختيار قصريات المرضى وخراطيم البول ذات الفتحات المناسبة ، أصدر تعليماته بضرورة تعدد مصانع المفاتيح حتى لا تباح دواليب البنات، أعطى أهمية للجنة شئون البطاطين، حيث إن جو المدينة قارس البرودة، ستجوب أنحاء البلاد لاختيار أفضل عينة، كتبوا بندا فى أحد محاضر اللجان بجواز سفر اللجنة إلى خارج البلاد للبحث عن الأنواع الجيدة إذا لم تتوافر فى الأسواق الوطنية، أما لجنة مفاتيح الغرف فعليها الاستعداد لتسلم المفاتيح من المقاول والتأكد من عدم التكرار .

وهو يشرب شايه ويدخن سيجارته، لمح ومضة ، قبض عليها، أمسك بالتليفون، طلب الوزير، صمت قليلا، انتفض واقفا على الكرسى مرحبا، بدا ينصت فقط، يتكلم عن يومه كاملا الذى قضاه فى المرور على المستشفيات وتفقدها، وترميمات المستشفى الرئيسى، وكيف أن الاستشارى يقترح إضافة بعض البنود التى يراها مهمة،

لاقى كلامه استحسانا لدى الوزير، نظر لعمرو الذى ذهل، يهز رأسه مع كل كلمة يسمعها، ناظرا إلى الجميع، راصدا وقع كلامه على وجوههم، ثم صمت : حالا يافندم، فورا يافندم .

انطلقت السيارة الجيمس إلى المطار بسرعتها القصوى، سمع اســمه مــن الإذاعة الداخلية، لحق الطائرة، قرر الوزير اجتماعا فوريا مع الإدارة الهندسية .

* * * * *

أثيرت أقاويل كثيرة بعد تعدد المشاكل التى يثيرها أهل هذه المدينة بخصـوص هذا المستشفى ، وطلبات أخرى كثيرة ، دفع أولو الأمر بإعطائها الأولوية القصوى فـى كل شيء، ومما شجع على ذلك المستقبل المشرق الذى ينتظرها .

يعرف أن أى تردد أو تقاعس سيتحمل مسئوليته فيـــأتى العقــاب كالعــادة صارما، بخلعه أولا من الوزارة، ثم نفض يدهم من حمايته، ثم الإيعاز لأى مسئول بنبش تاريخه، وإلغائه إذا كان تاريخا نظيفا واستبداله بكتابة تاريخ وسخ خاص بكل واحد على حده، تجده اغتصب عددا لابأس به من الممرضات، وأن له ضيعات وصفقات لا حصــر لها، وشركات استثمارية، وله علاقات متعددة ببعض الأشخاص المشكوك فى أخلاقياتهم، وتهم أخرى كثيرة تنتظره إذا لم يكن على قدر من الوعى يتيح له التحرك سريعا، أحس الناس بمدى أهميته فكثرت حتى المغالاة دعاويهم واعتراضاتهم وطلباتهم .

قررت اللجنة المجتمعة إضافة البنود الجديدة المطلوبة، وتفويض لجنة بها كل التخصصات، تسافر فورا لإعداد المقايسة الإضافية، فأنشأوا أقســاما متخصصــة فــى الضعف الجنسى والمنشطات الجنسية، حيث يعتقدون أن الذى لا يمارس الجنس ثلاث أو أربع مرات يوميا ضعيف ، والأفضل أن تكون خيطا واحدا ، يترددون على المستشـفيات من أجل وصفات وحقن وحبوب مقوية، وقد بدا أن الجنس هو شاغلهم، جاءت اللجنـــة فى صحبة المدير، ملأ المستشفى صياحا، وتر أعصاب الجميع، تحرك فى كـــل اتجــاه بسرعة فائقة .

كانت الترميمات قد بدأت بعد أن تسلم عمرو الموقع بناء على العقــد السابق، يتحـــرك مع اللجنة فى كل اتجاه، يشير إلى الأماكن التى يرغب المدير فى إضافتهــــا، صــوت المدير رفيع، حـــاد وعـــال، ظهـــر وجهه الأسمـــر المشوب بالخضرة قاسيا وعنيفـــا،

قائلا : الشغل شغل، مافى هزار، اللى يبغى يتحمل المسئولية أهلا واللى مايبغى أبـــواب البلد مفتوحة، ينذر ، يتوعد بلا أى سبب، وكان ما يشغله أكثر من اللازم تشكيل لجنـــة لاختيار نوع من اللمبات أعلى السرير، واختيار قصريات المرضى، وخراطيم البول ذات الأطوال والفتحات المناسبة، إذ إنه كرر أمر تكليف بهذه اللجنة أكثر من مرة.

يستعجب عصمت الفار والأطباء المرافقون من التطورات الجديدة التى طـرأت عليه، والقوة التى فاجأته، يتساءلون من يقصد بهذه التلميحات، وقف عصمت بجـواره، حل له مشاكل كثيرة مستعصية، أشار فى أحيان أخرى إلى حلول مستقبلية تنفعـــه فـــى اللحظات الحرجة، هناك تقارب خفى يجمع أحيانا بين اثنين لا يخاطب أحدهمـــا الآخـــر بكلمة، لا توجد فجوة أو جفوة، هو الذى اختاره مديرا للمستشفى، وتعـــاقد معـــه فـــى القاهرة، بينهما عقد بأواصر الود والصداقة، ساعده ، رغم أن عصمت أجنبى ، علـــى السفر إلى لندن عندما جاءته ذبحة صدرية، عالجه على نفقة الدولة، ومع ذلك هاهو ذا يضبط نفسه متلبسا بالعداء، لا يريد النظر إلى وجهه ، ما الذى جعله هكذا متناقضا .

كانت حالة من تلك الحالات الحماسية التى تنتابه، فيها يثبت الـــود والـــولاء والعطف، ينسى حينئذ لمن يوجه كلامه، قدرة الجمع المحيط بالمدير علـــى استشـــفاف المعانى العميقة للأشياء أشعرهم بأن ثمة خطأ ما فعله كل واحد منهم على حدة، أكـــدت ذلك طبيعتهم كأجانب، يقف عمرو منتحيا ، متوقد الذهن ، ينـــاقش مـــهندس المقـــاول الباكستانى طاهر سليم، المسئول من قبل شركة " ظل " فى أهمية بدء العمـــل بجديـــة، وتوفير العمالة الكافية، والنوعية المطلوبة .

لاحظ أن العمل لم ينتظم بعد ، ولم تنفذ الشركة الكمية المقررة فى بنود العقـد المختلفة حسب الجدول الزمنى، يتكلم عمرو بحماس فى حين طاهر سليم يأمل أن يهدئ من انفعـــاله، يـــقول بعربية مكـــسرة : مستر أمرو .. شوية .. شوية .. مديـــر كبـــير موجود .

أذن لصلاة الظهر، خفتت الأصوات المتناقشة ، وخبا التفكير، كانت منقذا، وحلا عمليا لامتصاص غضب المدير، منقذة لطاهر سليم الذى توقع تصعيد هذا الإهمال بشكل أو بآخر، يعرف عمرو أن المدير لم يكن فى أحسن حالاته حتى يستقبل خبر الإهمال هذا .

استحوذ على عقل طاهر سليم أن عمرو يتقصده وشركته، اتصل بالمقاول تليفونيا، أفهمه أن الاستشارى يثير المشاكل، لا نعرف ايش يبغى، ثم تساءل : لماذا عمرو يكره الباكستانيين، فهم المقاول الرسالة، استقل الطائرة.

التقى حسين ظل بالمدير ، طرح معه المشكلة، قال : إن المصرى هذا يلف ويدور ولا ندرى ما الذى يريده، طلب د. كلكتاوى " أبا الخير " ، جاءه فى الفترة المسائية غاضبا، قال : إن الشئون شايطة، يمكن أن يصعدوا المشكلة إلى الوزير، قال عمرو ذاهلا : أية مشكلة، ولماذا الشياط ؟ قال : ما تدرى ايش سويت ؟ قال عمرو هادئا : أنا لم أسو شيئا، قال : هيا بنا، ركب مع الشيخ فى سيارته، عندما دخلا وجدا المقاول وطاهر سليم ومدير المستشفى والمدير، وجمعا غفيرا آخر، ينظر الجميع بلا استثناء إليه، أمسى هدفا لأنظار القوم جميعا، قال المدير موجهاً كلامه إلى عمرو : اسمع يامهندس احنا ناس هكذا كالسيف، لا نحب اللف والدوران ولا المشاكل، نبغى نخلص عملنا فى صمت دون أن يدرى عنا أحد، ثم سأله ما الذى تريده من الشركة دى، وأشار إليهما .

لا يعرف أن هذا الرجل صاحب الشركة، لايتذكر أن قابل هذا الباكستانى إلا مرة واحدة أثناء وجود اللجنة، ران الصمت ، لم يتكلم عمرو، قال " أبا الخير " لم لا تتكلم ؟ وما الذى تريده ؟ انتفض عمرو واقفا، استيقظ من ذهوله، قال ما الذى حدث بالضبط ؟ أنا لا أفهم شيئا، ماذا أريد من هؤلاء ؟ لم أر هذا الشيخ مطلقا قبل الآن ، ولم أر هذا المهندس إلا صباح اليوم عندما نبهته إلى عدم وجود عمالة كافية، وعدم وجود النوعية المطلوبة لتنفيذ بنود العقد ، يظهر الانفعال والغضب من صوته وصياحه .

قال المدير لماذا لم تقل لى ؟ ولماذا لم تكتب هذا فى تقريرك اليومـــى ؟ بـدا السؤال شائكا ومحرجا ، استدرك عمرو : أنا لم أتسلم العمل إلا منذ مدة ، ولا أريد إثارة المشاكل بكتابة التقارير منذ البداية. تذكر الحديث الذى تم بينه وبين الباكستانى، فـــهم منه أنه يسجل نقاطا لصالح الشركة بتقديم فروض الذل والطاعة، لتكون لهم اليد العليا، حتى لا يثير عمرو المشاكل معهم، ويبعدوه عنهم، انتبه إلى أن مثل هؤلاء الأوغاد مـن العالم الثالث لا يصلح معهم إلا الأوامر المكتوبة، واصل: لقد نبهت هذا المهندس إلـــى ذلك، فالعمالة العادية غير كافية والنوعية المطلوبة غير موجودة، ولقد مرت مـدة دون أن يبدأوا فى تنفيذ أى بند من البنودالمهمة إلا بعض التكسيرات التى لا تحتاج إلا يمنيين أو عمالة عادية .

بدا الباكستانى أصفر الوجه مرتعبا من اكتشاف أمره وكذبه، وأن هذه بدايـــة لاتبشر بخير كما قال المدير، أيده الشيخ " أبا الخير " ، لم يتكلم صاحب الشركة، ينظـــر بعينين حادتين إلى عمرو، فهم استكانة مهندسه كاعتراف منه بنقل الصورة بغير أمانة، وناسيه هذا تماما، أيقن أن هذا ما يحتاجه فعلا، وأنه يستطيع إثارة المصـــرى فـــى أى وقت، لأنه يتكلم بانفعال شديد وسهام نارية طائشة.

تيقن " أبا الخير " أن هذا الباكستانى يعمل بولاء كلابى أكثر من اللازم، أمـــا مدير مستشفى الأمراض النفسية فنظرإلى الباكستانى نظـــرة متأنيـــة راصـدا تطـور انفعالاته، وقدرته على الكذب والوشاية.

اتخذ عمرو حذرا إضافيا كافيا، رغم حرصه المعروف عنه ، فـــها هـــى ذى الوجوه جميعها جالسة، تنتظر تورط أى أحد، وهو بالذات كما شعر من التشـــفى فـــى نظرتهم، خاصة هلال الراسى، حتى " أبا الخير " نفسه ، أوعز أكثر مـــن مـرة منبشـــا وسائلا عما إذا كان هناك شىء يمس المصرى ويؤخذ عليه. انتبه إلى أن مثل هـــؤلاء الأوغاد من العالم الثالث لا يصلح معهم إلا الأوامر المكتوبة، واصل: لقد نبـــهت هـذا المهندس إلى ذلك، فالعمالة العادية غير كافية والنوعية المطلوبة غير موجودة، ولقـــد

مرت مدة دون أن يبدأوا فى تنفيذ أى بند من البنود المهمة إلا بعض التكسيرات التى لا تحتاج إلا يمنيين أو عمالة عادية .

بدا الهدوء الذى يسبق العاصفة مأسويا، يدير مدير الشئون كل هذا الزخم برأسه، يفكر بتأن، لن يخدعه أحد، ما الذى يريدونه، هل ثمة اتفاق بين " أبا الخير " وحسين ظل، هل يريدون إثبات أنهم على خلاف حتى يعملوا بهدوء ؟ شاعت فى هذه الأيام فكرة الاختلاف بين الجهات المتباينة التى تضطلع بعمل واحد، حتى يقدم الجميع دليل إخلاصهم الوطنى أمام المسئولين الذين لا يهدأون إلا إذا كان الجميع لديهم مشاكل مع بعضهم .

فكر عمرو فى اتجاه آخر تماما، تساءل ما الذى يجبر رجلا على الكذب ؟ ولم يكن ذلك إلا لأسباب عدة مجتمعة فى شخصية واحدة مركبة تركيبا معقدا، فالكذاب كما قرأ لا يتصف بأى صفة من صفات الإنسانية أوالرجولة، فهو خنزير عامة يأكل الروث والبراز والحشرات وهو متهرىء ومجروح، مقهور ومقموع ، مخرب داخلياً ، غير واثق من نفسه، يسقط كل تلوثه وتشوهه على الآخرين، آخذ الكذب وتكرار إعادته فى أكثر من مجلس وسيلة من وسائل إبعاد الشبهات عنه، يجمع بين طبيعة سيئة ، رديئة منحطة، وبين قدر كبير من التحلل من كل القيم الإنسانية، انتباه عمرو لهذا النوع من الأشخاص يحاصرهم فى ترهاتهم، وجد أن إثارة هذا الموضوع فيه كل المصلحة له، فها هم أولاء قد كشفوا ورقة من أوراقهم، عليه أن ينتبه إلى باقى الأوراق القادمة .

لم يتفق المقاول مع مهندسه على إثارة هذا الموضوع، وضح له أن دراسة الجدوى المتأنية التى قام بها الباكستانى أظهرت أن المؤسسة ليست لديها القدرة على القيام بتنفيذ هذا المشروع الضخم فى المدة الزمنية المقررة ، ، فبدأ فى إثارة المشاكل، ليس لحجم الأعمال الموجودة فى العقد فقط، وإنما لحجم الأعمال الجديدة أيضا، وجدها أعباء على مؤسسته، أنشأها تحت تأثير ونصيحة أحد المسئولين، شاركه من الباطن

فى إنشاء هذه المؤسسة، أرسى عليه عطاء هذه العملية كبادرة أولى، وتساءل هل تمت إضافة الأعمال الجديدة بنصيحة من شريكه ؟ ثم لماذا يتحمس المدير هكذا ؟

الأسئلة المثارة فى مخيلة كل واحد على حدة أظهرت الوضع شديد التعقيد، والمتابع لكل هذه الخيوط مجتمعة يتضح له أن كل واحد فى واد، له أحلامه وطموحاته، لايهم أحدهم مصلحة المرضى أو المدينة أو البلاد بأثرها، والمسئولون الذين تهمهم مصلحة البلاد لاتصلهم الحقيقة عادة ، وإن وصلتهم فهى ناقصة تخدم شخصا ، فكرة ، أو هدفا ما .

وكان أسامة اليمنى مدير النفسية يتابع بدقة ما يحدث، وقد تأكدت نظريته فى سلبية الجميع المطلقة، جاء تلك الليلة راغبا فى تشكيل لجنة حتى يتسنى لهم تسليم الموقع لمؤسسة جبر ، فلسطينى جاء إلى البلاد منذ أزمنة طويلة، استطاع الحصول على الجنسية، أورثها أولاده .

لم يستطع أسامة الصمت، اتصل بالمسئولين، أفهمهم الوضع كاملا ، ومما قاله أن الشئون لا ترغب فى تعريف أحد بما حدث، وهو لحرصه على مصلحة البلد، وحتى لايضحك علينا الأجانب رأيت أن أبلغكم بكل مادار .

ظن أنه بإظهاره ولاءه لقنوات أخرى، ربما ينتزع فيما بعد اعترافا باستقلال مستشفاه عن الشئون، حيث تكون له حرية الحركة والاتصال لمركزه الحساس، حيث الكثير من مرضاه من الشخصيات التى لها وزنها وثقلها وتأثيرها، وربما يشغل المنصب الذى تاق إليه طويلا، فيما كانوا ينتظرون الفرصة لإبعاده عن البلاد نهائيا .

أثناء خروج عمرو وجد عبد المنعم بركات ، عزم عليه، تاقت نفسه إلى التحلل من تلك القيود، ومن المسئولية، يزداد عبؤها وثقلها يوما بعد آخر، ذهب معه، يلف فى عنابر المستشفى، عانى عمرو من رؤية المناظر الأليمة البشعة، استنكر فى نفسه هذا الموقف السلبى، فما الذى منعه من ضرب هذا الباكستانى الكذاب، فى الوقت الذى رأى فيه المرضى يقاسون بشجاعة، خاصة مبتورى السيقان والأيدى، والذين

طالتهم أمراض مختلفة، هل يكتفى بمراقبة الجهد الذى يتغلبون بــه علــى مخــاوف الموت، أدرك كيف يضعف الانسان لمرأى المرضى والجرحى ،عندما زار مدينة الوفــاء والأمل، وتحت تأثير تلك التجربة فطن إلى أن البكاء عليهم ومواســـــــاتهم ضعــف يوهن طاقاتهم على المقاومة، سمع أحد الوطنيين يصيح فى أحد الأطباء : كيف يمــوت يادكتور ، ليش يموت، ايش تسوى هنا، ليش تاخذ أجر، لازم تروح بلدك .

زاد من عبء تحمل أعصابه لكل هذا انصراف " أبا الخير " دون أن يتكلــم أو يدعوه ، عرف أنه لايجب أن يعَول عليهم كثيرا، وألا يأخذ تصرفاتهم بجدية، علم بعــد ذلك أنه استضافهم تلك الليلة بمن فيهم الباكستانى، رأى لطيفة حين دخل عبــد المنعــم غرفة أحد المرضى، استوقفته ضاحكة، متسائلة عما جاء به فى هذا الوقت، لم يستوعب ملاحظتها، وما تلمح به ، كان ذهنه مشغولا ومكدودا، فطن إلى كلامها، وعدهــا بــألا تفوته ملاحظتها مرة أخرى ، وأنه جاء إلى هنا بلا هدف وبلا وعى، وأنه انساق إلــى رفقة عبد المنعم دون أن يبدى رأيا، عزمت عليه بكوب شاى، أشارت إلى غرفتها، قــال إنه بانتظار عبد المنعم، لم تكرر الدعوة .

حكى لعبد المنعم بعد أن لمحه واقفا معها، قال له : انتبه وابعد عنها فهى هنا مديــر الشئون نفسه، لا تخدعك رقتها ومظهرها، ستنقل إليه كل شىء، ستجئ إليــك العلــوم والأخبار، ثم واصل : عندما حكيت لها عن الدش السماعة الذى اشتريته، نقلت الخــبر إلى المدير الذى طالبنى بواحد مثله، ثم انتاب المدينة سعار تغيير أدشاشها .

وفيما كان جالسا فى غرفة الطبيب النوبتجى جاءه شاى، عرف مصدره أخذ يتصفــح إحدى المجلات المصورة، لم يجد فيها شيئا ذا بال، مجلة من المجلات العديدة التى بــلا فائدة، عن الموضة والماكياج والنساء والطعام، وبعض الموضوعات المليئة بالخزعبلات والوشم والزار والجن، وكأن المجلة الأخرى نسخة مكررة، افتقد مجلة روز اليوســف وجريدة الأهالى والأهرام، والجرائد والمجلات الأخرى، وكانت مجلة روز اليوسف قــد عبرت عن رأى الشعب بكامله بعد انتفاضة ١٨، ١٩ يناير، كانت جرأتها تتعدى حــدود

الوطن، نقلت عنها وكالات الأنباء لمصداقيتها، وقف الشعب بالطابور للحصول عليها، يجد فيها مرآة صادقة لهمومه ومشاكله، وآماله وأحلامه فى الحرية والديموقراطية، فاخر النظام آنذاك كل شعوب المنطقة بمساحة الديموقراطية التى يتمتع بها الشعب .

كانت الجرائد والمجلات المصرية قد منعت من دخول هذه البلاد منذ قرروا مقاطعة مصر بسبب مبادرة السادات، لاقى المصريون إثر ذلك سلسلة من التعنت لامثيل لها. كان متقبض القلب والأساريرعندما وقفت لطيفة وطائفة من الممرضات فى شبه هجمة ، فرملت عند باب الغرفة، نظروا إليه كأنه كائن عجيب، أومأت له، أشارت وهى تدير رأسها فى جميع الاتجاهات، عندما قام إليها أخذته جانبا، شكرها على الشاى، بادرته قائلة ببساطة : ماالذى عرفك على هذا ؟ أخبرته بتصرفاته التى سمعها فى حينه، وكان كلامها صادقا، ثم حذرته، قالت إن سمعته ليست فوق مستوى الشبهات، ثم قالت : إنه يقدم خدمات خاصة للمرضى، ويستجدى مساعداتهم، وعندما شما رائحة، تركته على إثر مشاهدته قادما .

بعد فترة طويلة من الانتظار جاءه تاكسى، أوصله إلى مسكنه لم يجد أحدا فى الطريق، أخبره السائق أن الناس بمنازلهم عادة فى مثل هذا الوقت ، وهو بالخارج سمع رنين التليفون، أسرع إلى مسكنه، هيئ له أن الرنين مازال مستمرا، رفع السماعة ثم وضعها ثانية، فتح التليفزيون وهو يخلع ملابسه، وجد برنامجا عن المعوقين، حوله إلىالقناة الثانية، وجد حلقة دينية من التراث، لم يحن بعد ميعاد المسلسل الأجنبى، انتظر قليلا، كانت حلقة من مسلسل الرجل الأخضر، تأتى بعدها المصارعة الحرة .

أثناء المشاهدة رن التليفون ثانية ، لم يعط الأمر أهمية، فظاهرة المعاكسات التليفونية لغة عالمية، قرأ أن امرأة شغلت رجلا على مدى خمس سنوات بأكثر من مائة مكالمة تليفونية ليلية، تعرف قيمة وقته ودقته ومسئوليته، تتحدث إليه من أكثر من مكان حتى لايتم التعرف عليها، اضطروا لوضع التليفونات العامة تحت المراقبة، ثم رن جرس التليفون ثانية، لم يتحمس للرد عليه، طالت دقات التليفون إلى أن رفع السماعة

فانقطع الخط، تعود على ذلك، هل هو " أبا الخير " أو الأجهزة الأمنية للمدينة حتى تطمئن على إيواء الأجانب إلى مخادعهم .

فى الصباح طلب أحد الوطنيين تصميم عمارة مثلثة، غريبة الشكل، اشترط تفردها وعدم تنفيذها فيما سبق فى هذه البلاد أو غيرها، فرصته الوحيدة فى استثمار أمواله، دخل " أبا الخير " صاحبا معه حسين ظل وطاهر سليم، تَقَهُوا، تناثرت الأحاديث فيما هو مشغول، لم يدر لم عمارة مثلثة بالذات، حاول أن يجد سببا واحدا معقولا لذلك، إصرار الرجل وجديته واضحان ، بين له : إذا كانت هذه فرصة عمرك كما تقول، فإن أرضك المربعة سيهدر نصفها تماما، تحت إلحاحه وبعد التفكير فى عدة كروكيات خطية، سأله عمرو : وما الذى يمنع أن تكون ثلاث عمارات مثلثة، انتبه الرجل، لم يتوقع ذلك، خلع غترته وطاقيته ناطا معبرا عن فرحته، ذلك أن عمرو رأى أن الشكل المعمارى المثلث المصمم فى الأرض المربعة لابد أن يقسمها إلى ثلاثة مثلثات، الأوسط كبير ومثلثان متساويان .

يجرى الرجل فرحا فى كل الاتجاهات، سيمتلك مالم يخطر على باله، والمصرى حل له المشكلة حلا فرعونيا، قال : سأمتلك ثلاثة أهرامات، تطورت الفكرة لدى عمرو فتخيلها متدرجة الارتفاعات، ازداد صياح الرجل، مما أجبر الشيخ وضيوفه على المجئ، قال له تعال شوف ايش سوى مهندسك .

ينظرون إليه، جالسا يدخن سيجارته، فيما جلس الرجل واضعا ساقا على الأخرى، طالبا شايا آخر، وبدا أن جلسته ستطول، قال الشيخ : تعال ياعمرو، تكلموا فى الصالون بشكل متقطع وعلى استحياء، أبانوا عن رغبة المدير فى تصميم فيلا خاصة، سيتولى تنفيذها المقاول ، هو يريد التصميم من قبل مكتبنا، طلب منه أن يمر على منزل المدير مساء ، قال عمرو إن الإمكانات كلها متوافرة هنا، وتساءل لماذا لايحضر مثل باقى الناس، قال " أبا الخير " إن مركزه حساس ولا يستطيع أن يأتى وزوجته إلى هنا .

* * * * *

رفيعا وقصيرا كما رآه فى منزله، لابسا الثياب الوطنية، يأتى إلــى عملــه خــلاف الجميع مرتديا بذلته عادة، شياكة بلا حدود، رافضا الزى الوطنى، مما عطل ترقيته عدة سنوات، جاء ماسكا الكروكى المساحى للأرض، لم يتكلم، جاءت سيدة على درجة عالية من الأناقة والجمال، بضة وادعة وهادئة، ترتدى فستانا حداثيا، يكشف عن مساحة مـن صدرها، شعرها أصفر مسترسل، قوية الشخصية، عندما بدأ زوجها يتكلم أشارت إليــه بسبابتها، لم ينطق طوال الجلسة، رأى عمرو عدة تصميمات على ورق مربعات، أعدتها هى حسب شروط البلدية بالضبط، رأى أنها تصميمات جريئة لاتتناسب الجو المغلــق، ديناميكية لاتخدم الثوابت الإنشائية، ذلك يناسبه تماما، لا يستسيغ الاســتاتيكيات التــى تحجم الفكر وتقتل الخيال، ثمة أرضية مشتركة فى التفكــير، أعـدت السـيدة أربعــة تصميمات مختلفة، تناقش معها فى كل تصميم على حدة، حتى لم يبق إلا هذا التصميــم الذى أعجبه كثيرا، أدخل عليه عدة تعديلات مراعيا الأمان فقط .

جاوزت الساعة الواحدة صباحا، مر عليه أكثر من خمس ساعات فى مناقشة لاتـهدأ، أجبرته على الإصغاء لكل كلمة تقولها، وكل حرف تنطقه، لديها قــدرة مدهشــة علــى المناقشة وعلى الحوار، ولديها البدائل المختلفة لكل إجابة .

تخلل هذه الساعات تقديم مشروبات مختلفة، قطع من الحلوى التركية التى أعدتها فى منزلها، لها مذاق وطعم ورائحة، تترك أثرا فى الفم لايمحى، ثم عشاء تركى على أنغـام موسيقى تركــية، عرف أنها خريجــة فنون جميلة من القاهرة، تعرف عليها كلكتــاوى هناك .

لفت نظره الصالون وشياكته ونظافته، واللوحات المعلقة على الحوائط، وصورة لها، وصورة الزفاف كاملة التحرر، هاهو الجو المثالى الذى يحلم بالحياة فيه، تذكر صــلاة الجمعة التى أداها أمس فى المسجد، هاهى ذى سيدة بجوار المسجد بالذات تفخر بأنــها تقتنى لوحات محمود سعيد، وسيف وانلى ولوحة انسان السـد العــالى لعبـد الــهادى الجزار، مما دفع عمرو إلى الوقوف أمامها طويلا، كانت زيتا على سوليتكس ، أمعــن

النظر وتفحصها، رأى هذه اللوحة مرات عديدة، مهووس بها، كيف جاءت إلى هنـــا، من الذى سهل لها المرور إلى هذه البلاد، هذه الأسئلة التى تمور داخله لم تجعله يفقـــد إحساسه بالبهجة وبهذا الجو الودود .

اتفقوا على التصميم، أخذ توقيعها عليه حتى لاترجع فى كلامها كما أفهمـــه زوجـــها أثناء إعدادها العشاء، قال له : الله يكون فى عونك يامهندس، ابتسم عمرو، لم تبـــق إلا الواجهات التى وعدها بأن تكون جديدة تليق بهذا التصميم، سألت عن المـــدة الكافيـــة لإنهاء التصميمات التنفيذية والإنشائية والكهربائية، هكذا قالت بالتفصيل، قال عمرو فى حدود أسبوع، أفهمته ألا يبدأ بدون أن ترى الواجهات أولا .

قال له كلكتاوي : إن هذا ثامن أو تاسع تصميم، وإنها هلكته ، وسودت وجهه، مـــع كل مكاتب المدينة، دون أن يعجبها أى تصميم أو أى مكتب، وأنت المهندس الوحيد الذى قدمت له كل هذا الكرم، والذى صمد معها كل هذا الوقت .

من خبرته عرف كيف يسأل، وعرف كيف يترك المساحات، ويحى بالأسئلة، ويفتـــح الثغرات التى جعلتها واثقة بأنها تشارك فى تصميم أرضها، وأن فهمه لـــهذه المســـألة خاصة فى هذه البلاد كسب صداقات كل عملاء مكتبه، مما جعل أى سؤال غامض موضع مساءلة متلاحقة، قالت وهى واقفة تودعه : أنت الرجل الوحيد الذى جعلنى أوقع علـــى ورقة بعد توقيع عقد الزواج ناظرة إلى زوجها، انفرجت أساريره لأول مرة .

(٥)

فيما كانت الطائرة تخفق بهم فى بحار الصمت متجهة إلى " ديسـتراكو " أشـار المضيف إلى أن ثمة عطلا فنيا "سيضطرنا إلى النزول فى مطار " هان " ، وعندما دخلت الطائرة المجال الجوى للمدينة لاحظ للمرة الأولى – رغم أنه يركب الطـيران الداخلـى كثيرا – أن طائرتين حربيتين تلفان حول طائرتهم، إلى أن حـاذت كـل طـائرة أحـد جناحيها، وبدت ملازمتهما حيث استوليتا عليها .

كانتا من طراز فانتوم، يعرف هذا الطراز جيدا منذ الاعتداءات المتكـررة للطـيران الإسرائيلى فى العمق المصرى إبان حرب الاستنزاف، تحمل الطائرة التى بجواره شـارة سلاح الجو الأمريكى، عرف فيما بعد أنهم لم يبلغوا مطار " هان " بقدوم أى نوع مـن الطائرات .

كانوا مجموعة فنية متكاملة من المستشارين، كلفت من قبل رئيـس البلديـة الـذى يجلس فى مقصورة الدرجة الأولى، بناء على إشارة نائب معالى الوزير. لـهم مهمـة

محددة، استدعت ذهابهم إلى " ديستراكو " ، وكانت البلدية قد كلفت مكتبه بتصميمات وإشراف على مشاريع متعددة، "والاستعانة بخبرتكم حتى ننهض جميعا ببلدنا " كما جاء فى أمر التكليف .

بنوا ناطحات سحاب على أراض رملية من الزجاج الأسود والألمنيوم الأسود فى بلاد درجة حرارتها فى الظل حارقة، تغلبت جرأة المصمم الأمريكى على جو البلاد وتقاليدها؛ ساعدته معرفته بأسرار التكنولوجيا الحديثة ودراسته لعلم النفس ومعرفة عادات الناس، اعتمد على رغبة البدو فى التغيير المتجدد، وقدرته على الإقناع والإبهار، هدموا المبانى القديمة فى نظرهم والصالحة لعشرات السنين القادمة والمتوافقة مع الجو الحار، تلك التى صممها معماريون مصريون مثل سيد كريم وتوفيق عبد الجواد وأحمد كمال عبد الفتاح ، وشريف إبراهيم .

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة صباحا، أصروا على النزول أمام مدخل الوزير، تشقق وجهه فور نزوله، فى صالة الاجتماعات دخل وكيل الوزارة، يسبقه عدد من المهندسين للتمهيد، وضعوا أمام كل عضو أوراقا وأقلاما ومياها معدنية، وترامس وفاكهة، وميكروفونا، بدا الاجتماع لا نهاية له، تطرقوا إلى عدة موضوعات لم تكن ضمن جدول الأعمال.

ناقش وكيل الوزارة اعتماد الميزانية الضخمة للكوبرى الجديد، الذى تم إنشاؤه فى طريق السيول، نظر عمرو إلى رئيس البلدية، وجده مستغرقا فى أوراقه يقلب فيها، لم يتكلم أحد .

بحث فى أوراقه بجدية عن أى معلومات تخص هذا المشروع، حسب أن جهله بمعرفة ما يجرى فى المدينة هو الذى يعوقه عن إيجاد معلومات عنه، كانوا جميعا واثقين، معتدين بأنفسهم، يتحصنون بوطنيتهم .

تكلم الوكيل عن نزع الملكية وتعويضات الأهالى المناسبة والشركة الكورية التـــى نفذت المشروع، نظرا لسابق خبرتها وتعاونها بمعدل فاق ما كان متوقعـــا، وبنوعيـة تشطيب جديدة، ثم قال : ان يوم افتتاح المشروع كان يوما مشهودا، دُعيت إليــه كـل الشركات الأجنبية الموجودة فى البلاد، والمطلوب منكم بعد أن تــم اعتمــاد الميزانيـة رسميا وصرف مستحقات المقاول عمل محضر تسلم للمشروع، عند ذلـك دخـل أحـد الأشخاص الوطنيين، أشار إليه بأنه الممثل الشخصى للشركة الكورية وأنه كفيلها .

* * * * *

وقعوا جميعا على المحضر إلا أن وكيل البلدية كتب تحفظا ما مبديا امتعاضه طـــوال قراءة أمر التكليف، كتب عمرو قبل أن يوقع أنه لم ير المشروع فى المدينة بأسرها .

صاح الوكيل كيف تكون استشارى البلدية ولم تر المشروع ؟ وقال آخر : إن عملـك الكثير لا يجعلك منتبها لما يحدث فى المدينة التى تتغير يوما بعد يوم، تعددت الصيحـات إلى أن شككته فى توقيعه، لدى رئيس البلدية أوراق وأوامر تكليف موجهة إلى مكتـب عمرو بضرورة الإشراف الدورى، ثم أن هناك تقارير من مكتبك تفيد بأن العمـل ينفـذ حسب البرنامج الزمنى، والمعدل المطلوب، وحسب أصول الصناعة، ثم أشــار بعـرض الأوراق على أعضاء اللجنة .

* * * * *

فاحت رائحة مشروع هدم وإزالة السوق القديم، اتضح أن رئيـــس البلديـة كـون الشركة القائمة عليه باسم بعض الأشخاص الوهميين، أعطاها تكليفا بالأمر المباشر لمدة شهر، العقود كلها قانونية، لم يجد الوكيل مانعا من اعتماد المحضر والميزانية.

تعددت مشروعات البلدية من رصف شوارع وحدائق ضخمـة، بمـا فيـها المرايـا العاكسة للطرق السريعة .

كانت الساعة قد جاوزت الثالثة ظهرا عندما أحس الجميع بالإرهاق ، أعد لهم وكيل الوزارة غداء عربيا فخما، تناولوه بتلذذ وبتؤده وبإمعان مع البيرة الخالية من الكحول .

حاول عمرو جادا العثور على الكوبرى، استغرق ذلك عدة ساعات لمدة أيام فى طريق السيول الذى كاد يسبب له الجنون، لم يجد حتى تلك اللحظة أية كبار جديدة فى المدينة، تحدث بإفاضة مع الشيخ " أبا الخير " قال له : هؤلاء الناس يعرفون أكثر منا .

طلب ميعادا مع رئيس البلدية ، أضحى فى حالة مرور دائم على المشاريع الجديدة، راح يتعقبه من مكان إلى آخر، دخل عليه ذات صباح، ضج الرجل وصاح به : ما الذى تريده ؟ كلما أذهب إلى مكان يقولون الاستشارى .. الاستشارى ...، ما عندى شغل الحين إلا الاستشارى ..إيش فيه ؟ إيش تبغى ؟ هيه ، عندما نرغب استشارتك سنرسل إليك، لاتزعجنا، أخذ فى توقيع معاملات أمامه، التفت إلى بعض الأشخاص المنتظرين .

انطلق بسيارته ، لا يعرف إلى أين يتجه، مشى فى الشارع الرئيسى، الساعة التاسعة صباحا، أحس برغبة فى تناول الشاى، وعندما رأى محلات الأطعمة المختلفة تذكر أنه لم يتناول عشاءه، اشتاق إلى الفول وطعمية الحمص الشامية ، بدت لذيذة جدا، أخذ كمية لزملائه، حارقة بالشطة وكمية من المشروبات، بجوارها بائع الشاورمة المشهور، يتزاحم عليه الناس فى الصباح أيضا ، مر على المكتب متجها إلى حديقة الصحة الحديثة، طبيعية ذات مساحة هائلة، حددتها البلدية بالأسوار، وملأتها بألعاب الأطفال، فى الطرف الشرقى للمدينة، أعلى قمة جبال ومنحدرات، أناس قليلون، كبار السن ومن الأجانب الذين يرافقون زوجاتهم، يخرجون معهن فى الصباح، يخجلون من الذهاب إلى البيت ثانية، يذهبون إلى الحدائق، أغلب المرافقين يقومون برعاية الأولاد الذين لم يدخلوا المدارس بعد، يفرحون فرحا بلا حدود بهذه الالعاب الممتعة والشيقة والحديثة، جبال صغيرة طبيعية ومياه، نافورات وأشجار وأعشاب جهنمية وأعشاب مبتلة .

اشتهرت كل حديقة بشخصية معينة، واسم معين ، حسب المنفذ والمصمم والحـــى الذى أقيمت فيه، ارتادتها كاميرات البلورايد الفورية، ذات الذاكرة التسجيلية المدهشـــة، كما ارتادتها مع العائلات المتابعة لأحدث منتجات العالم المستوردة كاميرات الفيديو التى تواكبت مع اختراع الفيديو العجيب، تلال من أعشاب وخضرة، طرق مرصوفة، مزينـــة بالزلط ، ذى ألوان متعددة، استوردوه مع رخام وجرانيـــت وبـــازلت، وطـــوب متعـــدد الأشكال، متعرج السوك، له استعمالات مختلفة، وجديدة تناسب الديكورات المقترحة .

استزرعوا أشجارا لا تنمو إلا بجوار الأنهار، تعشش وتغرد فيها العصافير التى تتقافز فى القلوب، وتتنطط نابضة ، مزهوة وفرحة، عرف فيما بعد أنها كانت أصواتاً مسـجلة، أشجارا نابضة، تذخر بألف لون من الخضرة، وبعناقيد من النحل بين الزهور، جـــداول من مياه رائقة وشفافة من أوردة تنبع من جبال بدت طبيعية .

أخذ يمشى الهوينا، ثم أسرع ، ثم جرى، ثم هدأ، جلس على أحد الكراسى تحت مظلـــة من قماش ملون، أحس بالعطش، جذبته رائحة الطعمية، احضر عدة سندوتشات ، وعلبة كولا، بدت الصور الكثيرة المعلقة فى أى مكان تتجه إليه تنبهه وتحذره، كانت صـــورة مكبرة طبعت منها آلاف النسخ لأربع شخصيات كبـــيرة ، يرقصـــون رقصـــة الســـيف المشهورة، وزعت فى أنحاء المدن .

* * * * *

من الذى وافق على طبع هذه الصور؟ هل الذين يفتون فى الخندق المضاد لمفتى البـــلاد أم هى منظمة الشبيبة الوطنية المناهضة ؟ والتى ترغب فى تقدم الوطن ورفعته ، والتى تقف بالمرصاد لأى فتوى لهذا المفتى ؟ أم أن النظام يرغب فى تمجيد الذات فيتخطـــى المحظورات، حتى ولوكانت هذه الصور محاكاة لفعل الـــرب، ضاربـــا عـــرض الحـــائط بالمفتى وفتاويه، وما يستند إليه.

بدأت هذه المنظمات نشاطها على استحياء، لم يعطها أولو الأمر أهمية تذكر، تقـــوم بعمليات لاتعلن عنها، مما ناسب هذه الأجهزة الأمنية التى ترغب فـــى الوصـــول إلـــى الجانى قبل أن يستفحل أمره، وتنتقل العدوى بالإشاعات والكلام إلى باقى الشعب الـــذى يتوق إلى نسج الخيالات وخلق الأبطال، والبطولات التى تتناسب مع هذا الفراغ .

تساءل الناس بين بعضهم بحذر شديد عن هذا الذى يحدث، ومن الذى يقف خلفـــه، رغبتهم فى المعرفة تخطت كل المحظورات، إلى درجة أن أوهم البعض نفسه بأنه أحـــد أعضاء خلايا التنظيم، وخوفا من إفشاء سره أخذ الاحتياطات الكاملة والحذر المـــوروث فى تخيل أعمال والقيام بتنـفيذها، نكاية وانتـقاما، إلا أن هيئـــة الإذاعـــة البريطانيـــة أذاعت بانتظام ماتقوم به هذه المـــنظمة من قلاقل لإشـــعال الثورة، بدا أن لها جـــذورا ثابتة وسابقة، أحد أهدافها التى كتبت ضمن منشورات وجدها المصلون علـــى أبـــواب المسجد الجامع عند خروجهم هو " ثروة العرب للعرب " كان نداء وطلبا وتحذيرا منـــذ بداية الستينات .

كانت الإذاعة البريطانية تذيع عن أعمال صادقة وكاذبة، ووهمية، تؤكد على إذاعتها أكثر من مرة فى اليوم الواحد، مما يوحى بمصداقيتها، تسببت هذه الإذاعة فـــى قطـــع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين فى وقت ما، لكنها لم تتراجع، أذاعت عن أسماء تـــم اعتقالها وعذبت تعذيبا وحشيا بشعا، كان هذا صادقا وصحيحا، وأذاعت عـــن أسـماء رحلت من البلاد وأسماء أغتيلت بطرق غامضة، نشرت بيانات كثيرة لمنظمـــة حقـــوق الانسان التى كانت تذيع بيانات أخرى من مصادر مغايرة ، ورغم الضربات المتلاحقـــة التى وجهتها لها الأجهزة الأمنية التى تطور أداؤها تطورا مذهلا، إلا أن هذه المنظمـــة كانت تجتذب أعدادا غفيرة، خاصة الشباب منهم يوما بعد يوم .

لا أحد يعرف من الذى يقف خلفها ويعضدها ، إلا أن بعض الأشخاص الوطنيين الذين تكاثرت طلباتهم بحق اللجوء السياسى، والذين كانوا يعملون فى سفارات بلدهم ، كانت تربطهم بالمنظمة خيوط واهية أحيانا، لا تبين أحيانا اخرى، يدعمونها وينشرون آثار ضرباتها، وينشرون أيضا أنواع التعذيب، الذى يتلقاه أعضاؤها .

ترى منظمة الشبيبة أن الفقه البدوى هو حجر عثرة أمام تطلعات وأحلام شباب هذا الوطن فى الدخول إلى عالم الإنسانية الرحب، حيث يركن إلى الثوابت والفتاوى، لذا فإن تحقير وتسفيه هذا الفقه كان أحد أهدافها .

فيما سبق كانت الجرائد توزع بدون صور لبنى الإنسان، تمتلئ بصور الطائرات والبواخر والأشجاروالصحارى والبساتين وبمرور الوقت نزلت الصور على استحياء، باتفاق مسبق بأن نشر أى صورة لامرأة خارج نطاق المسموح إلى الأبد، يحرص الرجال على ذلك، بمن فيهم أعضاء هذه المنظمة نفسها، هاهى ذى فى تطور مثير تنشر صورة نادرة لأربعة مسئولين كبار يرقصون ، ضاحكين بعباءاتهم، كأنها صورة طبيعية التقطها فنان قدير بتلقائية شديدة، تبسط حياة الكبار وتحببهم إلى الشعب، بها مشاعر فياضة ودافقة من الإنسانية والود، لا تتناسب مع هذا السيف الضخم، القاسى الصلادة .

* * * * *

وهو يركز النظر فاجأته قافلة مرور البلدية، راكبة سيارات اللاندروفر، تمشط الحديقة، تلقى التعليمات الميكروفونية عن أهمية متابعة النظافة أولا، يعرف أن هذه الدورية تنطلق من مبنى البلدية المؤجر، قبل أن تأتىالميزانية الضخمة لكى تبنى لكل حى مبنى مستقلا، تجوب أنحاء المدينة بحثا عن نظافة الشوارع فى المقام الأول،وزراعة الأشجار ، ولم تكن الانطلاقة الإنشائية الكبرى قد بدأت بعد، لكنها بادية على استحياء ، فاستحدثوا وجلبوا المبتكرات الأصلية، وعند تنفيذها بدت

ضـــعيفة وهشة، شكلها بديع وممتع وجذاب، لكنها غير راسخة وغير ثابتة، لم تكـن كالجبال الرواسى التى تليق بهذه الصحراء الممتدة، والتى تقاوم عواملها الطبيعية، بدت ضعيفة الثقة بنفسها .

حصل أمين المدينة الجديد على صلاحيات غير مسبوقة ، لحظة أن كشف لـــهم ســـر "بوط " الصيفى كمشفى ومصيف، ومنتجع المستقبل، قرأ قبـــل أيـــام إحـــدى الجرائـــد الوطنية، لفت نظره رسم كاريكاتيرى، كان مثار حديث الناس، تم القبض على الرســام ، صـــادروا الصحـــــيفة لمدة أسبـــوع، يمثل بقرة ترعى فى " هـــان " وتحلـــب لبنـــــها فـــى " ديستراكو " وتلقى روثها فى " رون " .

يتقدم قافلة سيارات البلدية رئيسها والمهندسون الذين رافقوه إلى " ديستراكو " كـل واحد يقود سيارته الحكومية، تم تعيينهم فور مجيئهم رؤساء لأحياء المدينة التـــى تـم تقسيمها على عجل، أعطى رئيس البلدية لكل مهندس منهم صلاحياته بما فيها البحـــث عن مكان لائق لإقامة فرع البلدية .

كانوا خريجى كليات الهندسة الوطنية، وكانوا بدايات الدفعات الأولى، صغار السن بلا خبرة ، تراكمت المشاكل فيما بعد ، اضطروا إلى الاستعانة بالخبرة الأجنبية ثانية .

يستعيد هذا الهجوم، رأى سيارة " أبا الخير " تدخل الحديقة وتخرج بنفس الســـرعة التى جاءت بها، لم يتحرك عمرو من مكانه ، وفيما كانت هذه الأحداث تمـــر بمخيلتـــه وفيما كان مستسلما بقدرية لما يحدث ، مساقا بلا مقاومة ، جاء رجل مسن ، قبـــل أن يجلس على الطرف الآخر من الكرسى الخشبى أخرج منديلا ورقيا ، مسح ألواح خشـــبه المتباعدة ، مدهونة بلون أبانوسى فخم ومتين ، سيقانه وعارضاته السفلية ومســـانده مدهونة بلون أخضر زاه، بدا الرجل وقورا ببذلته الأنيقة ونظارته وتجاعيد وجهه، قبـل أن يجلس ألقى التحية، أشعل سيجارة بعد أن عزم على عمرو، فور أن جلس نظر فـــى ساعته، ثم بعد فترة نظر فيها ثانية، سأل عمرو عما إذا كانت ساعته مضبوطة ، قـــال إنه لا يحمل ساعة، استعجب الرجل لحظة ثم هدأ ، كان الرجل مصريـــا، يرغـــب فـــى

الحديث، لفت نظرهما رجل يصرخ، ينتصب ويجلس على مبعدة منهما ، يمشى خابطـا بكلتا يديه رأسه من الناحيتين، طويل اللحية فى العقد السادس من العمـر، رث الثيـاب أشعث الشعر يلبس معطفا رماديا وسروالا قطنيا أبيض، وقميصا باكسـتانيا مفتوحـا، جميع ملابسه مجعدة وقذرة، وجهه شاحب شارد، نحيل بارز القسمات، عيناه زائغتان ، براقتان .

عرف أن الرجل الجالس بجواره على المعاش منذ عدة سنوات، كان ناظرا لمدرسـة التحرير الثانوية المشتركة، اسمه على عبد العزيز، قدم مع ابنته مرافقا لها منذ فـترة، لم يستطع الحصول على عمل، قال مشيرا إلى الرجل : إنه يمر من هنا يوميا منذ بدايـة العام الدراسـى، حالته لا رجاء منها، اختطفوا ابنه من هذا المكان، واغتصبوه فـى هذه الجبال، أشار بيده بعيدا، ، حالته تزداد سوءا بمرور الأيام، امتنعت زوجتـه عـن الذهاب إلى المدرسة، يصرفون لها راتبها، يحاولون علاجه فى مستشـفى الأمـراض النفسية قبل انتهاء السنة الدراسية بلا أمل وحتى لاتتراكم رائحة عارهم، وتتسبب فـى إضافة مشاكل جديدة .

كان عمرو صامتا يستمع بلا تفكير، سأله عن اسمه ووظيفته، انتبـه وهـو يـرد ببساطة على أسئلة الرجل، بدا مبتهجا ومنشرحا عندما علـم أن عمـرو يشـغل هـذه الوظيفة، وأن لديه هذا المكتب، توقع الحصول على وظيفة لديه ، خاصة عندما علم أنه مصرى، لم يسأله عن اسم ابنته ، ثمة إحساس متبادل بمواصلة الحديث دون حـذر أو خوف، قال الرجل إنها مدرسة رسم، فنانة ، تستطيع أن تكسب ذهبا لو بقيت فى بلدهـا أخرج صورتها من حافظته، قال إنها ابنته الوحيدة ، اسمها سناء، أمها سيدة عجـوز، حاولنا استقدامها لكنهم رفضوا، حتى الزيارة منعوها .

بدت فاتنة بكابها أعلى الرأس، وتقاطيع وجهها المصرى، ورشاقتها فى بنطالـها وبلوزتها، تقف مستندة إلى جوار عمود أيونى فى بهو كلية الفنون الجميلة بالزمـالك، يعرف هذا المكان جيدا .

مسألة غريبة حقا، لماذا يصر الجميع على السفر؟ كان يستطيع أن يواصل عمله، وأن يحقق ما يرغب فيه، حتى لو تأخر تحقيقه قليلا .

هل أصبح السفر موضة، وأصبح الهوية الجديدة للوطن، وكانت هذه الأسئلة قد طرحها على نفسه فيما سبق، وعرف أنه لن يستطيع أن يمنع نفسه من طرحها مرات أخرى .

هذه هى سناء على عبد العزيز الذى تذكّر أنه رأى لها معرضا فى الآتيليه منذ مدة، ثم سأل الرجل عن ذلك ليتأكد وينشط ذاكرته ويطمئن ، قال الرجل نعم إنها هى بالضبط، إنها تقوم بعمل معرض سنوى بالقاهرة ، واصل : إنك الأقدر على معرفة جنون الفراغ، إذا أردت أن ترفه عن نفسك لن تجد إلا هذه الحدائق، لن تجد سينما أو مسرحا أو مكتبة أو متحفا، أين تذهب إذن بعد انتهاء دوامك ؟ إننى أكاد أصاب بالخبل أمام هذه البرامج التليفزيونية، سناء طاقة جبارة، لو لم ترسم لجُنت .

تهرب لوحاتها بطريقة مبتكرة من الذى سمعته، يظنون أنها أخشاب تذهب بها ضمن آلاف الأشياء التى بلا معنى والتى يأخذها المصريون معهم، تضع اللوحة بين قطعتين من الخشب بنفس السمك ونفس المساحة .

صمت الرجل برهة ثم قال : ما رأيك لو دعوتك إلى العشاء معنا الليلة، تأكل أكلة مصرية، وتشاهد الرسوم التى تعدها سناء لمعرضها القادم، وكان مهيأ تماما لذلك، فىحاجة ماسة إلى ناس يتحدث إليهم، أما الأكلات المصرية فلم يتوقع يوما أن يغريه أحد بها فى هذه المدينة، ولن يتطرق إلى همومه الشخصية وهوايته الرئيسية " الفنون التشكيلية " ، لم يتردد لحظة واحدة، فرغبته فى مشاهدة سناء كافية، ود حقا أن يراها وأن يضع يده فى يدها، بدا أنه يعرفها منذ أزمنة طويلة، ثمة راحة واطمئنان وصفاء يغسل قلبه، ثمة هدنة مع النفس تبدو آتية، ثمة أمل فى الوصول إلى شطآن آمنة .

بدت دعوة الرجل كريمة، بلسما ومراهم، واحة خضراء واطمئنانا وراحة ، بدا منساقا ومستسلما إلى كل ماتقوله سناء، إلى كل ما ترغبه . لقد تعب ، آن أن يهدأ ، أن

يفضفض، أن يتحدث ، أن تكون له عائلة. جلس هادئا، ما الذى جعله هكذا منهارا ومستسلما ومنقادا بلا أى تفكير .

لم يستطع أن يكبح جماح اندفاعه إلا بعد مدة، حين عمل العقل بلا إرادة، وجاء ببدائله وحساباته، وتوازناته، طرحت أسئلة كثيرة عن احتمال توهماته الأكيدة، هذه ليست ابنة اليوم، تقربه فى السن لها أيضا أحلامها وتطلعاتها، وماضيها، وعمرها السابق، من يدرى لعل فى حياتها ما هو أهم من كل شىء .

لماذا افترض كل هذه الافتراضات، وعلى أى أساس شطح خياله ؟ إنها مجرد دعوة قد يرجع الرجل فيها، وقد لا تستقبله ، أو تعامله كما تعامل الضيوف والغرباء، قد يقررعدم الذهاب، لماذا هذا الوجد وهذا الحنين ؟ يا الله هل لهذه الدرجة يضعف الرجل ؟ شىء غامض يقول إنه يعرفها منذ سنين طويلة ، هل هو مصريتها؟ هل هو الرجل الذى أعطاه الضوء الأخضر بعفويته وتلقائيته وعزومته ؟ هل هو الفراغ والوحدة والشك الذى يعشش فى عقله، محاطا به ومتربصا ؟ عدم الثقة، العيون الراصدة، الأجهزة المتلاحقة والمتجددة، الجو الكابوسى والعبثى، جمود العواطف، وتصلد الأحاسيس والقطيعة الإنسانية .. أم كل هذا ؟

كان العنوان محيراً، لم يستطع الوصول إلا بعد ميعاده بمدة زمنية طويلة، حسبا أنه لن يأتى، استأجرا دورا أرضيا يفتح بابه على الشارع مباشرة لسابق خبرتهم، حتى لايشترك أحد معهما فى السلم، وحتى لا تفتح أبواب الشقق فى وقت واحد كعادة هذه البلاد، حيث يقبعون خلف أبوابهم، يترصدون أوجه جيرانهم .

دفعت فى هذا السكن إيجارا كبيرا، أعطاهما حرية استقبال الضيوف وراحة البال، كما توقع فى مخيلته، دافئة وحنونة، هادئة ومبتسمة، وواثقة بنفسها إلى درجة أنها أخذت بيده مسافة طويلة إلى أن جلس فى الصالون، بدت مضيافة وصاحبة البيت ، تأكد من أحاسيسه، أنه يعرفها منذ أزمنة طويلة، جاءته بليمون وعنب، قال عم على : العنب

جلوكوز يا سناء، ضحكت، سرهما الخاص والمتفق عليه، موجات من الشعور الـودود والألفة، جو عائلى مصرى بلا تعقيد أو تكلف، بسيط وهادئ .

كانت فنانة حقا، نوعية أخرى، عالم آخر، هدوء وأناقة، إضاءة خافتة، موسـيقى ناعمة وثقافة، ألوان هادئة تتناسب مع دهانات غرف شقتها، لمسات إبداعها واضحـة فى كل ركن، وجد مكتبة يستطيع أن يقرأ منها كتبا يحبها، وجد اسـطوانات موسـيقى، لأول مرة يرى فى هذه المدينة امرأة واضحة المعالم، حرة الحركة، تعمل وتبدع، ليست جسدا ملفوفا فى ملاءة تباع للأغنى إلى أن ينتهى عمرها الافتراضى، إنما سناء ابنـة بلده التى نقلت معها حضارتها وثقافتها واهتمامها، وكان قد خطر له خاطر فور أن رأى غرفة معرضها، صورا لرجال ونساء عرايا، وضعتها فى مقابل مرسمها متحررة من كل القيود، بدت الصور كالموديلات المجسمة التى يسـتعان بـها فـى مراسـم الفنـانين، والأتيليهات، وصالات الرسم، هذا الخاطر عن الأحقية الشرعية لهيئة المعروف والمنكر فى الدخول إلى بيوت الناس وإلى عقولهم وتفتيشها حتى يعرفوا ماذا يفعلون، وفـى أى شيء يفكرون .

بدت قارئة نهمة، مهمومة بمشاكل الوطن، تحدثت كثيرا عن مبادرة السادات وعن كامب دافيد، انحازت بلا تردد إلى ما قام به، عمرو لايستوعب ذلك، غير مصـدق لمـا حدث ويحدث، فتبعات زلزال مبادرته لا يتوقف، غير مصدق أنه فى لحظة انتشاء رئاسى تتحول الدماء إلى مياه، إصرارها على تأييد المبادرة نابع من الأوهام والأحلام والوعود التى ساقها ليبرر مبادرته، وهى صادقة فى سرد قناعاتها، لديها من الأسباب والحيثيات ما يجعلها موقنة من صحة مبادرته وضمان نتائجها، قالت بود شديد : ألم تسأل نفسـك لماذا تركت بلادك وجئت إلى هنا .

يعلم يقينا أن العفن ليس فى جذور الوطن، لكنه فى عدة أنواع منها إثـر تقلبـات عوامل التعرية المتعددة التى توالت عليه، والتى حاقت به، تساءل كيف يكون هناك وطن حر بلا حروب، بلا رجال تؤمن بأهمية الدفاع عنه، لم يكن ضد السلام ، لكنه ضد قـرار

إلقاء السلاح وتسليمه، ضد خداع النفس ورضائها، ضــد كـل الإهانــات، التنــازل والتخاذل مهما كانت نتيجته، يرى الجولات القادمة كثيرة جدا، والتاريخ والجغرافيا إلــى جواره، وإلى جواره أيضا الجلد والتحمل والصبر، أصواتهما تعلو، هى منشغلة ، تتكلــم بألم بالغ، وهو يستمع وينظر ويتأمل هذا الوجه الهادئ الودود، هذه التى قــررت مــن اختيار أثاث منزلها تثبيت دعائم إقامتها فى هذا البلد، حين قرر هــو أن هــذه مرحلــة انتقالية، تنتهى حتما وقت أن يقدر على الاعتماد على نفسه .

وبدا من هدوئها أن لا شيء يؤرقها، تعمل باطمئنان بــالغ، الأب راض بســعادة ابنته، عرف من الأحاديث الكثيرة المتداخلة التى فضفضت بها أنها تتذوق أنواع الأطعمة المصرية وتجيد طهوها، وعرف من الكتب التى تقتنيها إلى أى فكر تنتمى ؟

كيف أدخلت هذه الفنانة الرومانسية كل هذه الكتب غير المسموح ببعضــها فــى مصر إلى هذا البلد ؟ عندما تساءل قالت هذه حكاية تطول، اختصارها أن صديقــة لــها وطنية، تحمل لها كل الكتب التى تطلبها من القاهرة، كانت زميلتها فــى كليــة الفنــون الجميلة، لم تذكر اسمها .

* * * * *

تكررت الزيارات كثيرا، تفاوتت أوقاتها، تعددت المناقشات وتنوعت، تفرعت إلى أن خطر لعمرو سؤال ألح عليه، عرف أن هذا هو الوقت المناسب بــالضبط لطرحــه، لأن درجة مقاومتها وعناد شخصيتها قد ضعفت، أو أن الأنثى فيها قد طغت فتصرفت برقــة، بلمسة أحيانا، وببسمة خجولة وحيية أحيانا، إثر ذلك عرف أن لها أصدقاء فى القاهرة، زملاء وزميلات، معارف وأقارب، قالت وهى تنظر فى عينيه، عارفة بمــا يجــول فــى خاطره : إننا فى هذه السن لابد أن نكون قد تعرضنا للتجارب والمشاكل، ثم واصلــت : المشاكل تدق باب منزلك حتى إذا أغلقته عليك، تقدم إليها الكثير قبل السفر وبعده، ترى الجميع فى المستوى العادى، لا تحب الزواج بهذه الطــرق، لــم تشــجعهم، أحلامــهم متواضعة وضعيفة، لم يناقشها أحد فى لوحة " كما فعلت أنت " وهى تشير إلى الكتــب

قالت : ولم يتكلم أحد منهم مطلقا عن يحيى حقى أو يوسف ادريس، أو قصيدة زرقاء اليمامة لأمل دنقل. قال لها إن أمل كتب " لا تصالح " أيضا، فقالت إن هذه القصيدة قد أثارت الكثير من المشاكل .

ألسنة الناس وصديقاتها خاصة تتناول ما لايعرفه أحد، غير الموجود أصلا، ينسجون الحكايا حولها، هى لاترغب بعد كل هذا الصبر، وهذا الصمت أن تنقاد لردود أفعال " لن تضر أحدا أبدا غيرى " كما قالت، إننى لن أوافق إلا إذا اقتنعت، أحبت الاستماع إليه من أحاديثه الجادة، وهمومه الوطنية، وثقافته واتزانه، وكان الأب يترك المكان، يذهب ليشاهد التليفزيون، أو يقضى بعض الحاجات من الخارج .

حقا كانت تصرفاتها راقية ومتحضرة، لم يجرؤ وهى لم تسمح بتصرفاتها أن يكسرا معا هذا الحاجز الذى لايعرف اسمه، ولا يعرف له مبررا، تعوز كليهما الجرأة لاتخاذ المبادأة بخطوة حيال الآخر، تذكر آمال وجرأتها التلقائية المحببة .

رفضت أكثر من مرة عزومته، رفضت الخروج معه، رفضت أيضا أن يذهبا إلى أداء الشعائر، انشغل بها ، تقاربت زياراته حتى كادت تكون يومية، تزداد رغبته فى الجلوس معها والتحدث إليها، يشتاق فعلا لرؤيتها الليلة تحديدا، خاصة عندما قرأ عن مؤتمر مقاطعة مصر المنعقد فى بغداد بسبب كامب دافيد، يجتمعون منذ عدة أيام، جاءت الأخبار من الإذاعات الأجنبية، انتبهوا جميعا إلى أن ثمة مسدسات تخرج من جرابها المعلق فى الأكتاف، قال : إن رئيس أى وفد يتقاعس عن التوقيع على المقاطعة سيضرب بهذا المسدس .

كانوا كبار العالم العربى، بما فيه موريتانيا والصومال، أقر الجميع هذه المقاطعة، يبطنونها ويريدونها، إلا أن الطريقة ضايقتهم، فلم يستطيعوا التعبير عن ذلك إلا بمصمصة الشفاه، والعض على السواك .

* * * * *

فتحت له ، أهل عليها، فرحان بها فرحا حقيقيا، اخذ راحتها بين كفيــه، أخذتــه مسرعة إلى الصالون قائلة إن هناك بيانا مهما سيصدر الآن، جلسا أما التليفزيون، بعد أن انتهى المارش العسكرى أطل المذيع " همام الشبر " بغضب شديد، وبقوة وعنف قائلا : بعد قليل نذيع عليكم أيها السادة بيانا مهما، ثم مارشات عسكرية، موسيقى صاخبــة، كرر نفس التنبيه عدة مرا ت، يخرج كل مرة بوجه آخر، تعبيرا عــن غضبــة عربيــة جماعية، لم يستطع أن يقول غير هذا ، لأن البيان الختامى للاجتماع تأخر عما رتبوا له، بدأوه فى نفس الوقت الذى كانوا قد قرروا فيه إلقاء البيان، لكنه تأخر، أذاعوا مارشات عسكرية ، بان الغضب ، لأن الرجل لم يخرج مسدسه إلا بعد أن وجد البعض مــترددا ، ولا يوجد اجماع على المقاطعة ، كما أنه وجد معارضة قوية تســتطيع أن تــأخذ إلــى جانبها بعض المترددين ، حسم الأمر بطريقته .

كان صمت الانتظار ثقيلا وطويلا، أذاعوا خلاله نشرة الأحوال الجوية، غيروها أكثر من مرة خوفا من فهم اسقاطات سياسية، ينظر إليها يجدها متوترة ومتحفــزة، ظــهر المذيع قائلا : إن المسئولين أعزهم الله قرروا مقاطعة مصر لخروجها على الاجمــاع ، وتوقيع معاهدة الاعتراف المتبادل مع العدو، والله من وراء القصد، ثم صمت، مارشـات عسكرية، موسيقى ثم إعادة إذاعة البيان فى الاذاعة والتليفزيون لعدة أيــام متواليــة، كأنها مارشات النصر وبيانات التتويج .

اختارت سناء حذاء قديما، ضربت المذيع الذى يظهر بين مارش وآخر ، فيما كان عمرو مبهوتا ومصدوما من هذه المقاطعة، تساءل هل هذا هو الحل المناســب ؟ ومــا الذى يستفيدونه من مقاطعة مصر ؟ هل ستركع مصر تحت هذا التهديد وهذا الحصــار ؟ إنهم بهذه القرارات يفقدون عطف الشعب المصرى الذى يقف بكامله ضد المبادرة، لديه ثأر مع العدو .

أدهشها أن لديه قدرة على الضحك بسخرية فى هذا الوقت، لكنها ما أن رأت حزنه العميق حتى أدركت أن ما كانت تسمعه لم يكن ضحكا، وإنما ضرب من صوت حشــرجة

غريبة، يصدر من المخلوقات البشرية فى مناسبات نادرة جدا، يحار المرء فى إدراك كنهها، أهو ضحك أم بكاء، لأنه حصيلة خليط هائل من وقائع مؤلمة تثير بكاء الحزن والأسى، ومن أحداث ساخرة تبعث الرغبة فى تحويل البكاء إلى ضحك، فينجم ذلك التعبير المريع، الذى قد يكون أفظع ما يصدر عن مخلوق بشرى .

تساءل الاثنان فى نفس الوقت : هل تؤثر المقاطعة على العلاقات الأخرى ؟ لم يكن عمرو يعطى أهمية لذلك، لكنه لاحظ أنها تحت تأثير هذا السؤال انخطف قلبها ، غاضت الدماء في وجهها عندما تطرق الأمر إلى احتمال قطع كامل العلاقات .

استبعد عمرو ذلك، لأنهم فى البيان أضافوا أن سفارة باكستان ستقوم برعاية المصالح الوطنية للبلاد فى القاهرة، طمأنها، سألها عما إذا كانت تعطى بقاءها هنا كل هذه الأهمية، قالت دون تردد : إن مسألة الإعارات بالنسبة لتخصصى مسألة حساسة وحرجة، هذا التخصص يحارب يوما بعد يوم، وتزداد شراسة حربه فى الآونة الأخيرة، إلى درجة أنهم يفكرون فى إلغائه من المدارس، لكن مازال هناك اتجاه واهن يعارض ويقاوم، أما إذا أفتى رجال الدين فإن الأمر محسوم، والسفر لابد منه ، واصلت : أصدروا نشرة وزعوها على جميع المدارس تفيد بأن الرسم يقتصر على المناظر الطبيعية، أعنى أن المسألة تنحسر وتضيق، وأنت تعلم لماذا خرجنا ، ولقد تحدثنا فى ذلك .

ثمة انقباضة قلب، أسى وحزن وشجن، قلق يجتاح هذه الإنسانة البالغة الرقة، بدا أنها ترتعش، أمسك يدها بقوة، لم تمانع بل انزلقت إلى حضنه متشبثة به، ولما أحست أن هناك حضنا دافئا لرجل أرادته اطمأنت واقفة، أخذته إلى مرسمها، ثم نظرت إليه، وجدته مبهورا بها، أنفاسه متقطعة ومضطربة، بابتسامة رقيقة بعد أن نظرت فى عينيه اللتين تشعان رغبة، محاولة ألا تندفع فى حضنه، مانعة أن يفعل ذلك ، قالت : تريد أن تقول شيئا بالتأكيد ياعمرو، أنا سمعاك، بلا تردد قال : تتزوجينى ؟ قالت : إنى أنتظر هذا السؤال منذ جئت إلى هنا .

فى تلك الليلة قررا أن ينهيا كل شىء فى أسرع وقت، لا داعى لانتظـــار إجــازة الصيف، وإقامة هذا الفرح وهذه الشكليات فى القاهرة، ستتم كل الإجراءات هنا، هكــذا اتفقا ، خاصة أنها تعرف أن ثمة أعمالا تعوقه عن السفر .

جاوزت الساعة العاشرة مساء، توقع ازدياد الدوريات تحسبا لاضطرابات يثيرهـــا المصريون، لمعرفته بكيفية تفكيرهم، شجعته على الانصراف، اتفقا على أن يأتى إليـــها غدا مساء لشراء الشبكة .

* * * * *

أثارت سناء بفرحتها العديد من المشاكل فى المدرسة، فقد فهمت زميلاتـــها مـــن التخصصات الأخرى والجنسيات العربية أن فرحتها نابعة من هيبة مصر وقدرتها علـــى تخطى أية مقاطعات، وبدت فخورة بمصريتها التى لا يهزها شـــىء، حتـــى مثـــل هـــذه المعاهدة، أو قرارات المقاطعة العابرة، ستنفض البلاد آجلا أو عاجلا كل ما يكبل خطاها، كتبن شكاوى وبرقيات كيدية . أثبتن أنها لا تدين بالولاء لهذا البلد الـــذى لـــه الفضـــل عليها، لأنها تقلل من شأن قرارات أولى الأمر، والتعبير عن فرحتها هو دليل إدانتها .

استدعتها وكيلة المدرسة للتحقيق، ثم ناظرة المدرسة التى سألتها : كيف تبديـــن الفرح وتظهرينه رغم المقاطعة، واصلت : يعنى لايهمك أحد، كانوا يعاملون مصر فيها، وكانت أسئلة غاضبة ، تسبب الضيق، وبطرق استفزاز متعددة .

ترى سناء أن تقدم عمرو لخطبتها قد أحدث موازنة فى التفكير، فمنع الخلل الناجم عن القلق، أحجمت عن التعليق على هذه الأسئلة، ولم تتكلم سوى أن فرحتـــها كـــانت بادية وطاغية ، وأنها غير قلقة .

جاءته فى الحلم صامتة وحزينة، استيقظ ملفوفا بطبقة رملية كثيفة وناعمة، لـــها سمك وحجم، ترتفع فى أماكن عن أخرى، تنز الرياح فى الخارج، ألواح الزجاج تصطـك مع حلوق الشـــبابيك، تسرى القشعريرة فى جسده، سحابات الجير المترب تحجب أشعة

الشمس، تجعل السماء قريبة ، تتساقط أمطار جيرية ناعمة، حاول أن ينأى عن غائلة الريح والمد .

كما اتفقا ذهب فى ميعاده مرتديا بذلة جديدة أحضرها معه من القاهرة، لم يرتدها من قبل، صوف كحلى مخططة رأسيا، رباط عنق أنيق، ركن سيارته ، دق الجرس فرحا، انتظر مدة طالت، دق الجرس ثانية بقوة متواصلة، نابعة من ثقته بها ، لم يرد أحد، حاول كثيرا، دق الباب، سمع صوتا من البلكونة العليا يخبره هامسا : لقد رحّلوها اليوم إلى " جارثيا " بهت عمرو، وتخلخل تفكيره منقبضا، بعد فترة سأل الرجل : لم ؟ قال : لا أعرف شيئا ثم دخل .

(٦)

كانت الشئون الصحية قد عينت عبد الحميد راجح مهندسا مقيما بناء علـــى اقتـراح عمرو الذى تعرف عليه فى الفندق ، كان الصديق الحميم للدكتور رشدى، فـــى نفـس عمره تقريبا، لم يكن يعرف أن " أبا الخير " قد ساعده على شغل هذه الوظيفة، تتطلـب الأعمال وجوده الدائم، وكتابة التقارير والبرقيات التى أضحت دورية بفضل شركة " ظل " حيث أضحت نسبة عملها إلى انقضاء المدة الزمنية ضئيلة، كانت الشركة قادمة علـى كارثة لا محالة، كل جهة تريد أن تبعد المسئولية عنها، بمن فيهم الباكستانيون أنفسهم، اذ اضطر مهندسهم إلى معاودة الكذب مرة ثانية .

عندما ذهب حسين ظل إلى باكستان استقبلوه فى كراتشى استقبال الأنبياء، وسعوا له الطريق حتى لا يحتك جلبابه الأبيض، حريصين على عدم اتساخه، تمسحوا به طالبين العفو والمغفرة والدعاء، يهزون رووسهم ، يسجدون طالبين بركته، واسطتهم إلى الخير والمستقبل والجنة، قدسوه كما يقدس الهندوس بقرتهم ، لم ينخدع بالتوصيات الكثـيرة التى يحملها معه، رأى أن مشاهدة العمل على الطبيعة هى الفيصل فى اختيار عمالتـه، عندما وجد إحدى الشركات تقوم بتنفيذ أحد فنادق شركة عالميـة مشـهورة، قـرر أن يتعاقد على نقل هذه الشركة بكامل عمالتها إلى بلاده .

لم يتردد مدير الشركة فى التعاقد معه، جاء فى الوقت المناسب كطوق نجاة لـه ولشركته، سيحقق عدة نجاحات وانتصارات بضربة واحدة ، أجور العمالة التى نصـت

عليها العقود بدت ضعيفة بالنسبة للأجور الأخرى فى هذا البلد، سأل وعرف، وجدهـا تعادل أجور العمالة فى كراتشى عشر مرات على الأقل .

وجد فى أحد بنود العقد بندا يتيح له أن يتفاوض مع كل عامل على حدة فى شأن مرتبه لدى شركة ظل، فهم منه أنه يستطيع أن يشارك العامل بقدر ما ، لم يمنعهم من التوقيع عليه، رغبتهم فى الخروج تفوق أى عقد أوأى إجحاف، عـارفين أن هنـاك مكاسـب أخرى، فلن يكلفهم أداء الشعائر شيئا .

فى صمت باكستانى تام أعدوا أوراقهم ورحلوا، أكدوا على ذويهم الذيـن يعرفـون أهمية الحفاظ على الأسرار، لم تجد شركة الفنادق أحدا يوضح لها سبب الانقطاع الكامل والمفاجئ لكل العمالة، بمن فيهم الحرس وأمناء التشوينات والمخازن وغيرهم.

بدا عمرو أمام هؤلاء الباكستانيين فى حيرة من أمره، فمهندسهم طاهر سليم يتمتـع بأدب جم وذوق رفيع وهدوء، لا يسمع أحد صوتـه عاليـا فـى أى مناسـبة كـانت، ومساعدوه من المهندسين والمساعدين والاداريين والعمال على نفس شاكلته، ينـادون عمرو " مهندس أكبر " وفى إحدى جولاته فى موقع امتداد العيادات الخارجية للمستشفى الرئيسى، وقفوا له صفين، غنوا له أغنية بالأوردو " سلام كبير على جناب هيـهات " ، يتحنون ويقدمون فروض الطاعة، يعملون كأنهم ينسجون سـجادا يدويـا، أو كأنـهم يقيمون بناء من الشيكولاته، كأن بناءهم منمنمات أرابيسكية، ضاربين عرض الحـائط بالانتاج والبرنامج الزمنى وبكل العقود .

كلما تأخروا فى معدل الإنتاج، ازدادت مدة إقامتهم، معتمدين علـى الكـذب،وإلقـاء مسئولية التعطيل على الجهات المشرفة، بات المقاول فى ورطة حقيقية، جعلتـه أمـام خيارين كل منهما صعب، فإما أن مهندسه كاذب، وإما إلقاء المسئولية علـى الجـهات المسئولة دون دليل يذكر، سمحوا له بأوقات إضافية وعندما تكررت طلباته تم رفضها .

اهتدى أثناء المناقشة مع عمرو إلى إسناد المهمة بكاملها إلى الشركة الباكسـتانية عينها من الباطن، وافقت وزارة الصحة رغبة منها فى تسهيل كل الأمـور، كـان أقـل

اجحافا من عقد عمرو حيث حصل المقاول على ثلاثة وثلاثين فى المائة من صـــافى قيمة العقد، على أن يتحمل الباكستانيون كامل التكلفة .

فى أول اجتماع دعوا إليه كل المسئولين رغبة منهم فى فتح صفحة جديدة، اتضحت الإدارة الباكستانية الحقيقية، عرف عمرو لماذا كانوا حريصين على رفــع يــد كفيلــهم عنهم، لقد أوضحت دراسة الجدوى التى أعدوها قبل مجيئهم أن هناك مكاسب سيحققها هذا المقاول بنسبة مائة فى المائة على الأقل، وأنهم لو أطالوا مدة تنفيذ العقد من ثمانية عشر شهرا إلى ستة وثلاثين فلن يخسر المقاول شيئا. بــل سيدفع غرامــة تــأخير وأجورهم لهذه المدة وينال ربحا أيضا .

كانت الحرية الشخصية هى الهدف ، سيتحركون دون كفيل ، سيمارس مدير الشركة دوره فى تسلسل وظيفى يفرق بين عامل ومساعد ومشرف، ومهندس ومدير، يحفظ لكل واحد مكانته، سيمارس المهندسون دورهم، حرية اتخــاذ القــرارات والإدارة، شــراء السيارات، تعيين السائقين والخدم، تأجير السكن اللائق لكل فئة على حدة .

اجتمعوا فى أحد الأبهاء الضخمة للفيلا التى اســتأجروها للمديــر والمهندســين، وكانوا قد استأجروا حوشا مجاورا لسكن باقى العمالة، فيما كانوا فى السابق يتكدســون فى مكان واحد كرغبة كفيلهم .

استعان طاهر سليم بمهندسين يقفان بجواره، بدت مــائدة الاجتماعــات لامعــة وجديدة ونظيفة ، الكراسى من الشمواه، وضعوا أمام كل عضــو ميكروفونــا صغــيرا، وورقا لامعا وقلما، ومياهاً غازية ومعدنية، وصندوقا صغيرا من البسكويت والشيكولاته، ترامس الشاى والقهوة ، افتتح الاجتماع ، قائلا بعربية سليمة " أهلا وسهلا " .

عرض برنامج التنفيذ بإحكام شديد، ودقة متناهية، وبدراسة بدت متأنيــة جــدا ومقنعة، وهو لا يطلب شيئا سوى إلغاء المدة الزمنية من العقد السابق، موضحــا أنــه وضع برنامجا زمنيا ببدء العقد الجديد، جاءوه بالبرنامج، عرضه عليهم، وكــان مديــر الشئون والاستشارى عمرو الشرنوبى يعرفان أن لديه موافقة مسبقة من الوزارة .

ظهر فى الأيام التالية الانتظام الدقيق فى مواعيد العمل ومواعيد التنفيذ، حيث وجد عمرو صورة من البرنامج معلقة فى غرفة المدير، وصورة أخرى فى أرجاء المستشفى حتى يتذكره العاملون، وضح الإنهاك والتعب والإعياء على العاملين، رغبوا فى العمل دوامين فى اليوم بأجر يوم وربع ، كما قال أحد المهندسين راجيا ألا يقول لمدير كبير طاهر سليم .

تمتعوا بتسهيلات غير مسبوقة من جميع أقسام المستشفى، وافقوا لهم على العمل ليل نهار، انعدم ظهور طاهر سليم فى أرجاء المستشفى، يجلس فى مكتبه واضعا ساقا على الأخرى، يمددها على الكرسى الذى أمامه، يقف أحد العمال بجواره فى حالة تنبه كامل لكل ما يطلب، يقرأ الجرائد ويشاهد التليفزيون، يطلب الشاى باللبن والبسكويت، تأتيه تقارير العمل، يضعها تراقب بعضها ، يحاسبهم بدقة على الإنتاج، يرغب فى طاعة عمياء، باتت العمالة محاصرة داخل حصارها ،كما أن أحلامهم فى الحركة وزيادة دخلهم كما وعدوهم أصبحت ضربا من المستحيل .

ولم يبق إلا الأفكار التقليدية التى تتيح دخلا بسيطا ، وجهدا كبيرا، وتذكر أحدهم نظام الغسيل الباكستانى، اتفق مع بعض زملائه على الاتصال بأى باكستانى، سواء فى محلات التجارة أو السوق أو بالطريق، أو عمال النظافة أو غيره، استعدوا لغسيل ملابس الآخرين بدون تكاليف تذكر، وتنظيفها وكيها بالنظام اليدوى لكل قطعة على حدة، أقنعوهم بمضار الغسيل الآلى .

ذاع فى أرجاء المدينة ولأول مرة مغسلة الباكستانيين اليدوية، لم يعترض عليها طاهر سليم ، وجدها نقطة ضعف فى صفوف عماله، يستطيع من خلالها أن يهددهم، وأن يبتزهم بساعات عمل إضافية، ويجبرهم أن ينفذوا ما يأمرهم به ، وضع فى حسابه أن سلوك أهل وطنه يتحكم فيه الفقر الذى يتضح فى تصرفاتهم وسلوكهم اليومى، وما يحملون من ضغائن وأحقاد لا يبينون عنها، إنه واحد منهم ، خير من يعرفهم، فقد نشأ فى منازل بالغة الفقر مثلما كان يرى فى الأفلام المصرية، ومشى فى طرقات مزدحمة

مليئة بالإهمال والقذارة، الذباب يحوم ويزن حوله فى كل مكان، يرسل الطنين الذى لا يفتر ولا يهدأ ، صور ذو الفقار على بوتو مازالت علـــى أتوبيســات الســردين، وفــى واجهات المقاهى، وعلى ضفاف النهر ، لا تبرح مخيلته المساحة الكبيرة التى تتوســط عددا من الشوارع، والتى تستخدم كمكان جماعى لنشر الغسيل .

ها هو ذا يرى عماله ينقلون صورة مصغرة من مجتمعه، وهو تصرف غير لائـــق، لكنه لا يخص إلا الباكستانيين، أحضروا طوبا وبنوا عدة أحواض بجوار بعضها، ليسوها بالمحارة، ونعموها بمونة أسمنتية، وكانوا يتناولون طعامهم فـــى أحدهـــا، خصصـــوا عاملين لإحضار الغسيل، وبدوا أنهم فى مهمة وطنية ، تم توزيعه بعد غسله وتجفيفـــه، كانوا راغبين فى تسلم الغسيل جاهزا للبس، يسألون عما إذا كان عميلهم يرغب فىتسلم غسيله غير مجفف كجزء من تقليد الغسيل فى بلادهم .

يبدون فور انتهاء فترة الدوام الإضافى، قادمين متعبين، أجبر البعض منهم علـــى التردد على العيادات الخارجية، للحصول على راحة، لاحظوا تمارضهم، قلصوا إجازاتهم المرضية إلى أدنى مدة، وكان هذا يناسب طاهر سليم تماما، حيث قد لاحظ انقطاع العمال التمارضى بالتناوب، يستغلون هذا الوقت فى إنجاز غسيل الملابس المتأخرة، قرر ترحيل من يتمارض، لكن الإجازات المرضية الرسمية المختومة لن تجعله قادرا علـــى تنفيـذ تهديده، لم يهدأ ، حاول أن يجد حلا مناسبا وقانونيا، فيما هم مشغولون بنظافة الغسـيل المتأخر .

الوحدة الأولى من غسيل الملابس تستقبل الملابس وتغمرها، بعد مدة زمنية يكون الغسيل قد تشرب المياه، ينقل إلى الوحدة الثانية التى تليها، يتم دعكها بالصابون جيـدا، يذهب الغسيل بعد ذلك إلى مرحلة ضربه بالأرض ألاسمنتية مرات عديدة، ثم ينقل إلـــى الوحدة الرابعة، يغمر فيها بالمياه النظيفة، بعد ذلك يفصل الغسيل ويصنف حسب رغبات أصحابه، فيما إذا كان يرغب فى تزهيره أم لا، ثم يذهب إلى آخر وحدة، فتقوم بـالعصر ثم التجفيف .

الأحواض بارتفاع خمسين سنتيمترا تقريبا، يسهل نقل الغسيل من وحدة إلى أخرى، وبدت مناشر وحبال الغسيل مشغولة ليل نهار، وأن هذه الشركة ما جاءت إلا لتقوم بنظافة ملابس أولاد بلدها، بدت كمهمة قومية، ثم تذهب إلى المكوى اليدوية، ومكوى القدم للبنطلونات والملابس الثقيلة .

قرر أن يعين طبيبا مقيما فى الشركة، مهمته فحص المريض الذى يأخذ اجازة مرضية، تودد عبد المنعم بركات كثيرا إلى طاهر سليم ، قدم له خدمات بصفته المسئول الأول، حتى يفوز بالأجر الإضافى ، علم فيما بعد أن الشركة تبحث عن طبيب مقيم، سأله عما إذا كان يعرف طبيبا فنفى، عندما علم عمرو ذهب إلى الفندق، بحث عن الدكتور رشدى، عرفه على طاهر سليم .

* * * * *

لم يكن عمرو يعرف أن الدكتور رشدى من طنطا، وأنه من جماعة الإخوان المسلمين الذين هربوا إلى هذه البلاد فى فترة الستينات، والذين كونوا فيما بعد النواة الأولى لموجات الإرهاب المتتالية، والتى قلبت استقرار الوطن ، حيث اجتاحت البلاد أنواع جديدة من القتل والنسف والتدمير، إثر هبوطه على هذه الارض أعطوه كفالة حرة، لا يتمتع بها إلا اليمنيون، له حرية الحركة إلى أى مكان داخل البلاد، ينتقل من عمل إلى آخر دون اللجوء إلى أحد، ودون أن يطلب أو يبلغ عنه أحد .

كان مثل عبد الحميد راجح المهندس المدنى الذى غادر مصر فى نفس الوقت، على نفس الطائرة، معه مجموعة أخرى، تم توزيعهم وتفريقهم على كل المدن .

بدا شكلهما متقاربا ، ومن مدينتين متقاربتين، طنطا وكفر الزيات، معسكرات التعذيب المشتركة، سنة التخرج، نوع التعذيب، المراقبة الكابوسية التى لاتنقطع ليل نهار، والتى تسلمه من رقيب إلى آخر، بدا شاربه الكث الأبيض ملوثا بلون أصفر رمادى من آثار التدخين، شعره الأبيض غزير، مفروق من الوسط، لا يترك فرصة إلا

ويتحدث مع عمرو، يأتى له بأخبار المدينة عبر التليفون، ينقلها مضيفا إليـــها آخـــر تصرفات عبد المنعم بركات الصغيرة .

لا يتحرك دائما إلا حاملا معه كيسا صغيرا مليئا بالشيكولاته واللبـــــان والنظــارة المكبرة، يوزع اللبان على كل أصدقائه ومعارفه، يغضب إذا رفض أحد ذلـــك، وعندمـــا يأخذها ويلوكها تجده ينظر مستمتعا من خلال النظارة إلى تفاصيل وجه الذى يمضغها.

قام الدكتور رشدى بمبادرة لا تتكرر كثيراً، عزم تلك الليلة أصدقاء الفندق علـــى شرف عمرو الشرنوبى وطاهر سليم فــى شقته المطلة علـــى المستشفى الرئيســى من ناحية، والتى تطل من الناحية الأخـــرى علـــى برحة كبيرة، حيث أعد عشاء مصريا بسيطا وكريما، قال إنه يسكن هذه العمارة منذ قدومه، لم يغير سكنه، الإعانة كافية لدفع الايجار واعاشته، تستمر معه حتى لو حصــــل علـــى عمل يليق به كطبيب، يعد مائدة الطعام الموجودة فى الصالة، تتوسط الغرف، لها بلكونة عريضة على البرحة، يراه عمرو رائحا قادما، حاملا أطباقا عديدة، يتسلل إلى البلكونـــة ناظرا ، لم يعط عمرو الأمر أهمية تذكر، أوضح عبد النعم بحذر أن الســـبب الرئيســـى بتمسك الدكتور رشـــدى بالشـــقة هو موقعها الذى يتيح له النظر والمشـــاهدة، لـــم يستطع التخلص من هذه العادة، حتى أصبح النظر إلى البرحة عادة تلازمــــه فـــى كـــل الأوقات التى يوجد فيها بالشقة .

حاول التفكير فى هذا ، فيما هو يدعوهم إلى العشاء، فـــاحت رائحتـــه المصريـــة الدافئة، لم يدرك عمرو أن تلك الليلة ستسبب له كثيرا من الألم والتعب، أثناء العشــــاء تذكروا مصر ، وتذكروا الأولاد والعائلة، هؤلاء الذين انقطعوا عنهم هذه المدة الطويلة، يقول عبد الحميد راجح " إن لكل زمن دولة ورجالا " ينظر إلى هذا الطعام الوفـــير ثـــم يتذكر السجن ، فيما ينبهه الدكتور رشدى إلى" أهمية عدم نسيان مــــا حـــدث ، حتـــى لايذهب عمرنا ورسالتنا هدرا "، كانت أيديهما وأصابعهما ترتعش اثناء تناول الطعام .

يتكلمون بصراحة مطلقة، وعرف عمرو أن هذا لايسبب لهما مشاكل هنا ، فالاتجاه واحد، سواء لهؤلاء أو لأمثالهم الآن فى مصر، كانت هناك دوافع كثيرة تجعلهم يصرون على استمرار ما بدأوه ، إنهما الآن صامتان واجمان ، تلك الحالة التى تنتابهما معا، انزلقت دموع عبد الحميد راجح هادئة، لم يقدر الدكتور رشدى على عدم المشاركة فبكى هو الآخر، بدت ليلة نكدة، أرجعها عمرو لوجود عبد المنعم بركات طورا، أو وجود طاهر سليم طورا آخر، اندفع عبد الحميد راجح خالعا قميصه، ثم فانلته، وجدوا ظهره مليئا بخطوط ندوبية متقاطعة، صانعة مربعات ومعينات سوداء وغائرة من أثر التعذيب بالسياط، تتجمع فى هضاب مندملة، تكشف عن مناطق غائرة فى قاعها ، تكاد تبدو عظام الضلوع، كأن ذئبا مجنونا أو غولا قد أعمل أنيابه وأظافره فى ظهره نهشا وتقطيعا وفتكا .

ولم يقدر الدكتور رشدى على الصمت، وجدوا تأثير التعذيب أقوى وأكثر ظلما على مساحة ظهره كلها، وعلى بطنه أيضا، انتابت الدكتور رشدى حالة بكاء وعاطفة وجدانية، انهار منهنها بصوت مسموع، فقابله عبد الحميد راجح بنفس الصوت، كانت هذه الحالة تنتابه، ولم يرها عمرو ، بدا الصمت فحيحا مع تساقط بعض الدموع، سيطر صوت التشنجات، ثم هدءا واستعادا توازنهما، ثم فجأة أطلق الدكتور رشدى نكتة بذيئة على عبد الناصر أضحكت الجميع رغم فحشها، لم يضحك عبد المنعم بما فيه الكفاية ، ولم يفهم طاهر سليم لماذا ضحكوا، ولما ترجمها له الدكتور رشدى إلى الانجليزية لم يضحك كثيرا أيضا .

كانت النكتة مقفاة، وقد أتاح له السجن قراءة الشعر العربى القديم الذى لايعترف بسواه، يحفظ ألفية ابن مالك، لا يكف عن ترديدها كلما سنحت له الفرصة، يحول المناقشات الجادة فى بعض الأحيان إلى أبيات شعر جنسية، حاول قدر إمكانه أن يضبط إيقاع قذفه الجنسى مستعينا بالوصفات البلدية حتى ينجب ولى العهد، والذى كلما حلول منضبطا جاءته بنت إلى أن أتم سبع بنات، يعش مع زوجته فى طنطا منذ غادر مصر،

أصغرهن بلغت المحيض الآن، والرغبة فى الاستقرار مع الزوج والبيت تجتاح عيونهن وعواطفهن، وعندما يتخيل الجلوس بينهن يهلكنه تقبيلا وتقريصا، وهو يحبهن، وهن فخورات ومتيمات به .

صمته جذب الانتباه إليه، استدعى ابنته الصغيرة عزة، لم ولن ينسى آثار الرعب فى عينيها كلما جاءت ذكرى هذا الحادث إلى عقلها، تقف بجواره على رصيف ميدان الساعة بمحطة طنطا، يحتضن يدها الصغيرة، ينتظران القطار الذاهب إلى الاسكندرية، يقضى أولاده فترة إجازتهم الصيفية فيها، لا ترغب الصغيرة أن تتركه وحده، يأخذها أينما ذهب، لايستطيعان مفارقة بعضهما، يداعبها ويغنى لها، وقف بجواره رجل، سأله عما إذا كان هو الدكتور رشدى، أومأ إليه بالإيجاب، أشار إليه بصمت أن يمشى بجواره، أفهمه أنه مطلوب فى مباحث أمن الدولة، رفض الذهاب معه بعد أن عرف بعدم وجود إذن بالقبض عليه، نصحه الضابط بالمثول إلى الأوامر، أشار إلى مجموعة من الرجال المتفرقين مؤكدا أنه سيؤخذ عنوة، ولما اقترب الضابط محتكا به قابضا على معصمه، أبعده الدكتور رشدى بقوة، لكمه الضابط، لم يقدر على الإهانة، ردها بيسراه قوية خطافية فى فكه، ماسكا ابنته بيده اليمنى، كانت لكمة قوية جدا، احتفظ الضابط بجزء من أسنانه داخل فمه، وهو مدرب تدريبا إخوانيا جيدا على كل فنون القتال، تلك الأيام كان شابا قويا، ومصارعا فحلا .

رفع الضابط يده، كانت إشارة البدء التى على أثرها بدء الهجوم، تجمع أكثر من عشرة أشخاص، تلقى الدكتور رشدى حفلة ضرب بالأكف والقبضات واللكمات، وعندما وقع على الأرض تسلموا رأسه الذى داسوه بالأحذية، ضاربين مقدمته ومؤخرته وصدره وقلبه وكليتيه ، فى الوجه والعنق، داسوا أنفه بالحذاء، وعندما بصق دما بصق كل أسنانه تقريبا.

لم ينتبه إلى نفسه ولم ينتبه إلى ابنته، فقد ذاكرته جزئيا، صحا على بكاء ونحيب صغيرته، توارت بعيدا بجوار أحد أعمدة المحطة، تنوح رعبا وصعقا وخوفا، غير

قادرة على فعل شيء، لم يتركوه، جرجروه غير آبهين بأحد، ترتطم جثته ورأسه بالبلاط والأرصفة ، وبدرجات السلم المتعددة ، أحس بعد فترة أنه تهرأ وتفكك .

وكلما تذكرت الصغيرة ما شاهدته تنكمش وتبكى، ما زالت تشاهد دماء أبيـــــها فـــى أحلامها، وتشاهد الناس فى المحطة يبتعدون مرعوبين نفس رعبها ، وربما أكثر.

قالت له : جبهتك انفتحت، ثم أشارت إلى مفرق الشعر وسط رأسه الذى ينحــدر مــن تحته شق عمودى حتى أعلى الجانبين، عندما وعى لم يجدها، مرمياً كالكلب فـــى أحـد أركان الزنازين المتشابهة، لم تعرف زوجـــته ما حدث، انصـــب تفكيره علـــى ابنـــته التى شاهدت إهانة أبيها، ورأت الناس يتفرجون عليه ممدا، منزويــــة بجــوار عمــود المحطة الدائرى مقرفصة، لا تعرف أحدا، ولا يستطـيع أحد الاقتراب منـــها، انتابتـــها حالة من التشنج المتكاثف وبكثرة، ثم الصــرع المتكرر الذى مازالت تعانى منه حتـــى الآن، وأضاف أنه بصـــفته طبيبا مطلعا على أحدث أنواع علاج المرض، لـــم يكتشـــفوا العلاج اللازم له بعد .

كان قد انتسب إلى جماعة الإخوان المسلمين منذ فترة، دربتــــه تدريبـــا جيـــدا، ازداد اقتناعه برسالتها فور أن تلقى حقل الضرب هذا، بحـــثت الجماعة بجدية عن ابنتــــه، احتـــــضنوها حتى جاءت زوجته وبناته قلقات عليه وعليها، رأوا تطورات جديدة على الابنة، لم يصدقوها، تتوارى خجلا عندما ترى رجلا، تلبس طرحــــة بيضـــاء، صامتــة وحزينة .

* * * * *

تجلس معه فتتخيل كم يعانى، يتغلب علــــى إهاناتـــه وأيامـــه بـــالضحك والدمـــوع والشيكولاتة والنظارة المكبرة، ثم فجأة خلع قميصه ثانية، ثم اســــتدار وهـــو يجـــهش بالبكاء، انظروا إلى ظهرى، ثم تساءل من الذى سيشفى ابنتى ؟

تيارات متدفقة من الدموع الهادئة تنحدر من عيون الجميـــع، متعاطفـــة بمشـــاعر فياضة، ووجدانية، بدا أن هناك شبه اتفاق مسبـــق علـــى تجاوز هذه المحنـــة، أعلـــن

عبد المنعم لافتا الأنظار إلى أهمية الاستئذان الآن، حيث حان ميعـــاد ورديـــة عملـــه المسائية، عرف عمرو أن باقى ساعة تقريبا، يحرص على الذهاب قبل ميعاده حتى يتيح لنفسه حرية اختيار مكان نوبتجيته، والتى يكثر فيها قدوم المرضى ليلا، يقتنعون اقتناعا أكيدا بأنه يكشف عليهم كشفا خاصا بهم، يهتم ويسأل عنهم، وعن أولادهم وعائلاتهم، فيما هو يمتنع عن أخذ إكرامية الكشف، فيصرون ويزيدون كلما ازداد تمنعه، كان مازال طبيب امتياز، يعرف الجميع أدق أسراره العائلية، يردد ذلك باستمرار، يـــرى معارفـه وأصدقاؤه أنها ليست أسرارا ذات قيمة، كلها أمور تحدث فى أى عائلة، يضخم ويبـــالغ فى ذلك، أما الأسرار الحقيقية فلا يتطرق إليها، خاصة انتصاراته المتوالية فى توســـيع دائرة معارفه ونوعيتهم، ذوى الحظوة والشأن فى هذه البلاد، هؤلاء الذيـــن يسوقهم حظهم السيئ إلى المستشفى لحظة وجوده مناوبا .

يعيش هو وأبوه المسن فى إحدى شقق مساكن بور سعيد الشعبية، يشـــتكى مـــن مرض أبيه المزمن الذى يصاحبه أينما ذهب، قال : كان هذا المرض أحد أسباب خروجى من مصر، البعض علق على ذلك بهروبه من مسئولية رعاية أبيه، أما هو فقد تفـــاخر بالمساعدة المادية التى يقدمها له باستمرار، مازالوا فى شقتهم التى بنيت بعـــد حـــرب السويس، حيـــث تم تدمير المديـــنة رغم مرور عشرين عاما، ليست مثل عمـــارات هذه الأيام، عمارات بنـــيت لتقاوم الهزيمة والزمن، وتؤكد النصر، حيث تبدو شـــاهدة على إثبات قوة الفكر والعـــقل والإخلاص والأمانة، تتأكد هذه القيم كلما مر عليها حين من الزمن، وفى الآونة الأخيرة فـــقدت قوة دفعها لعدم تجديدها بشباب جاد، مثقـــف ومهموم ببلده .

كانت انتهازية عبد المنعم بركات أكبر من أن تتحملها مقاومات المد والجزر التـــى تنتاب الأوطان، لم يترك الفرصة للمصادفة، حاول التقرب إلى المحافظ، رفض اســـتقباله أكثر من مرة، باءت المحاولات الأخرى التى تقرب بها من رئيس الهيئة بفشل ذريـــع،

حيث رتب الجميع أوراقهم، وحددوا خط سيرهم، لا مجال لمحاولة اختراق هذه الخطوط والسير فيها أو بجوارها لأى أحد أيا كان .

وبعقليته تلك فضل العمل فى النوبتجيات الليلية، مطمئنا نفسه إلى أن الذى لا يأتى اليوم يأتى غدا، وأن الفرصة قادمة لا محالة، عليه بالتنبه واليقظة ، وألا يدعها تفلت بأى حال .

ذات ليلة اتصل مدير الشئون بالمناوب الليلى، كان عبد المنعم بركات، أمره بالذهاب إلى شخصية مهمة، رجاه عبد المنعم المجئ " حتى تقدم له الخدمة اللازمة اللائقة، والتى لن تتم إلا بوجودك " ، قال إنه يتكلم من مدينة أخرى، سيطرت السعادة والنشوة على وجهه ، تحدث مع المدير فى كل أمور المستشفى بما يشبه تقديم تقرير أمنى واف كله مكائد وافتراءات على زملائه، وعلى الجهاز المعاون، لم يذكر سيرة لطيفة، حتى أن الترميمات المعمارية للمستشفى حظيت بنصيب وافر من التقرير، ها هو ذا قد أصاب العصفور الأول، لم يبق إلا قدوم هذه الشخصية المهمة ليواصل اصابته بنفس الحجر، رجا مدير الصحية ألا يقلق، وأن كل شىء سيتم على الوجه الأكمل،" كما تتخيل سعادتك بالضبط "، خبط سماعة التليفون فى وجهه بسرعة وقوة، عرف أنه قد منّ عليه بعربون البداية، والتى لم تكن واردة على المدى القريب على الأقل ، شرف لا يحظى به إلا القلة .

أجرى عدة مكالمات تليفونية باحثا عن مسئولة التمريض، وصل إلى باب المستشفى الرئيسى، تهادت أمامه سيارة رولزرويس، يحمل حقيبة مليئة بأجهزة طبية، وبعض الأدوية العامة، مقابض السيارة من ذهب، سائقها عبد أسود، له عيون الكلب وقوة الشيطان، أسنانه بيضاء كقطن مصرى ندى، كبيرة ، متراصة كبيض الدجاج، دخل القصر الكبير بعد إجراءات أمنية متعددة .

عندما دخل عليها وجدها فى سرير دائرى وردى، بجوارها زوجها، صغيرة وجميلة، طويلة ورشيقة، عيناها كعينى زرقاء اليمامة، واسعة، عربية صحراوية حادة،

شرسة وراغبة، لايعرف قاموسها الخجل ، وشرطة العين الجانبية صريحة، يظهر بوضوح وتأكيد كحلها الأسود .

نظرت إلى زوجها فخرج ، قال : " كانت كنار الله الموقدة " ، ينبعث الصهد من كل جسدها، ظننت أنه الحمى، كانت قد كشفت الجزء الأعلى أكثر مما يجب، انبثق عطر الورد والبنفسج يتوج المرمر الدافئ، تشتكى من سرعة دقات القلب، تنظر إليه بعين واثقة وجريئة، " لقد أوصلتنى برقتها وبفطرتها إلى الدرجة التى بت فيها لا أقدر على أية مقاومة، فتمثل فى عينى ما يحدث فى البرحة " ، لم تتركه يواصل التفكير، قالت : " هل أنا ضغطى واطى صحيح يادكتور، رد متسائلا من الذى يقول هذا، جفل عندما أشارت إلى الخارج ، ولم تكن تعرف أنه خلع حذائه عندها تشابه شكله مع حذاء زوجها.

الجناح حلم من الأحلام، لم يخطر لمشاهير العالم وأغنيائه أن يمتلكوا مثله، السجاد أحمر كالدم، الحوائط حمراء دموية، يسيطر الدم على المكان، ثيران معلقة تناطح مصارعيها، حمام مذبوح، تتصدر المكان ابتسامة عظام سمكة بيكاسو، كان كل شىء يحذره من محاولة التفكير فى أى شىء .

وكان قد ازداد تردد عبد المنعم غير المرغوب فيه على مكتب عمروأحيانا، وعلى منزله أحيانا أخرى، وعندما يجد عمرو وقتا يذهب إلى الفندق، لم تتغير عاداتهما، أحيانا ينزلان إلى السوق ليلة الخميس .

كانت الأيام تمر بسرعة شديدة، الانشغال بالعمل يأخذه من يوم إلى آخر، تتداخل الأيام والليالى، فلا يفيق، ينسى اسم اليوم والتاريخ والشهر، عندما نزلا إلى السوق لم يكن بغرض التسوق، إنما للمشاهدة فقط، وقطع الملل المتكرر للأيام المتشابهة، غير متزن وغير هادئ، تكتم أخبار سفر سناء المفاجئ، مثلما تكتم أخبارها فيما سبق، وأصابه الجنون والذهول، ينساق إلى السوق فى بعض الأحيان، تدب الحياة من جديد عندما ينظر إلى النساء فى سوق السليمانية، يتشمم الرائحة، وأحيانا ينجذب للمس طرحة أو فستان أو تسول نظرة، مزدحم دائما، ليس كزنقة الستات فى الاسكندرية. لكن

به حريم، يأتين جماعات مع بعضهن البعض ووحدانا، ممرضات ومدرسات أجنبيات ووطنيات، الحلم المتكرر هو المرأة، يتقلب شوقا وحرقة، يجوب الأسواق بحثا عن نظرة، عن ابتسامة، عن احتكاكة، يدق التليفون ليلا بأى نمرة عشوائية، ربما يسمع صوت امرأة، تبدو الرغبة أحيانا أقوى من العقاب حتى ولو كان جز رقبة .

* * * * *

قالت له بعد أن أزاحت السماعة " ضع أذنك " ثم أردفت تعيد ما قالت " هل دقات قلبى طبيعية ؟ هل أنا صحيح ضغطى واطى ؟ وهو بالخارج لم يتحدث ، قال : فقط بعض الإجهاد ، ولم يترك فرصة إصابة العصفور الثانى تفلت، وطد صداقته باستعداده للقيام بأية خدمة كانت، واعدا بالسؤال عن الهائم ، أخذ كل أرقام التليفونات المتاحة، أعطاهم اسمه كاملا، وتليفونات المستشفى والفندق والسكن، حتى أنه أعطاه تليفونات عمرو أيضا .

أثناء خروجه من عند الدكتور رشدى قال لعمرو : اذا اتصل أحد بى أرجو أن تبلغنى، لاتنس أرجوك، أغلق الباب خلفه، كان قد اتصل بعض المرضى لدى مكتب عمرو، نبه الإدارى بعدم الاتصال بهذا المخبول لأى سبب ، وكأنما تعانقت كل أجهزة الاستقبال التليفونية، تلك اللحظة عينها رن التليفون، وجد المتحدث يطلب بإنجليزية مهندس كبير طاهر سليم، انتفض برعشة قائلا : dealy ثم متحدثا إليهم : " لقد ضرب العمال نائبه المهندس جيهانقير خان، وأنه ذاهب حتى لا تتطور الأمور، ثم قال : يجب محاكمتهم الليلة، اقتنص الدكتور رشدى الفرصة، رغب فى مشاهدة المحاكمة، مشيرا على عمرو وعلى عبد الحميد راجح بأهمية الحضور .

ركبوا فى سيارة عمرو، سبقتهم سيارة طاهر، حيث قادها السائق الذى ينتظره ، كان جيهانقير خان قد تلقى ضربا مبرحا فى حوض الغسيل عندما تدخل فى مسألة المغسلة، نصحه طاهر أكثر من مرة، أراد أن يشاركهم وإلا سيلغيها .

عندما حاول هدم أحد الأحواض بالأجنة التفوا حوله، ضربوه حتى أسالوا دماءه ، قيدوه وحملوه داخل الفيلا، وجدوه هكذا، مطروحا أرضا، مكمم الفم، يتحرك يمنة ويسرة محاولا الإفلات دون جدوى، فالقيد كان من حبال بلاستيكية مستوردة، تميل إلى اللـــون الزيتى الغامق الذى يفضله الباكستانيون .

لم ينكروا، كانوا فى بهو آخر واسع ونظيف، الأرضية من الرخام، الســـقف عـــال بارتفـــاع دورين ، لـــون الحوائط مثل لون الحبال ، البهو فارغ إلا من عـــدة كراســـى متفرقة .

فى الصدارة بجوار الحائط الأيمن كرسى لطاهر سليم، والحائط المقـــابل كرســـى لعمرو الشرنوبى، وكرسى بجوار فتحة الباب للدكتور رشدى، وفى المقابل كرسى آخـــر لعبد الحميد راجح، نظروا مشدوهين للحبال التى تتدلى من ســـقف الشخشـــيخة حتـــى الأرض، من السلب الغليظ .

بدا أن هذا البهو خاص بمعاقبة العمال، أثناء جلوسه فرقع بأصبعه، دخل رجـــل مقيد، يشغل وظيفة مساعد مهندس ، هو الرأس المدبر لهذا الاعتداء، ولبناء المغســلة، قال له طاهر : أنت مشكل كبير ، يحيطه أثناء دخوله الحرس الأمنى الخاص بالمؤسسة، اقتادوه حتى الحبال المعلقة، قيدوه فيها من ظهره تحت إبطيه، ومن ساقيه، ثـــم فرقـــع بإصبعه، ارتفعت الحبال من الناحيتين، أضحى المساعد ممـــــددا، ظـــهره إلـــى الأرض ووجهه إلى السقف .

عند ارتفاع معين توقف، قال له : مذنب ولا مش مذنب ، رد بكل قوة مش مذنب، ارتفعت الحبال إلى ثلاثة أمتار، أعاد عليه السؤال، رد بنفس الاجابـــــة، عندمـــا قـــرب الارتفاع من خمسة أمتار ســـــأله ، فلم يزد عما قاله، عندئذ انفرط عقد الحبـــل عنـــد القدمين، فتحررتا منفلتـــــتين بقوة، ســـــقط الجسد إلى أسفل، انشد الحبل بقوة مقابلة ومساوية لرد الفعل عند الزندين أسفـــــــل الابطين، كاد جـــــسده يـــستمزق. ثم نزل.

أعيد ربطه وارتــفع ، ارتطــم الجسد ثانية عندما انفك من عنـــد الزنديــن ومــا زال مربوطا من القدمين .

كلما تكررالتعذيب ازداد عناد المساعد، ربطوه من الجلجل، ومن الزندين ، ومـــن القدمين، عرف هذه المرة ما الذى ينتظره، يفكون القدمين من ارتفاع معين، والزنديـن عند ارتفاع آخر، ويبقى معلقا من جلجله الذى سيتفسخ حتما نظرا لقوة الربط، وثقـــل الوزن وضعف العضو، لن يستطيع أن يتحمل وزن جسده، قال الرجل : مهندس طـــاهر أكبر، هذا جيهانقير ظالم ، يبغى يأخذ حقنا ، يتكلم عنك كلام موش كويس .

سأله نفس الأسئلة، أقر بذنبه، علقه من زنديه، أجلسه على كرسى قيـــد قدميــه المنفرجتين، واللتين تحملتا ضربا بالكرابيج السودانية، حتى نزفت دماؤه، وضعوا عليها مياها مالحة حتى تتطهر، ارتفع عويل الرعب إلى ما لا نهاية .

كان طاهر يضع ساقا على الأخرى، ويدخن سيجاره، يرتشـــف عصــير البرتقــال الطــازج، عب منه أكثر من ثلاثة أكواب، حين لم يستطع أحد آخـــر أن يشــرب كوبــا واحدا.

لاحظ عمرو أن ثمة رعبا وخوفا يتملكان الدكتور رشدى، انعكس على وجه عبـــد الحميد راجح، بادله نفس المشاعر، ثمة رغاو تنساب من فيه، ثمة قلـــق واضطــراب وصمت، لم يستطع عبد الحميد راجح أن يتحمل أكثر مما شاهد، هب واقفا ، صارخـــا، ومهاجما طاهر سليم بقوة وبعنف، حمله بين ذراعيه، زنقه فى الحائط، خنقـــه بكوعــه حتى كاد يكتم أنفاسه، يكيل له اللكمات، اندفع الباكستانيون حائلين بينهما، حين انسحب الدكتور رشدى باكيا، خرج عمرو برفقة عبد الحميد راجح .

(٧)

لحظة قدومه إلى هذه المدينة وجد سيفا ضخما يتصدر الحديقة المقابلة، السيف يلمع ويبرق كالذهب، له أربعة نصال باترة، تبين أنها متقاطعة، تحدد الجهات الأصلية مثبتة عموديا، يد السيف ضخمة، تتناسب مع ما تحمله من ثقل، حمراء كالدم منبثقة من قاعدة على هيئة سيف أيضاً، بنية اللون، تحيطها مياه تمور وتفور، لم يعرف من أين تأتى، ولم يعط الأمر أهمية، لاحظ عندما دعته أمانى وخضر أن «جارثيا» تغيرت، المدينة نظيفة، تتطور وتتسع باستمرار، وفى إحدى جولاته على كورنيشها رأى فنونا تشكيلية مختلفة، مجسمات وهياكل لكبار التشكيليين، وعلى مسافات مناسبة، كانت التماثيل على كل الشاطئ تقريبا، وجد تمثالا لسبع سنابل من القمح، محمولة على عيدانها، ارتبطت فى مخيلته بهذه الطفرة الزراعية التى تحققت فى الأرض الرملية فأنتجت التكنولوجيا قمحا بمياه الرش.

تذكر بدون تواضع زائف تلك المواكب المتتالية على مدى مئات السنين محملة بكل أنواع مواد الإعاشة من قمح ودقيق وسمن وسكر وملابس، قوافل من الجمال تخرج من كل مدن القطر المصرى، مواكب ضخمة مجهزة بكل شئ، تحت حراسة، ورعاية رجل من كل المهن.

وكان عمرو فى سفرته الأولى قد عن له أن يزور هذه الأبنية، بحث عنـــها، ورغـــم أن آثارها كانت موجودة، إلا أنه لم يعثر عليها، يشفقون عليه عندما يسأل عـــن مكانـــها، يقول أحدهم : لسه فاكر ؟!، وآخر يسأل هل يوجد الآن ما يسمى بالتكية المصرية ؟!

وعلى الكورنيش فى مكان آخر وجد تمثالا مشكلا من الحديد، قام بتنفيذه المثـــال المصرى القدير صلاح عبد الكريم، مكتوبا عليه : " وفى الحديد بأس شديد " ، ثم وجـد سيفا ضخما يتناسب مع مساحة الفضاء الواسعة المحيطة، يتجه الحد اللامع إلى البحـر مباشرة، والحد الآخر عمودى على المدينة، نصل يلمع ويبرق تحت تأثير أشعة الشمس الذهبية، شاهد له عيونا تفتح وتغلق فى أوقات متفاوتة، حاول معرفة هذه الحركات اللا إرادية ، إلا أنه صدم ، كانت حركات فتح وغلق العيون محسوبة حسب تحركه ، حيـــث تلتف تلقائيا حول محور نصلها، تستطيع أن تنفذ ما كلفت به .

وكان الذى أشرف على تجميل كورنيش مدينة " جارثيا " مهندس معمـــارى وطنـــى، حصل على بكالوريوس الهندسة من جامعة الإسكندرية، وعمل أمينا للمدينة، فاســـتعان بإبداع هنرى مور وجياكومتى، صفعت تماثيلهما وقد الشمس ورياح السموم .

العنوان الجديد الذى أعطته أمانى لعمرو نبهه إلى المكان الذى ارتاده فيما سبق مع الرسام الهندى والحاج حلمى، بعد أن ذهبوا إلى السينما، لكن الأمر اختلف الآن، وبـــدا الحى الجديد من خضرته وهدوئه وطريقة إضاءته حيا من أحياء هوليوود، تقف أمـــانى فى مدخل الفيلا بانتظاره، الشيفون الأبيض الشفاف، بدت كالحلم فى هدوئـــها وثقتـــها، تأكد من أنها ما دعته إلى هنا إلا ليرى العز الذى ترفل فيه مع خضر، ولم يكن يعـــرف أنها تعد له مفاجأة .

كان حقا فى حاجة إلى رؤية أمانى، أن ينفرد بإنسانة بمثل هذا الجمال وهذا الحنان بعيدا عن دوامة الشغل، قدمت له أختها ، توأمها بلا مناقشة. أكثر منها حيويـــة وألقـــا وجمالا، تصغرها فى السن، عقلها الكمبيوترى الذى اكتسب صفة تخصصها يسيطر على المناقشة، جاءت بها لتقتحم هدوءه وتفكيرد، فارضة عليه نوعا من الاختيار الإجبـارى،

مكللا ومباركا بالاحترام العائلى، هو الذى لايطيق ولا يقبل اقتحامات خصوصياتـــه أو السير به فى طرق متفرعة .

سألته أن يتحدث عن نفسه، عن ماضيه وحاضره ومستقبله، قـــالت : " أريـد أن أعرف عنك كل شىء "، سألها بحيرة وخجل : " لم كل هذا الاهتمام ؟ " لم يكن يعرف أن أمانى أرسلت إليها زيارة خاصة حتى تعرفها على أكبر عدد من الذين تأمل فـــى واحـد منهم زوجا لها، هؤلاء الرجال كالفرص البعيدة، الذين لا يعرفون قيمة أنفسهم، أرادتـــه لأختها، ستختار عريساً لائقا يملأ عينها هى، لا عين أختها عديمـــة الفـهم والخـــبرة، يرضى فيها رغبتها المحبطة فى تقويض زواجها من خضر القمئ كما تقـــول لنفســها، أفهمت أختها إن أى زائر قـــادم هو موضع اختبار، ولم يأت إلا للتعرف عليك، حيـــن يؤخذ الزائر على غرة .

عندما سمعت سؤاله أسقط فى يدها، بدت فى حيرة، لم تعرف كيف تـــرد عليـــه، استنجدت مرسلة برقا ورعدا إلى أمانـى التى أسعفتها ذاكرتـــها، عرضـــت أن يخرجـــوا جميعا إلى الكورنيش، وأن الناس فى هذا الجو الحار يرغبون فى النزول إلى البحر .
هو يحب الاستحمام فيه، أحضر خضر لباس البحر الجاهز دائما والمعلق بجوار الحائط، حاملا اسطوانة أكسوجينه لزوم الغطس إذا لزم الأمر، لابسا حذاء ذيل الســـمكة الـذى يساعد على العوم والطفو والغطس أيضا إذا أراد .

لبست أختها بنطلونا تحت عباءتها، فرحت فرحا شديدا، ولم تساعد بطـــن أمـانى المنتفخة على لبس ما تحب ، العباءات شديدة السواد، سطح البحر بمستوى الشـــاطئ، هادئ وحار، ودرجة الرطوبة خانقة، تمشوا جميعا فيما عدا خضر ، انزلق إلى الميـــاه غاطسا غطسات شديدة متوالية، ورغم أن الشمس تغيب وتتوارى فإن آثار جحيمها على المياه واضحة، البخر يتصاعد بمخاتلة فى هذا الشفق الدموى، آثـــار الزيـت ورائحـة الخشب العطن للمراكب والسفن تأتى من البعد بلا خجل، تتلاطم المياه حـــول أراضـــى الملاحات والجزر، وشبه الجزر، ومروج البحر البادية فى أماكن بعيـــدة تـــأتى قاذفـــة

برائحة أعشابها البحرية، كل هذا الوجد وتلك الوحشة بعثا فى نفسه حنينا وودا، خاصة عندما انفردا، فيما كانت أمانى تنظر إلى خضر الذى لم يتحرك من مستوى المياه الـذى رآه آمنا منذ نزوله، تندب حظها على جبنه وقلة حيلته، يعبران قنطرة صغيرة مقامة من بضعة ألواح من الخشب، إلى طريق مفض إلى جزيرة شاسعة المساحة، ينظران حولهما إلى الرتابة اللامتناهية .

البحر يبدو للعين ضئيلا وراء كثبان الرمال التى تخفى الشمس، امتلأ قلبه حتى فاض باندفاق الحياة الذى لا يهدأ ، وانعكس ضوء جميل من عينيه المتألقتين على راحة وجهها، أيقظ هذا الجو رغبته الدفينة فى المرأة، حين تتوارى وتخبو لحظة انشغاله بالعمل ومشاكله، هذه الدوامات المتلاحقة لم تعطه الفرصة للتأمل والرغبة فى التفكير والفرح بالإناث الكثيرات اللاتى يمرحن حوله ، بدا أن الكمون الزمنى المتراكم للرغبة النائمة قد بدأ يصحو،لا يعرف حتى هذه اللحظة نتيجة انطلاقته تلك .

هل كانت وحدته الدائمة هى سبب فرحته التى جافته ؟ هل وجود الأنثى فى حد ذاته يضفى البهجة والفرحة، حتى ولو كان تعارفهما مشروعا للزواج، هل كانت رائحة مصر ونسمات القاهرة والجو العائلى، والعبير المضمخ الفريد الجديد الطازج المنبعث اشعاعا منها هو سحرها الغامض الذى تلقفه فألقى أسلحته ؟ هل هى وحدته وإحساسه بالخواء والفراغ ؟

كانت التليفونات الكثيرة المتعددة التى تلقاها من أمانى قد جعلته يتصل بالشيخ " أبا الخير " فى أكثر من مكان ، وفى كل أنحاء البلاد للحصول على وثيقة " لمن يهمه الأمر " تتيح له التنقل من مدينة إلى أخرى، يكتب فيها أسماء المدن، موثقة بالتوقيعات والأختام وبعدد ساعات التجول المسموح له بها، خط سيره ، وقت قيامه بالساعة والدقيقة، ووقت رجوعه أيضا، مبلغين عنه كل الجهات الأمنية المتعددة، تتبعه بأحدث وسائل تكنولوجيا الاتصالات والمعرفة . تسلمه من سيارة مموهة إلى سيارة أخرى، يحسبون سرعة سيارته، وتوقفه لملء خزان الوقود، ساعات استراحته فى

الطريق، شرب الشاى والمياه، يعدون عليه تنفسه، زفيره وشهيقه حتى وصوله إلى المدينة .

يتساءل وهو فى الطريق لماذا كانت رغبته فى الذهاب إلى أمانى بهذه القوة، هل افتقد العائلة والجو العائلى ؟ أم افتقد أمانى فعلا ؟ وفيما هما مشغولان ، أحدثت بتأوهها المباغت والحاد صدمة جماعية، أحست بألم الحمل منذ فترة، لم تقدر على قطع سياق حديثهما، بدت أختها فيه أكثر تألقا، وأكثر استجابة، وكانت قاب قوسين من الحصول على ما ترغب .

قفلوا راجعين تاركين خضر يصطاد الأصداف ، تستند على كتف أختها، فتحت لهم خادمة فلبينية شديدة الرقة والعذوبة، أخذت يد أمانى بكل حنان ، ساعدتها، أسندتها، بدا المنزل هادئا ونظيفا وودودا، تحت تأثير الستائر الثقيلة المسدلة ذات اللون السمنى، منقوشة بالأزهاروالورود من ذات اللون ، أثقل قليلا ، كانت مشدودة على ظل ضعيف يستطيع رد أشعة الصحراء المحرقة .

الفيلا جديدة ، لها شخصيتها ووقارها، مازالت هناك فازات من الخزف الصينى المنقوش، تنبت منها ورود وزهور، أرائك وكراسى مكسوة بالمخمل السمنى أيضا، سجاد إيرانى يدوى وطبيعى من اللون المنقط بنقاط بنية مزركشة، تماثيل فرعونية فى الأركان، إضاءات خافتة .

هل كان تفرغها الدائم ، والمكاسب الكثيرة هى التى أوحت لها بهذا الاستقرار الذى يليق بمليونير أو شيخ ؟ قرروا أن يقيموا مدى عمرهم فى هذه البلاد، وأن يحصل أولادهما على جنسيتها، من أين لهما بكل هذه الأبهة، وبكل هذه الفخامة ؟ ولم يعرف أنهما بعد حصولهما على فيزا حرة قد أقاما مجتمعا كبيرا متعارفا من خلال السهرات العائلية الدائمة والمتكررة التى يقيمانها فى فيلتهما .

كان منزلهما هو الراحة والنجوى لأى متعب بعد أن وثقا علاقتهما بالجميع، أصبحا محل الثقة ومستودع الأسرار والحكايا لكل متعب على حدة، حيث يأمن على أسراره

وصفقاته ومشاريعه، ومن خلالها يقتنص خضر أحسن الفرص لعقد صفقاته، وتحصيل عمولاته، كانت منشغلة دائما بتزيين بيتها الجديد، تصحو متأخرة قليلا بعد أن تكون قد أخذت القسط الوافر من النوم ، وفى أيامها الأخيرة ظهر الحمل واضحا، سبب لها آلاما لذيذة، توقعت أن يكون ذكرا، ملل الحمل ويقظة الجنين جعلاها تخرج كثيرا للتريض والتنزه ، تفكر أثناء ذلك فى مستقبل خضر، عندما أرسلت دعوة لأختها بشرتها بالحمل، وعندما جاءت إليها اتكأت عليها، دخلا معا إلى الأسواق ، وكانت سلوتها الوحيدة القيام بدورة على التجار النادرين ، اقتنت كل ما هو ثرى وقديم ، والذى يظنه تجار هذه البلاد بلا قيمة، وفى سياق رغبتها الفائضة تلك اشترت كل ما هو غريب وعجيب، تأخذ أختها إلى المخزن الملحق بجناح النوم، لتريها أنواعا لا حصر لها من الأحذية، وألوانها الجميلة والغريبة .

كانت غرفة الملابس واسعة، مليئة بالدواليب المصنعة فى الحوائط والواقفة أمام الأخرى فيما يشبه الصف الثانى.

ورغم أن أمانى قد قررت البقاء فى هذه البلاد، فقد تمكنت فى سنوات قليلة من شراء أراض واسعة بجوار بحيرة التمساح، زرعتها كحديقة بكل أنواع الفاكهة الصالحة للأرض الرملية، الفراولة خاصة، جاءت ضخمة بلا رائحة أو طعم، تنتج محصولا مضاعفا ، زرعت الكانتلوب وهجنت البرتقال بالمانجو والجوافة، تملكت أراضى صالحة للبناء وعمارات وشققا سكنية ومزارع المواشى الضخمة، التى سجلتها مناصفة لمعرفتها بحبه الشديد لها .

وبناء على رصيدها المنظور سرت الإشاعة بأنها مغرورة ومتعجرفة وسيئة، حين كانوا ينعون حظ خضر التعس، انتحلوا له الأعذار حينا، اتهموه حينا آخر بالتواطؤ والمشاركة والصبر واللامبالاة، وكانت هى متفهمة لرغبات هذا الزوج الحائر ، الشره والمسعور، والتى بلا حدود، قررت ألا تقوم بينهما أية مناقشات إلا إذا أرادت أن تشارك بخبرتها فى دراسة مالية تنمو بالرصيد وتقفز به، ومما كان يحيرها هى موافقته الدائمة

على أى اقتراح تطرحه، فآل بها الأمر إلى عدم الاهتمام بهذه النوعية من المشاكل ظاهريا، حين كانت تتابع كل ما يستجد من أراء وقضايا.

تحيا كزهرة تفرز شذاها فى جميع الفصول، متحررة من كل التقاليد، ومن تلك الفيلا التى طوقتها الرمال والرياح والبحر، يحيط بها الباكستانيون والفلبينيات كأنهم قادمون من أعماق التاريخ، تفاجئهم غالبا ببعض التفاصيل الدقيقة، فيتبادر لهم الشك فى رجاحة عقلها، خاصة بعد الحمل، بدا الواقع مختلطا، كأن هذه الشمس القاسية التى تمحو الألوان شوهت حولها الأشياء، وحولت الكائنات إلى أشباح كلها ألغاز .

كانت فى الأوقات التى ليس لديها مشوار خاص تجلس فيه تقضى ساعات لا حصر لها ، تتأمل المنظر الباهت الذى يمتد أمام نافذتها، ترى أشجارها تقاوم الجفاف والذبول وهجمات الصحراء التى لا ترحم، أرادت بدعوتها لأختها أن تؤكد لها إبهارها بما حققته، حيث اعتقدت أنهم فى بلادها ينظرون إليها على أنها تعيش شخصية مزدوجة، قطعت الشك باليقين، رأتها أختها فى أوج مجدها الكريم .

كما أرادت جاء عمرو الشرنوبى ثانية ليشاهد على الطبيعة هذا النعيم، لم يحوص على ملاقاتها فى القاهرة، قدم اعتذارات مبتسرة وغير مقنعة، بدا من اهتمامه بأختها أنها قد حازت جزءا من تفكيره، يجلس صامتا فى البهو الواسع، متعدد الفتحات والأعمدة، يستمع إلى عقلها المنظم، حيث برمج مستقبلها تقريبا، لا يوجد مجال لأى مصادفة، أو توقع مكاسب مستقبلية، اختيارها تم وتأكد، لأن حياة الإنسان لا تتحمل تعدد ونتائج القدرية، وبصفتها مهندسة كمبيوتر فإن احتمالات الأخطاء غير واردة .

قررت أن تنجب ولدين، يولد الأول فى بريطانيا حتى يحصل على كل مميزات الوحدة الأوربية، والآخر يولد فى أمريكا أرض الأحلام، فى تلك الفترة تكون قد درست فى اليابان أحدث نظم أجهزة الكمبيوتر، وما وصل إليه العلم، أما الأرصدة الخاصة بعمرو فعليه أن يحولها من مصر إلى الدول الثلاث، وعليه فيما بعد أن يرسل مكاسبه إلى هذه الدول تلقائيا بالنسب التى اقترضتها، ستأتى له عدة مرات فى السنة، فى هذه

الفترة تأخذ الدرجات العلمية اللائقة، تحصل على جنسية هذه الدول، لأنـــــها أم الأولاد، هذه باختصار هى شروطها التى وافقت عليها، حتى ترضى وتقبل عمرو زوجا لها .

لم يفاتحها عمرو فى الزواج ولم يطرح الفكرة أصلا، قال إنها بالفعل شروط جديـدة ومغرية لمن لديه القدرة على البقاء فى هذه البلاد، حتى يفخر بها فى صمت الصحراء، كما أنه ليس لديه الرصيد الكافى للصـرف عليها حتى تحقق له تقدم العـالم ووحدتـه وسلامه .

بدأت تتنازل عن شروطها شرطا إثر الآخر،إلى أن قالت إنها على استعداد للمجـيء إلى هنا، وكان عمرو قد فكر منذ رأها أنه بالرغم من أن بها جاذبية وأنوثة أيضا ، فإن نيتها تلك وعدوانية رغبتها، قد تعيقانه عن الانطلاق فى عمله بالشكل الذى يرغبه، بيت رغبة غير معلنة فى انهاء هذا الموضوع، استأذن للنزول إلى الأسواق لشـراء بعـض الحاجيات، لمح أمانى تبرق لها ، التقطت الخيط، قالت : سأنزل معك ، قال إنه سـيذهب إلى بعض الأصدقاء، ويرغب فى التِحرك بحرية.

* * * * *

كان خضر مازال واقفا يسبح فى نفس المكان الذى تركوه فيه، يوارى عدم قدرتـه على النجاح بطريقة مشروعة بالبحث عن أسباب للفشل، واضعا أنبوبة الاكسـوجين ، وحذاؤه السمكى يحدث علامات على الرمل تمحوها المياه أولا بأول، ذهنه يغلى من آثار وقد الشمس، بدا رجلا مليئا بأحقاد عقيمة يحاول الطفو على سطحها علـه يبلـغ هـواء صافيا، حتى ينفذ القرارات والمخططات التى تموج داخله، محاولا مرات متعددة وفاشلة، تعلم أسرار الطفو والسباحة، محاصرا فى زنزانة شكوكه، يختنق فى رغباته، ويتآكل فى غيظه، وضع نفسه فى مأمن من أذية ذاكرته حتى يقاوم دمار عالمه السـرى، يحـس بتضخم قلبه كلما سمع بخبر جديد ، لاحظ فى مرآة لباس الغطس تغـير لـون وجهـه وامتقاعه، تحولت ذراعاه إلى جناحين، وأسنانه إلى أنياب، وأظافره إلى مخالب، وكانت أمانى قد شاهدت حراشف سمكية تنبت على جسده عندما ينزل إلى البحر، وعندما نبهته

قال لاتحبينى فى شفقة، فأكثر من مخزون زيت وقود اشتعال حقده، تحـــترق حياتـــه بالجمر الرملى المنبثق من عيون الجبال والصحارى، طالت ذاكرة حقده العنيدة .

وكانت خبرته قد أينعت أقوالا حقودة مشهورة يرتجلها فى الأوقات المناسبة، فقال لأمانى مرة : " الكراهية مثل الحب تحتاج إلى الناس الأحياء " ، وقال لها عــن عمــرو الشرنوبى: إنه مثل هؤلاء الرجال الذين كانوا كالفرص المتاحة، والذين لايعرفون قيمــة أنفسهم، وذات مرة ألقى عليها نظرة أثناء تأوهـــها مصحوبـــة بابتســامة تخلــو مــن الاستهزاء، كما تخلو من التعاطف، لا وجود فيها للقسوة أو الشفقة، لم يكــن فيـــها الا الفهم ، ومعرفته وتقديره لآلام حملها ، فتعاطفت معه .

لا يستطيع الاستمتاع بخيرات الحياة المترفة التى حلم بـــها، يحــس أنـــه يحمــل الشمس والقمر والسعادة، دفعه هذا الحنين إلى المغامرة فازداد غنى بدافـــع الاصـــرار والعناد، وعندما يحقق مالا، تقنع نفسها بصحة أخطاء آرائها فيه، فتكفر عـــن ذنـــوب ارتكبتها ، ينتابها الإحساس بأنها ظالمة، لكن احتفاظها بالأثر الذى لا يمحى من ذهنـــها عن حقيقته وحقيقة أحلامه التى كبرت وترعرعت معه تجبرها على التأنى والتفكير فـــى أهمية عدم القطع بآراء حوله .

قال لها : " إنك غيـــر واثقة فى إمكاناتى رغم مدة زواجنا، دانا حلو قوى، قربـــى منى أكثر، سأعدك بأننى سأسبح إلى الأبد، لن أتوقف أبدا، سأسبح.. سأسبح .." يخــرج مبللا بلهاث الأيام حيث امكاناته محدودة، هى تعرف أنها منعدمـــة، قـــالت :إن لـــهاثك وطرقك غير الشريفة تثير اشمئزازى وقرفى، فقال يأمانى: إن الشرف لا يضع طعامـــا على المائدة، وقال لها ذات مرة فى سلسة أقواله : أنت تحاربين طبيعة الإنسان، وأنـــا أخدمها، ولا تدرى كيف قال وبدون سبب : إذا نظرت من ثقب إبرة فستجدين من ينظــر إليك .

لاحظت تردده بكثرة على المساجد، حتى فى الأوقات التى لا تقام فيـــها فـــروض الصلاة، وأن لحيته طالت، فراح يحرم شيئا فشيئا كل ماجاء به العقل البشـــرى خاصـــة

ألعاب اليانصيب التى راهن عليها وسببت له غنى فاحشا ، والموسيقى الجديدة ، والرقص الذى كان قد بدأ فى تعلمه ، حتى مشاهدة النساء على الشاطئ ، والتمدد تحت الشمسية خاصة بعد الخروج بالملابس المبلولة .

فى تلك الآونة انتابته حالة تصوف زاهدة أكثر من المتعارف عليه فى مثل تلك الحالات ، فكتب وصية غير مسبوقة ، جعل عظامه مقابض سكاكين وسيوف وخناجر ومقابض مسدسات أوتوماتيكية ، وجعل جلده السمكى بحراشيفه كسوة لكراسى الضيوف غير المرغوب فى وجودهم ، واستخدم باقى جسده سمادا لمزارع أمانى حتى تتذكره كلما زارت أراضيها ، وفى الآونة الأخيرة حرص على معانقة أى شجرة يقابلها، متوجسا من المكان الذى دأب على تبديل أحلامه ، وتبديل زراره ، فأقام خيمة للحنين، لاستقبال الموتى الذين يأتون فجرا لكى يشربوا شايهم معه ، ناظرين لأركانها المليئة بالأطباق الخزفية التى تحتوى سيول دموعه الفضية ، محاولا التحرر من سيطرة خيالاته التى عذبته ، فأعدت له قبل صلاة جمعة طستا مليئا بالماء الدافئ، عليه أوراق خضراء وعصير ليمون، وقشره الذى تدلك له به جلده، حتى يضمد جراحه، وينسى عار ذله، ويتقبل الوضع الراهن برضا، فيروح ويأتى ويتخطى، تضع له البخور، تغلق الأبواب والشبابيك، تعرف أنه يتشاءم من العطس، تبعد فى الوقت نفسه أرواح الموتى التى يشعر نحوها بالهيبة والجلال والحنين، فتكثف من بخور مهدئ حتى يأتيه النوم الأزلى، تؤكده الزهور والأكاليل وإله القبة الزرقاء، وفى لحظات ضيقها وصدقها تستعدى عليه عرائس البحر، وتغمره بالمياه المغلية بعد أن تربطه بخيط مقدس، تعقده وتربطه مرات عديدة فى اليوم تعبيرا عن التصميم الدينى والعزم الأخلاقى معا، تقول له إن الإرادة قادرة على شفاء الإنسان من كل شيء، والغناء خير وسائل النسيان، حيث لن تتذكر الا ما يحبه قلبك، غنى يا خضر غنى .

وعندما أحضر سمكا مجمدا وضع عليه ماء ساخنا فوجئ بعودته إلى الحياة فقالت : إن بركاتك حلت، يجرى الحديث بطيئا، مليئا بالحيطة والحذر، كلامه يتعثر

وينقطع، وأدهشه أنه يفر منه وقاره المعهود، فكان يحاول أن يسترده بغير انقطاع، لم يساعده ذكاؤه الموروث ولا رباطة جأشه، يرغب أن يبدو للناس أعظم شــأنا، وأقــوى جسما، فيرتدى دائما بدلة بكرافتة فى حر مدينة " جارثيا " اللزج الذى لايطاق .

يدركون أن وراء هذا اللباس الفضفاض المضحك جسما هزيلا، يتألم أشــد الألــم حين يكون عليه أن يخرج إلى الناس المنتظرين فى صالون فلتــه، وأن يشــارك فــى المناقشات والقرارات، وحساب العمولات، يحس بلا سبب أنه مسرف فى القصر، يشــك فى الجميع، يحس أنه محور أحاديثهم باستمرار .

وفى لحظة تنوير ينتابها تفهم وتغاض عن بؤس موقفها وقسوته، حيث لم يعـترف لها بحق البكاء قائلا إنه سمة الضعفاء، أهداها زجاجة مصنعه الجديد حتــى تستنشــق منها عبير الروائح العطرية لتفيق، والتى يمكن أن تعمل على نماء الحيــاة بالأنفــاس، أطلق عليه مأوى الروح، فطاردته الأشواق الهائجة نفسها ، التى أقلقت ليــالى حبــه الأولى، لم تلاحظ عليه مرة واحدة الخروج على سياق علاقته بها ، فتمنت أن تلاحــظ مرة واحدة نظرة تواطؤ بينه وبين أى خادمة ، حيث تعرف مستواه ، حتــى لا تعطــى الأمر أهمية ، حيث اكتسبت هدوءا شرقيا تحطم عليه كل محاولات زوجها كى تغير عليه وتهتم ، أو يجعلها تنشغل بتزيين نفسها وبيتها الجديد، أوهمها أنه شيد لها حجرة داخل الفيلا لم تشاهدها، أحاطها بسلاسل جبلية حتى لا يجد قراصنة كوابيسها سبيلا للدخــول إليها، وتجعلها ترى مالم تشاهده .

وكان قبل أن يأتى عمرو قد انقطع عن عقد صفقاته، أخذ فى ارتياد المزادات على الآلات المستخدمة التى انتشرت بكثرة، إما لتجديد أصحاب العمــل لآلاتــهم، أو لأنــهم أشهروا إفلاسهم، فكان يحضر مزادات فى عدة مدن مختلفة، وكانت أشهر صالة عرض هى صالــــة " أبا الخــــير " للمـــزادات الــــعلنية، ثــم تــأتى بعدهــــا مباشــرة صالـــــــــــة " الشريف " ، كانت لكسارات وحفارات وهراسات ومعــامل أســفلت وهزازات ورافعات هيدروليكية، ومولدات كهربائية وأبراج إضاءة، وراصفات أســفلت،

ورافعات برجية وشوكية وضواغط هواء، ومعدات متنوعة لـــزوم البنـــاء، ومولـــدات كهربائية ومعدات معامل ومبان سابقة التجهيز، وشاحنات لنقل المياه، وشاحنات قلابـة، وخلاطات متنقلة، ومقطورات وحافلات، سيارات سيدان وجيب، وحمالات ومبان معدنية، وشيولات، ودنابر، وغيرها .

فيما بعد اشترى الأرض المجاورة لفيلته، وصنع عينا ذات نافورات متعددة، وأقـام أنتنا لاستقبال أبراج الحظ ، حتى يخدع بها ذوى الأحلام الضعيفة والمحبطين ، من رواد فيلته ، وتماثيل كثيرة وحمامات تركية، وركن المقهى الشرقى فى المنحنى على الشاطئ مباشرة يؤدى إليه زقاق مغربى، وعندما شاهد فى أفلام الفيديو قصر رأس التين وقصر القبة، ضبط الصورة وأوقفها عند كل مشهد على حدة، ونقل بالرؤية والكتابة ، حتـى لا تخونه ذاكرته البصرية ، روضات زهور ومروج مشذبة ونوافير مياه، وبعض تمـــاثيل فرعونية، وتمثال فينوس العارى تماما، تضع أماتى يدها على عينيها، وتفتح مـا بيـن أصابعها، تلبس فستانا شديد الضيق، يكاد لا يستطيع احتواء فيض أنوثتها .

* * * * *

راح يفكر فى مبادأة جديدة يفتح بها الحديث، سعل وتمخط، ومسح عينيه وصقـل نظارته، ثم باغتها بعد أن هيأ لها مالم تحلم به، هناك فى الحياة أشياء وحقائق جارفـة لايمكن نسيانها أيا كانت سنك، فقالت ما مناسبة هذا الكلام ؟ قال إنك لا تذكريـن، فلـو طاوعتك لما كان حالنا كما هو عليه الآن، ثم واصل : إن المال ليس فقط لا قلب لـــه ، وإنما أيضا لاشرف له ولا ذاكرة .

واصل : " مهما تكن الطريقة التى تكسب بها رزقك فإنـــها تكـون حيث تكـون موهبتك"، ثم قال كلمات علقت بذهنه إثر قراءاته عن ظواهر الحمل خوفا من أن يكـون حملها كاذبا : إن الحوامل يتخيلن دائما أمورا كهذه .

لم تستطع أن تصمت أكثر من ذلك فقالت : لابد أنـك تتمتـع " وأنـا لا أعـرف " بشجاعة نادرة حفظتك من التمزق إلى أشلاء بتلك الطريقة، وعندما تطـورت الأمـور

وحين لم يعد يحبها على الإطلاق ، وصار يكذب عليها، غدا قادرا على أن يقدم إليـها مقابل مالها أكثر مما كان يقدم إليها حين كان يحبها بالفعل، كما أسلم نفسه إلى تنبـؤات بشعة فى سلسلة تصوفه وتخيلاته، رغبة غير معلنة فى حدوث مأساة، تناول عشـــاءه دون أن يتوصل إلى تهدئة قلقه، أو ضيق صبره، جاهلا ما ينتظره بالضبط، لأنه عـرف بطريق المصادفة أن أمانى تملكت قمرا صناعيا يمكنها من خلاله ارسال إشارات إلـــى أى مكان فى الدنيا إذا أرادت، كان لديها شبكة اتصالات مركزية ذات قاعدة صلبة، بدأت حيث كان على علم بها ، لكنه لم يعط الأمر أهمية فلم يتابع تطورها حيث كـــانت تنمـو وتتحرك تحت نطاق حديدى من السرية .

* * * * *

عندما هدأت أفكاره وأشواقه فور أن أحس بالأمان لتراكم أرصدته، اكتشف أثنـــاء نظره فى المرآة المزدوجة أن قفاه قد طال من الخلف ، لم يعرف على وجه التحديد متى حدث هذا، ولا سبب حدوثه، كما اكتشف أن ظهره قد تقوس إلى حد ما، وانحنى قليـــلا إلى الأمام، منذ هذه اللحظة بدأ الاهتمام بالنظر إلى كل أقفية المارة حولـــه وبجـواره، دعاهم صادقا ألا يهمل أحد قفاه بعد اليوم، وقد حكى له أحد زملاء صفقاتـــه أن فكـرة النظر إلى قفاه راودته يوما ما فوقف أمام المرآة، وفى يده مرآة أخرى خلفيـــة، كـان خضر أكثر حداثة منه، نظر من خلالها ففوجئ بأنه يرى شخصا غريبا لم يعرفه، ولـــم يتعود على رؤياه من قبل .

رتب فى عقله أثناء سباحته طرح أسئلة ماكرة على عمـــرو، وأبـدى ملاحظـات مرهفة، ستلفت نظره، وحين جاء وقت المغيب ظهر الشاطئ من بعيـد كخـط أخضـر طويل، تطل من ورائه التلال الزرقاء الرمادية، وأصبح لون الماء فيروزيا، حالكا مشوبا بلون أرجوانى، وعندما تمعن فيه شاهد بقعا حمراء من العوالق المكونة مـــن كائنـات حيوانية صغيرة معلقة فى المياه القائمة أوطافية فوقها، والضوء العجيب الذى تبعث بـه

الشمس الآن، يرى مزيدا من العوالق، وبضع بقع من الطحالب البحرية التـــى أحالتــها الشمس إلى اللون الأحمر .

من خلف ذهنه انبثق عنوة صوت أشبه بالخوار، صوت يعرفه جيدا ساعة تفكـــيره وتأمله، لحظة أن نقل قدمه خطوة إلى الأمام " لابد أن يتزوجها " ولم يعرف لماذا قـــرر ذلك، ولماذا لاحظ أن أفق تفكير المرء ينحسر فى المكان الضيق ، لذا قـــرر أن يوســع امتداد فيلته إلى داخل البحر ، فى وقت كانت الهوام فيه تغزو سحابات أفكاره ، هل هــى رغبته فى أن يكون قريبا منه حتى تأتيه عدوى أفكاره الجريئة ؟ أم هى رغبته فـــى أن يتساويا، حاول البحث بطرق عدة عن وسيلة اقناعه .

هداه تفكيره إلى احتمال وصول أمانى وأختها إلى صيغة مناسبة معه، ستكون هناك أسباب للتفاخر، لم ينس رفض عمرو التعاقد معه فى القاهرة، ولم يكن يدرى أيضـــا أن عمرو فى تلك اللحظة عينها قرر الذهاب إلى الرسام الهندى، راغبا فـــى زيـــارة حـــى الأرامل، أو هكذا أوهم نفسه .

* * * * *

يعرف أنه لن يستطيع مجرد الاقتراب منه، استقبله استقبالا حافلا كريما، وجد لديه فى نفس سكنه القديم طعاما بسيطا ولذيذا، لم يتناوله منذ مدة طويلة، البريـــانى، الأرز بالكارى بالشطة الخضراء واللحم الضانى مقطعا قطعا صغـــيرة، منتشرة فيــــه، وجـــد باذنجانا مطبوخا، قال الرسام الهندى : مسقعة مصرية ، مع قرون الشـــطة الخضـــراء المقلية .

لفت نظره سيف معلق على الحائط، كان جديدا لم يره من قبل، تحدث الهندى كثيرا ثم توقف بغتة، سأله : هل تذكر الرجل الإنجليزى وزوجته التى أنقذتها فى سوق قابل ؟ بدا على عمرو الاندهاش فقد استدعت الذاكرة كل التفاصيل فى لحظة، قال عمرو نعـــم أذكره، قال الرسام : أرسل إليك رسالة ، قام وأحضرها .

بلا إرادة وبطريقة عفوية نظر إلى السيف، سأله : منذ متى علقته ؟ جاءته اجابة بدت غريبة، عرف أن هناك مصنعا للسيوف افتتحه أحد الشيوخ ، عين بعض أعوانــه يجوبون منازل المتعاقدين، وإذا لم يجدوا سيف معلقا من إنتاج مصنعه أوصى بترحيلـه خارج البلاد، ومنذ أنشأ فرعا للمصنع فى هذه المدينة والأجانب يتزاحمون عليه، اغتنى الرجل غنى فاحشا، عرف الناس أنهم يستطيعون استثمار أرصدتهم اذا أرادوا .

كانت هناك أهداف أخرى غير خافية على الجميع، وعرف البعض ما سيئول إليــه حالهم ، كما انتزع لنفسه أولوية فى ترتيب شجرة الحكم .

تخيل الخطوة القادمة ، سيضعونـها داخل صناديق، سيرصونـها فى صالات وصــول القادمين، حيث شرط دخول أى قادم جديد شراء سيف ليعلقه فى منزله فور وصوله.

فيما كان مشغولا بالتفكير فى انسياب خواطره، كانت يداه تداعبان أقلام الفلوماستر الملونة، ترسم أشكالا غريبة، تعبر عن هذه التطورات، لم يستطع أن يتخلص من التفكير فيما آل إليه حاله، قدر أن هذا الرمز ليس للتسلية، وليس باقيا عليك إلا قراءة شــروط الاستسلام، اشتعل ذهنه وتساءل عن عدم معرفته بهذا الخبر، وعدم معرفة أهل المدينـة التى يعمل بها، أم أنهم علموا ولم يتكلموا، ولم يبينوا عن آرائهم خوفا على مكاســبهم التى تتزايد كلما انساقوا وصمتوا .

قرأ خطاب الانجليزى ثانية، يحمل له دينا وعرفانا، وشعورا فياضا، تحـــدث عــن مصر التى زارها كثيرا، وأنه لن ينسى له مطلقا أنه أنقذ زوجته، وأعطى لابنته عمـــرا جديدا، كما أنك أعطيتنى الفرصة لأحافظ على كرامتى ورجولتى أمام زوجتى مدى العمر، قال : إن الكتاب الذى تكلمت معك عنه تجمعت خطوطه الرئيسية ، وأن هنــــاك بعــض المراجع التى تنقصه، ذكر منها بعض الكتب التاريخية، لم يسمع عنها عمرو من قبـل ، لكنه عرف أن هذه المراجع مكتوبة من أزمنة طويلة، وعد عمرو بإرسال نســخة مــن الكتاب على عنوانه فى القاهرة، رجاه إذا ما رغب فى زيارة بريطانيا أن يكتب له بتاريخ

قدومه، كما وعد بأن يكتب له إذا ما زار القاهرة، تمنى له المقدرة على الصبر وتمنى له مرور الوقت والسعادة والتحكم فى أعصابه .

أحس برغبة فى القيام، اقترح على الهندى الخروج لتدخين الجراك، سعد الهندى، قفز من مكانه، لا يستطيع التعبير عن فرحته، استرجع الأيام الجميلة السابقة، وتمنى عودة الأعمال والمشاعر النبيلة، يتطلع عمرو إلى مائدة الرسم وأدواته التى اشتراها له، التراب يترسب عليها، عاتب الهندى، قال إنه يقوم بتنظيفها يوميا، لكن تكرار الحفر يغمر المنازل بالمزيد من الأتربة .

التفت إلى السيف عنوة، كانت رغبته فى الانطلاق بلا حدود، أراد من خلالها أن يستعيد مع الهندى انتصاراتهما الكثيرة، وبدا أن ظهور هذا السيف قد باغته وسبب له قلقا، عكر حالة الطمأنينة التى سبقته، والتى جاء للاستمتاع بها، بعد أن تخلص من أمانى وأختها وخضر .

جلسا فى مقهى على الكورنيش، كل واحد على أريكة خشبية، تغطيهما مفارش من السجاد، كانت البلدية قد تدخلت فى كل شىء، اختارت التصميمات المختلفة لكل أنواع النشاط، ظهرت واجهات الأماكن المقامة على الكورنيش متشابهة ، المقهى نظيف ، لم يكن كما عهده من قبل، الناس أكثر هدوءا وأكثر ترهلا، وأقل حركة .

يتمدد براحة، يضع المسند الأسفنجى على جانب الأريكة ، يتكئ عليه، الكورنيش مزدحم، العائلات الأجنبية تتمشى والعائلات الوطنية تتوارى، يتحفز الرجال وينتبهون، بدا عمرو مسترخيا، يتصبب العرق منه ، هدأ من تدخين النارجيلة، محاولا استعادة تماسكه، احتسى مزيدا من الشاى الساخن، انتابته برودة، ثم أحس بمغص فور أن رأى السيف معلقا أعلى النصبة، مستقيم النصل .

لم يتوقع أن يتقيأ، حسبه الهندى من الجراك، شل الرعب تفكير عمرو من تركيز نظرته على السيف المعلق، لم يستطع التحكم فى أعصابه .

كان المقهى غاصا بمن فيه، يعج بالطنين، كأنه خلية نحل هائجة، تجمع فيه أهل المدينة والغرباء الذين يزدادون عددا كلما مر مزيد من الوقت، يتكلمون بصوت عال، عاقدين الصفقات الصغيرة والكبيرة، مساومين على عمالة جديدة، دافعين أجورا إضافية مقدما، يحاسبون على أعمال أخرى سابقة، البعض مغطى مازال بآثار الجير والرمل والخرسانة، أيادى البعض سوداء عليها صدأ نخالة حديد التسليح .

حتى هذه اللحظة لم يكن قد اقترب من أى سيف من السيوف التى رآها ، ولم تؤثر فيه هذه الحالات التى تنتابه فور مشاهدة أحدها، تكلم مع اليمنى بعد أن تأنى ، وفكر دون أن يبين، أنبأه عن رغبته فى تفقد هذا السيف .

قال له اليمنى : " عمى ماهو فيه " سأله عن ميعاد مجيئه، قال : ما بعرف ، سأله من هو المسئول هنا ؟ قال ها هو ذا ابنه ، أطل من باب المقهى فتى طويل، شاب صغير لا يتعدى السابعة عشرة، يدخن سيجارة بشراهة، يبتسم بلا سبب، تكلم اليمنى معه، أشار ناحية عمرو، انتفض الولد، نط إحدى الأرائك الخشبية، ولما لم يطله أشار إلى اليمنى أن يحضر كرسيا، وقف عليه، لم يكن مثل سيف الهندى، بدا أن هناك أنواعا متعددة، ذات أشكال كثيرة ومتنوعة، كل سيف له قيمته الخاصة، حاول عمرو أن يمسك السيف ويرفعه، وجده ثقيلا من حديد عالى الكثافة، أطول من اليمنى، يقارب كتف عمرو، نصلاه حادان لامعان، يبرقان ، تذكر أبيات شعر قديمة ، ولم يكن هذا الذى يعيشه الآن له علاقة بهذه الأبيات، كانوا جميعا وقوفا، جلس على أريكة ومعه السيف ، انفضوا من حوله، لمح بعد أن أزال الأتربة كتابة باهتة رغم أنها جديدة، حاول قراءتها، كتابة منقوشة وخط ردئ، وكانت بين قوسين " العز فى الطاعة، والغنى فى القناعة " قال الهندى : إن نفس الكتابة منقوشة على سيفه " ، سأل اليمنى عن الجراب، ولماذا لم تضعوه فيه، قال : انهم يبيعونه هكذا ، حتى يكون جاهزا دائما .

لم يستطع الهندى أن يجد تفسيرا، وبحكم الحذر وجمود القلب اللذين يستوليان على الناس عادة مع استمدادهم قوة وهمية من قطعة حديد مثل هذه، قذف عمرو السيف

إلى اليمنى الذى فوجئ، تلقفه ببهلوانية مدهشة، لاعبا به، ضاربا الهواء عدة ضربات متتابعة، محدثا صوتا قاطعا، زنة صوته باترة ومنفرة، ثم هدأ من سرعة السيف التى تتابعت كدائرة برقية إلى أن أمسك بمقبضه، أعطاه لهذا الشاب الواقف مبهورا ، لم يكن يعرف أن كل هذه الإمكانيات لدى هذا اليمنى الضامر القصير .

من أين هبت هذه النسمة ؟ ومن أين جاءت ؟ تختلف عن هواء مراوح الأسقف، تختلف عن هواء المكان والمدينة والبلاد، لاتوجد مثل هذه النسمة الطرية، ثم جاءت أخرى محملة بدخان الفحم، حيث كانت أباريق المياه تغلى على النار، سيطر دخان جراك النارجيلة من جديد، بدا الوخم، الكابوس ثقيلا على النفس والقلب، وانتابته حالة الغثيان ثانية، وبدا أن كل مافى المقهى يشيع تلك الكآبة التى توحى بها أماكن قتل الوقت، المناضد مكدسة فوق بعضها، والأرائك متقاربة، والكراسى الخشبية كذلك، واليمنى الذى يلبس جيبه من قماش كاروهات ملون يشمرها ليغسل قدميه العظميتين السوداوين من التراب .

انتفض واقفا، وضع مبلغا من المال فى يد اليمنى دون أن يحاسبه، خرج مع الهندى، لديه رغبة فى الكلام، المقهى أنسب الأمكنة، الكورنيش جميل ونظيف تحت إضاءة حديثة متلألئة، موزعة توزيعا جماليا، تؤدى الوظيفة المناطة بها فى جمال أخاذ، لم يجد ورقة أو قشة أوغلاف قطعة شيكولاته، أوكيس شيبسى فارغا ، كان عمال النظافة يزيلون هذه الأوراق أولا بأول، فى ورديات عمل منتظمة طيلة أربع وعشرين ساعة، فى كل أنحاء المدينة التى أخذت منحى وطابعا جماليا جديدا، غير متعارف عليه فى المدن الصحراوية .

يؤرق الرسام الهندى عدم قدرته على القيام بعمل اضافى فى تخصصه أو فى غير تخصصه، كان قد تكلم مع أمانى بعد احجام شديد، دفعته حاجته وعدم قدرته على تحمل عبء احتياجات عائلته ، أبلغت خضر، حسبها سريعا، سألها فى أى شىء يعمل ؟ قالت لديه الرغبة فى العمل ، لم تكن هناك أماكن شاغرة إلا فى العتالة، عمل الهندى

عدة أيام، لم يقدر على المواصلة، يعرف الآن أن لدى عمرو مكتبا خاصا، يعرف أيضا أن نقل كفالته إلى المكتب تتطلب موافقة الكفيلين، وهو ما أراده الرسام الهندى ، يعرف أن علاقة عمرو بالشريف فى الحضيض رغم التعهدات والضمانات التى أخذها من " أبا الخير " ، يأمل الهندى أن ينقل عمرو كفالته إلى هذه المدينة التى عاش فيها زمنا طويلا، والتى فيها كل معارفه وأصدقائه وأقاربه .

أخذا فى استرجاع تلك الأيام، يمزج الهندى بين الواقع والأيام الخالية، حيث استطاع أن يوفر فيها قدرا لا بأس به من المال استدعاه هذه الأيام ، ينتظر عمرو اللحظة التى يتطرق فيها الهندى إلى خطة هروبه المحكمة .

حاول قدر إمكانه الابتعاد عن الكلام فى هذه المنطقة، وقد وضح بالتدريج الهدف الخفى الذى أجبر عمرو على المجئ ثانية إلى هذه المدينة، كان كامنا فى أعماقه، لم يقدر على البوح به ، هل كان مجيئه ثانية بغرض البحث عن آثار هروبه وتأثيره ؟ هل يريد أن يتحقق من أنه فى أمان حقيقى وكل شىء طبيعى؟ أم ما هو الدافع الخفى الذى أجبره إلى المجئ إلى هذه المدينة ثانية ؟

كان الهروب جريمة حقيقية فى عرف عمرو، لم يتعود عليه مطلقا، لم تجبره أية ظروف على ذلك، فقد دخل البلاد بطريقة نظامية، مارس مهنته التى عشقها، والتى تخصص فيها، لم يثر أية مشاكل مع الشرطة أو مع الأجهزة الكثيرة، لم يتشاجر مع أحد.

كان همه الأكبر المشغول به ليل نهار هو أن يرى تصميماته المعمارية أعمالا حية ومجسمة، ومشاريع يستخدمها الناس ويعيشون فيها، ويستفيدون منها، يفرحون فى أمان ، يتزوجون وينجبون ، أخذ فى التنقيب بجدية راغبا أن يحدد السبب الحقيقى، لم تكن أخت أمانى لأنه فوجئ بوجودها، يريد أن يرى المشاريع التى صممها والتى شارك فى تنفيذها، أما السبب الحقيقي لمجيئه فلن يستطيع أن يعبر عنه أو يتطرق إليه، كيف يمكنه السؤال عن آمال، وكيف يمكن معرفة أخبارها، وقد كان واضحا أن أخبار

علاقته بها لم يتسرب منها شيء ، إنما كان يعرف آثار الأحداث وتفاصيلها التى تداعت إثر اختفائه .

الأماكن التى رآها منذ قدومه إلى هذه المدينة كانت مزينة ومكللة بالسيوف، التفت عنوة إلى السماء صامتا، فألفى الصفاء والسكينة والبهجة، التى كبرت معه كلما توغل وتمعن، طال تفكيره، دقات قلبه تتسارع، لم يجد فى السماء أية سحب أو أية شوائب، بدت كراحة يد نظيفة يرتعش بها عدد لا يحصى من النجوم، لم يعرف لماذا لم يصارح الهندى بعلاقته بآمال، تأكد أنه كان حريصا عليها قدر حرصها وربما أكثر، وأنها علاقة خاصة جدا وحميمة وعائلية، وأن الخوف الذى انتابه خوف حقيقى ومشاعر انسانية أكثر منها شيء آخر .

كان خوفه بالدرجة الأولى عليها، أرادها حقيقة زوجة ورفيقة، أعطته بلا حدود وأرادته دون خوف، وقد عرف مقدار جرأتها وكمية المشاعر التى تكنها له، قالت الأنثى ليست المصرية فقط، وإنما الأنثى والحب والعطف والود والعلاقات الفطرية الحميمة هنا، فلم كان قاسيا معها كل هذه القسوة ؟ ولماذا خذلها ؟ ولماذا لم يتحمل من أجلها ؟

كلما فكر وتمعن وازدادت خبرته، ازداد تقديره لكل هذا العطاء، وازداد خوفا من جرأته وتهوره بالموافقة على الرجوع إلى هذه البلاد ثانية .

لماذا لم يسأل أمانى عنها ؟ هل هو الحذر من خضر ؟ فإذا عرف حطم العائلة وشتتها، وأضرم النيران فيها، ورضى عن نفسه لأنه لم يسألها، كانت قد حكت له عن كل ما فعلته أمانى، وما تقوم به حيال خدمتهم، تذكر فيلا خضر، وفيزته الحمرة التى يتمتع بها ومشاريعه وشركاته الكثيرة ، فلماذا لم يسألها اذن ؟

هل هى متزوجة الآن ؟ ومن هو غريمه ؟ هل ما زالت باقية على علاقتهما ؟ هل سافرت إلى لاهور ؟ وانتفض : لماذا لم يفكر فى هذا الافتراض قبل الآن ؟

هل هى السبب الحقيقى لمجيئه من القاهرة ثانية ؟ وهل هو اشتياق بلا حدود وتعدى وتجاوز كل المحظورات؟ آه .. لماذا هذا الحنين؟ وهذا الوله وهذه الرغبة ؟

هل الأماكن وذكرى الوجد والسماء الصافية تثير الحنين، عسير على قلبــه أن يتذكر هروبه ، بوجوده هنا أضحى هما مقيما وذنبا لا يغتفر، وبدا أنه فى حلقـــة مــن حلقات تعذيـــب الــذات وجلدهـــا، تلــك التـــى تقــوده إلـــى أفعـــال يصعـــب حســـاب ردود أفعالها، عليه أن يتند ويتماسك ويقمع نبضات فؤاده، فلم تعد الأحلام وردية، باتت تجولات كئيبة، وسحبا زائلة تندمج وتتفرق بلا نتيجة .

ظهرت شفتا الهندى تحت هذه الاضاءة ملطخة بالدماء من آثار التبـــولا التـــى يختزنها فى فمه ويجترها كلما أرادها، هادئ تماما ووديع لا يتكلم، نظرته إلى عمـــرو غائمة، منتش وسعيد، لايعرف ماذا كان يود أن يقول، تداخلت ذكريات مشوشـــة علـــى عقل عمرو، بدا بلا تركيز فيما كان الشريف يرتدى زيه المموه متقنعا ليلة عزومته فـــى قصر " أبا الخير " .

لماذا لم يذهب إلى قصرها ويدور حوله، ربما جاءه عبق عطرهـــا، ورأى أثـــرا منها، ولماذا لم يرغب فى مشاهدة مسكنه ولم يسأل الهندى عنـــه، ولمـــاذا رفــض أن يستمع لتوابع زلزال هروبه ، فقد رغبته فى الذهاب إلى المحجر الصحى ليشاهد الأعمال التى أشرف عليها ، والتى تموج الآن بالحركة ، أما حى الأرامل فقد ركنه على جـــانب الذاكرة، هل هو الركون والاستسلام إلى الدعة والهدوء، أم هو لشحن طاقته ورؤيتـــه وشحذ همته وذكائه والتفكير بشكل جديد ؟

(٨)

مريض بالسكر ويعالج منذ مدة زمنية طويلة، لا يستطيع أن يفتح فمه إذا أشارت له، هكذا قالت لطيفة لعمرو فى مكتب كلكتاوى فيما هو مشغول بمكالمة تليفونية طويلة معها ، سمع إغلاق التليفون بقوة، لعنها بصوت واضح ناسيا كل من فى المكتب : "هذه المره ما تستحى "، تعرف لطيفة الكثير عنه، كاتمة أسراره ومستودع أشواقه، واصل : " هذه كما يقول المصريون ناتفة ريشى، وماصة دمى، ملاحقانى فى كل مكان ، منكدة على عيشتى،، ثم بصوت عال وبغير حياء «يوجد بق فى جسمها بنت الأغا» .

حدق فى عايدة فابتسمت، أنزلت ساقا عن الأخرى، استدارت، فى نظرة احتوت الرجلين، ذراعاها تتأرجحان، وراحتاها باتجاههما، ضمتهما إليها بكثير من الحميمية والمرح، كلماته فيها شكوى ورجاء، كلمات من سحر، تعاويذ ورقى بدأت تطوف على شفتى كلكتاوى، نهض من الكرسى الهزاز الفضفاض، تقدم نحوها، حاول عمرو أن يفهم ما الذى يحدث حوله ، أراد أن يحدد المشهد دون أن يتركه، انتابته حالة عطف وجدانية، تتحرك عينا لطيفة وحدهما، تتابعان حركاته ، وهو فى بذلته الأنيقة وشعره الهندى الأسود اللامع الناعم المفروق يدور حولها بخطا رشيقة، هيمان وغارقا فى الوجد والذكريات .

لم يخطر على ذهنه أن يساق بسبب تخصصه إلى كل هذه الغرائبيات والعجائب، استشف فى لحظات ما غاب عنه زمنا طويلا، للمرأة قابلية، إذا أرادت فلن يقف أمام

رغبتها أية قوة ، ستضـــرب عرض الحائط بالماضى والحاضر والمستقبل، ستقامر بكل شيء .

بدت مشاركتها ودورها فى حياة الرجل فاعلة ومؤثرة، هل زوجته تعـــرف ذلـــك ؟ ولماذا دائمة الاتصال ؟ أم أن هناك أمورا كثيرة لم تتكشف بعد ؟ استراح لما اســتنتجه، وضح أن المسألة ليست مسألة ممرضة وطبيب، وليست جمال أو كمـــال ، بـــل بكـــل بساطة رغم قصر المدة التى جلسها، وسرعة زوال تأثير ما شاهده ، هـــى أن لطيفـــة تجلت بشخصها عن رؤيا باهرة ، لا تنال ، وأن سر الأسرار فى عقلها وروحها .

إلى متى يتملكه هذا الحياء وهذا الخجل ؟ لم يستطع أو يتمكن من إخفاء اضطـــرام وجهه وعربدة انتفاضة الأعصاب، والدم الذى سمع هدير غليانه يجرى فى عروقه وفى جبهته، لم يتعود على مثل هذه الغراميات أو التصرفات المعلنة ، والتى فى ذهنه جريئـــة ووقحة ، خاصة فى بلاد مثل هذه ، وعرف لم بعـــض هـــؤلاء الممرضـــات طاغيـــات وساحرات، يتزوجن لممارسة الأمومة وللحفاظ على الشكل الاجتمـــاعى، حيـــن يعشـــن الحياة، يتمتعن ويحببن وينطلقن ، محافظات فى الوقت نفسه على بيوتهن، وعرف أيضا لماذا زواجهن دائما ناجح .

لا يتزوجن إلا الذين يرون فيهم سلما للصعود، والتعرف إلى الطبقات العليـــا مـــن المجتمع، الذين يحسون دائما بالدونية تجاههم، هاهو ذا زوج لطيفة على وشك الحصول على جنسية هذه البلاد، سعت له بين المدير ومعارفه، والوزير ومعارفـــه، ومســـئولين كبار يأتون إلى المدينة فصل الصيف، حققت نجاحات باهرة، هاهى ذى على وشـــك أن تجنى ثمار جهدها وعرقها .

كلما نظر إليها تذكر عبد المنعم بركات، والكلام الذى قالـــه عنـــها، إنـــها تتمتـــع بشخصية قوية جدا بين الأطباء، ويزداد طغيان شخصيتها بين الممرضات يوما بعد آخر، إنها سلم الأحلام التى تراود الغالبية منهن، يؤكد عبد المنعم أن الجنسية قادمة لا محالة، وأن شبكة علاقاتها تتحدى الواقع وتفوق الخيال، قال لها ذات مرة : ماذا لو أن الرجـــل

أخذ الجنسية وتركك، ابتسمت واثقة ومتنهدة بترفع ، رادة من أنفها : ببساطة ننزعها منه ونسجنه قبل أن نرحــــله ، هذا إذا كان يقدر أســـاسا على التفكير فى ذلك، كانت عيناه جريئتين، يحدق فيها ، أحست بهـــما على وجنتيها وعنقها، بدلال أنثوى فــــهم أنها غير قادرة على رفع نظرها لأعلى، وجه ذكى وسيم، نظرته غريبة الأطــوار مــن عينين تنتميين إلى عائلة وضيعة، تنم عن شخص منبوذ، فيما كانت تعرف أنه يرتجــف فى داخله من تقاريرها .

كانت مصرية عمرو تنقح عليه، ولم ينظر إلى هذا الرجل الهائم وجدا على أنــــه هندى، أو أنه ورث جنسية هذه البلاد إثر رحلة حج تحطمت فيها سفينة أبيــــه، مكــث كطرش بحر من أزمنة طويلة، أنجب خلالها أولاده، خرج كلكتاوى إلــى الدنيــا حــاملا تابعية وطنية، لماذا يغار على لطيفة ؟ هل مساحة الود التى أعطتها له سمحت له بذلك؟ هل لأنه قرب منها ولم يستطع تحمل عذابات وحدته وجمالها الآثر ؟ أم لأنها مصريــة ؟ أم أن المشهد الذى يجرى أمامه يحرق دمه ويوتر أعصابه .

وكانت كلما هبدت التليفون فى وجهه استعان بلطيفة، تحب أن تلجأ إليها الســلطة كاملة، لم تبخل بشىء، هى الدارسة والفاهمة لنفسية أهل هذه البلاد، مما جعلها تعمــر طويلا، تكتسب كل هذه الأموال بطرق ملتوية، كالضحكة الناعمة، والدلع والوعود، ممــا جعلها تمتلك أراضى وعقارات وبساتين فى الأراضى المستصلحة حديثا، وقد أصبحــت مصنفة فى قائمة المليونيرات، كيف لها أن تواصل ما بدأته، حريصــة عليــه، طالبــة الجنسية أيضا، ألا توجد حدود لهذه الأحلام وهذه الرغبات التى لا تنتهى ؟

رن الهاتف ثانية، رفع السماعة، نظر إلى عمرو وإلى لطيفــة قــائلا : فــورا ، انتفض واقفا فيما هو يضع السماعة ويغلق أدراج مكتبه قائلا : إن المقاول فى عجلــة، جاءته عدوى مستشفى النفسية قبل أن يبدأ، عليهم الذهاب فورا، والانضمام للجنة التى ستسلمه موقع المستشفى، وسكن الممرضات، نظر إلى لطيفة قائلا : أنت عضـــو فــى اللجنة، ركبوا السيارة الجيمس، لاحظ صمت المدير، قال له : أبلغنى الشيخ أنك تريدنى،

قال المدير : إن المره لديها ملاحظات أخرى على التصميم، قال عمـــــرو : إن البلديـــة وافقت ، وأخذنا الرخصة، قال : طيب وإيش أسوى ؟ قال عمرو : إن التصميم غير قابل للتعديل مرة أخرى .

بات عليه أن يقنع هذه المرأة بكل خط رسمه، عليه ضمن خطته إيجاد أكـــثر مـــن بديل لكل رأي تبديه، ترغب فى الكلام والمجادلة، لاتجد ما تفعله ســـوى التحـــدث فـــى التليفون، ها هو ذا عمرو سيكون أحد مشغولياتها القادمة، يمـــهد لذلك ويشجع عليـــه زوجها، فيما كان مشغولا بالتفكير فى كيفية القبض على لجام هذه المـــرأة الجامحـــة، تتقاطع مع تفكيره ومضات برقية فى التفـــكير فى لطيفة، تتداخل وتخـــرج، ملمحـــة ومخاتلة، توقع أن زوجها لا يستطيع بأى حال الفـــكاك منها، وكلما بعدت عنـــه ازداد ارتباطا بها، لا تهمه الجنسية أو المادة تحت ضغوط طغيان هذا الطاغوت، لم تقل ذلـك، تستدعى الأفكار التى تناسب عقلية مثل عقلية عبد المنعم بركات، عارفـــة ومقـــدرة أن هناك سحرا وبهجة وأسرارا وكنوزا لا يعرف عنها شيئا إلا من عاشرها، هى تومئ ولا تبين، أشعلت النيران فى الجميع ، فكيف لزوج مثله أن يتخذ قرارا بالانفصال عنـــها ؟ وكيف له أن يفكر مجرد التفكير فى إعادة حساباته ؟ حتى لو كان قد وصل إلى الســـن التى فيها يكون الرجل أكثر حكمة ، وأكثر وقارا، لا يحـــس أى احترام لنفسه مطلقا ، تعرف كل هذا وأكثر منه أيضا، وكانت تحس بداخلها رغم قوة شخصيتها بشـــىء مـــا ينهرها، ليس خوفا من أن يتركها زوجها، لكن لمجرد طرح هذا الســـؤال، عرفـــت عنه دونيته منذ الليلة الأولى لزواجهما، لم يستطع أن يحدد أو يأخذ إجابة شافية عن تاريخ فض بكارتها، وفى عجلة من أمره، طرح عليها أسئلة كثيرة، لم يعرف أسباب ذلك ومع من، وما النتائج التى توصلت إليها، توقعت وانتظرت ردود أفعاله، آخذة فى الاعتبار أننه بدخولها عليه قد أصبحت زوجة، وبذا يكون قد أدى مهمته لو قرر الانفصال، ارتسمت على وجهه القبيح الشهامة وبل التضحية، متقمصا

شخصية أحد أبطال السينما التى يحب ارتيادها، متلفعا بالرجولة، مؤكدا أهمية مواقف الرجال فى اللحظات الصعبة والحرجة فى حياتهم العائلية ، رغم أنه وجد فى فترة الخطبة ما ينبىء عن سلوكها ، حيث عثر على علب ملينة وفارغة من العوازل الطبية، فلم يتكلم فيما هى منتظرة رد فعله ، وكان قد تكرر وقوفه أسفل شبابيك عنبر المستشفى الذى تعمل به ، عندما تطمئن على وجوده ، تقذف إليه بحقائب صغيرة مليئة بأكل المرضى ، وفائض فاكهة الأطباء ومناديل كلينكس لزوم نظافة يديه .

بعد ذلك تغاضى ونسى الموضوع برمته، سبقته أثناء تجهيزأوراقه للسفر، لتعد الأوراق الخاصة باستقدامه، لاحظت منذ اليوم الأول لقدومه حبه وشغفه فى التقرب إلى الأطباء، وكثرة حديثه عنهم، وصداقاته المتعددة معهم، ورغم أنه لم يلاق أية متاعب فى الحصول على الوظيفة المهمة والخطيرة التى يشغلها الآن، والمستويات العليا التى يتعامل معها من خلالها، إلا أنه كان دائم التحدث عن الأطباء، دائم التعرف على نوعيات جديدة منهم ، لا يتحدث معها إلا عن صداقاته مع زملائها منهم، يسألها إذا كانت ترغب فى شىء أو تحتاج لشىء، تقمص الدور، عاش شخصية المهم، فيما تدفع الواحد إثر الآخر لتعضيد وتوثيق علاقته به .

لاحظ أن المرأة موردة الخدين دائماً، فإذا كانت إحدى صفات الدونيين العجز الجنسى، لا يستطيعون الاستمتاع بالحياة، بل لا يستطيعون أن يروا أحدا لديه القدرة على ذلك ويتركونه لحال سبيله، وإذا كان هذا المدير أيضا قد أهلكه السكر، فمن هو ياترى مورد خدودها، باعث ومنشط دورتها الدموية، هذا الذى يجعل دماءها حارة ، متوهجة هكذا دائما ، أم أن رغبة المرأة فى السلطة ونجاحها فى ممارستها فى بيتها وفى العمل، وإحساسها بالنجاح الدائم من مكان إلى آخرهو الذى أوصلها إلى هذا الرضاء الذى تنعم به .

أصدر لها المدير قرارا خاصا بالعمل دواما إضافيا كل يوم، لم تخذل أحدا ، فاستطاعت أن تحل مشاكل المرضى والممرضات والأطباء، وكل من يلجأ إليها طالبا

معونتها متوسما فيها المروءة والمعروف، وكان مما أقلقها فى الآونة الأخيرة تعيين دفعة من الممرضات الوطنيات الجديدات، هؤلاء اللاتى فى حاجة إلى الجرأة حتى يقتحمن الحياة، ويتحملن الآلام والمشاكل، ولم تكن تعرف حتى هذه اللحظة ماهو الشكل الذى سيبدين عليه لحظة مزاولة عملهن، وهل لديهن الطاقة والمعرفة لتقديم الحلول لمشاكل المرضى .

* * * * *

عدل عمرو كاسرة الشمس التى بجواره، لم يستطع تفادى لهيبها وجحيمها، تسطع رغم البرودة القارسة لاهبة وحارقة من كل الجهات الأربع، ثم رأسيا ، هابة من أسفل أيضا، لم يستطع تحمل لهيب فخذها، اعتدل ، لمحته من نظرة جانبية، بريقها يحرق، وبشقاوة المرأة اللعوب طاردته بفخذها، التصقت به أكثر، لم يتحرك، شعر بلذة، استسلم ناظرا إلى المستقبل، وحتى لا يلاحظ المدير فيفرق شملهما قبل أن يجتمعا، لم تأبه لأيهما، بدا الصمت مخيما عندما ركنت السيارة بجوار السيارات التى تراصت .

ترجلوا جميعا فيما عدا السائق، وجدوا الدكتور أسامة اليمنى مدججا برجاله، مدير الشئون المالية، والإدارية والصيانة ورئيسة ممرضات المستشفى والمقاول والمهندس السودانى حامد بشير، الذى قابل رئيسة الممرضات مقابلة حارة وخاصة، لم تكن تعرف أن الشركة التى يعمل بها قد رسا عليها بناء سكن الممرضات وترميم المستشفى .

قرأوا الفاتحة، وقعوا على المحضر، بدا المقاول أكثر جدية من مقاول المستشفى الرئيسى، لم يجد عمرو " أبا الخير " عرف أنه سافر صباح اليوم لإحدى رحلاته .

* * * * *

منذ مدة يتخذ القرارات الخاصة بالمكتب دون الرجوع إلى عمرو، لم يتعرض المكتب حتى الآن لأية اهتزازات أو اختبارات قاسية، أولأية مشاكل تتطلب تدخل الشيخ، تسير كل الأمور كما رسمها، لم يفهم لماذا تدخله المستمر فى اختيار الأعمال، فتصميم فيلا لمدير الشئون ، وإصرار زوجته على حقها فى المناقشة بقوة يجعله يجفل ويتريث

ويتـــأنى، ووجود اسمه فى محضر تسليم المستشفى يتنافى مع تشكيل اللجنة، أمـــا عمرو بصفته استشارى المشروع والمشرف عليه فلم يجد غضاضة فى سفره أو عـــدم وجوده .

الجميع يعرفون عدا عمرو، يراجع نفسه ، يتأنى كثيرا ، لم يقل لــــه ، لــم يقـل للطيفة، لم يكن تسلم المستشفى لإجــراء الترميمــات ســهلا مثــل موقــع سكـــن الممرضات، المستشفى مشــــغول ومزدحم بالمرضى، حاولوا إيجاد الكثير من الحلــول حتى يبدأ المقاول فى العمل، كان الحل الأمثل ترميم عنبر إثر آخر ترميما كاملا، قابلتهم مشكلة العثور على أماكن لكل الأعداد الموجودة فى عنبر واحد ، به نوع معيــن مــن المرضى، كما أن هــــناك عنابر خاصة للنساء ونوعيات أمراضهن كيف إذن الوصــول إلى الحل الأمثل ؟

عندما اقتربوا من أحد العنابر هبت عليهم رائحة زنخة، أقعى على أثرهـــا، فيمـــا كانت لطيفة تضع برفانا على أنفها، واضعة منه على يد كلكتاوى، ينظر إليـــها أســامة اليمنى بغضب، يختزن من المهانات مالا يقدر على تحمله، البناء دور واحد ، أقســـامه منفصلة عن بعضها البعض بمساحات كبيرة، يوحى الهدوء المخيم مـــع تمـايل شـــجر الكافور والجازورينا بالحذر والخوف، الأشجار متراصة، هاماتها متقاربة، تحجب أشـعة الشمس التى تلمع من بين ثنايا أوراقها، أرض المستشــفى مليئـــة بـــالأوراق الجافـــة والخضراء، عين لها المدير عمالة خاصة .

اتخذ المستشفى ذو المساحة الشاسعة نفس تصميم النفسية بالعباسية، حســـب رغبة هذا المدير الذى لم يتغير منذ تعيينه حين أنشأها، على واجهات العنابر طرطشـــة أسمنتية محببة، صلدة وكبيرة، بلون الأسمنت الرمادى الغامق، قديمة، مبقعة، ســـاقطة فى بعض الأماكن، ترتفع العنابر درجة سلم واحدة عن الرصيف الذى يحيـــط بـــالعنبر، عرضه متر واحد، ذو بلاط قديم مشدوخ ومكسر، منتزع فى بعض الأماكن.

اختاروا سكن الممرضات فى هذا المكان البعيد، حيث لاتستطيع الممرضة أن تـنزل ثانية بعد انتهاء دوامها، وهو يسلم الموقع للمقاول يتمنى ألا يكون للطيفة زوج فى هذه البلاد حتى يضعها فى هذا السكن، وسيعرف فى الوقت المناسب كيف يجعل مـن مديـر الشئون هذا إنسانا يقدر مسئولية وظيفته .

* * * * *

كانت قد تعددت شكاوى نساء المدينة من الممرضات خاصة المصريات، يسكن فـى فيلات أو مساكن خاصة، استأجرتها لهن الشئون، المنازل متفرقــة، التكلفــة باهظــة، إدارات متعددة، ومديرة لكل منزل، هذه القوة التدميرية المجتمعة فى أمــاكن متفرقـة أشعلت الفوضى فى الرجال، أضرمت النار فى النساء، فأرسلن البرقيات والخطابات فـى الممرضات والإدارة، وضح أن لهؤلاء المسئولين مصلحة حقيقية .

تحاصر مدير المستشفى رائحتان، تمنى أن تعطيه لطيفة قليلا من البرفان، تعـرف ما يكنه لها، لم تأبه له، لم تحقق رغبته التى استشفتها بذكائها، وعندما وجدها مشغولة كما تخيل طلب منها قليلا من العطر، أعطته بكل ود ورضا .

عنبر المعوقين مثل عنبر الخطرين، مرضى الجذام، وأعدادهم بالذات كثيرة، مساحة واسعة، مستطيلة، باب العنبر فى أحد الأركان، يفتح مباشرة على المرضى، يذهبون إلى دورات مياههم من داخل العنبر نفسه، الأسرة سوداء قديمة متراصة بجـوار بعضـها، المرضى ينزلون من مؤخرة السرير، تركن مقدمته على الحـائط، الشـبابيك حديديـة مرتفعة، مستطيلة الشكل بطول الحائط، ارتفاعها قصير، تفتح بواسطة ماكينة يدويـة، لا تسمح بهروب أحد، لا يدخل ممرض واحد أو اثنان أو ثلاثة، يدخلون جماعة، يقتحمـون المكان من الباب الركنى، وجماعة أخرى من الباب المجاور لدورة المياه الخاصة بالعنبر فى توقيت واحد، ملوحين بالأحزمة والجنازير، يجرجرون خلفهم عربات مليئـة بـالإبر والأدوية المنومة من حبوب وحقن، الحوائط محفورة فى أماكن، مرسوم عليها رسـوم وشخبطة فى أماكن أخرى، رأى رسما لعبد الناصر على أحد الحوائط، مكتوبا بجـواره

بطل العروبة، كان هناك مريض مقعي فى أحد الأركان، عندما شاهد هجمة الممرضين عليه انتفـــض واقفا، واضعا يده على رأسه، باكيا ، مكررا أسفه حالفا بالله أنـــه لـــن يكرر هذا .

يرتدى المرضى ملابس دمورية فى هذا البرد القارس، الرائحة لا تطاق، الأرضيـــات بها نشع وعفونـة، ملابسهم متسخة، فرش الأسرة بالغ القـــذارة، دورات الميـــاه تفـــح برائحة زنخ ونتانة وصنان، مسدودة تجرى مياهها داخل العنبر، يغوط المرضى حفاة .

كان هذا عنبر المرضى العاديين الذين قطعوا شوطا طويلا فـــى العـــلاج يؤهلـــهم للخروج، مرق فأر بين قدميه، قفز كلكتاوى ناظرا إلى فأر آخر، مستنجدا بلطيفـــة، ثـــم جاءت موجات فئرانية إثر أخرى، تتبعها موجات من الكلاب والقطـــط، متداخلـــة فـــى بعضها، أصبحت كائنات متآلفة، بدا أمرا عاديا لا غرابة فيه .

كان قد انتاب المرضى خوف جماعى، فهربوا من عنابرهم حتى يتم التوصل إلـــى حل عاجل، حيث اشتكوا من حالات افتراس تعرضوا لها، نهشت أجزاء مـــن رؤوســـهم وأجســـادهم، جرتها من أرجلها ناشـــبة مخـــالبها وأسنانها، إلى أن تصاعد العفن منها، يرفضون تســـلم جثث موتاهم خوفا من العدوى، حفروا الآبار ودفنوا بقاياها فى سرية تامة.

فيما بعد تآلفوا تآلفا كبيرا بعد أن أصبح تحركها فى وضح النـــهار أمـــرا عاديـــا، وجودها ناتج عن الاختيار العشوائى لأمكنة المحافظة على الصحة، حيث اختاروا المكان بالقرب من قنوات المجارى المكشوفة، وسوق الخضار، أصدر أسامة اليمنى قرارا بحظر تجول القطط والفئران .

كانت نسبة عالية من المستشفى مشغولة بالمريضات، يعانين من حـــالات الملـــل والاكتئاب النفسى والصداع، وفقدان الثقة، والعلاقات الجنسية غير المرضية، والملابس السوداء، ترتب على ذلك انتشار أمراض التوتر العصبى، وشدة حاجاتهن إلى الأخصائى الاجتماعى والطبيب النفسى.

الصرع هو سمة أغلب المريضات، لأنهم شاهدوا حالات اضطراب متكـــررة إثــر النشاط الكهربائى للدماغ يظهر فى مجموعة من الأعراض، كن غائبات الشعور، هائجات الجهاز العصبى المستقبل، يقمن بحركات عنيفة، مضطربات، عذبته صرخات الـــــهذيان التى يطلقنها، ينتابهن الخوف والبكاء والانزواء .

شاهدوا نساء عاريات، يبحثن فى رؤوسهن عن القمـــل والصئبـــان ومخلوقـــات أخرى غامضة، يعشش الذباب فى أفواههن، وفى طعامهن وشرابهن، يلهو فى الأعيـــن، ويغنى فى الأفواه، كأنه صديق حميم، جالسات بجوار كمية ضخمة من القمامة .

قرأوا فى أحد الأركان " للمجانين فقط " ، كتبه أحدهم، شاهدوا البعض يلعب بطبل من صفيح، ينفخون الخبز حتى يأكلوا طعاما طازجا، البعض يغمي عينيه ، يلعـــب دور الأعمى أو دور المهرج ، أو يصطفق ساعديه محلقا لاعبا دور عباس ابن فرناس .

وكانت هناك مجموعة من الرجال تشابهت وجوههم كأنهم أسود، عـــرف أن داء الأسد قد انتشر فى أحد العنابر .

أشكال مختلفة ، وأمراض متنوعة من الفقد الكلى والجزئـــــى لحاســتى الســمع والبصر، والبتر الجراحى لبعض الأجزاء الطرفية كالقدمين واليدين، تعرضـــن لحـــالات اغتصاب وحمل، استولوا على الملابس والهدايا والعلاج الخاص بالمرضى .

ضمن هذه العنابر أجنحة خاصة للشيوخ المجانين الذين انتابهم المرض إثر تسـمم بعضهم على فترات متفاوتة بأنواع مختلفة من السموم، أصابتهم فى الظهر، والعظـــام، انتابتهم افرازات دمعية، وأعراض انسحابية، وافرازات لعابية، وسموم خاصة بالأعصاب الحساسة التى أدت إلى تدمير كل أطراف جسد المريض .

ثم سمعوا أثناء مرورهم انفجارات رعدية لصوت جاء بالقرب منهم، كـــان لأحـــد السيافين المسجونين فى زنزانات خاصة بهم .

تضم المستشفى ستين مبنى متهالكا ومظلما، تخيم عليها برودة بركانيـــة، تبـــدو بلونها الأصفر الباهت مستودعا للكآبة، اقتربوا من عنبر مرضى الجذام الذى كان فـــى

نهاية المستشفى، بدا المكان قذرا تجتاحهم رائحة نتنة محت كل أثر للروائح السابقة، وبدا العنبر كمقابر جماعية، محاطا بالأسلاك الشائكة، تحت حراسة مشددة، الذباب يفور في جراحهم وأجسادهم ووجوههم، بدا عالما مليئا بالفظاعة والألم والبؤس .

كانوا وجها لوجه، وعلى مسافة لا تبلغ عدة أمتار. المرضى منتشرون، أدرك بعد لحظة واحدة أن هناك نقصا ما فى وجوههم، بعض الأطراف مقطوعة، وجوه مخربة تخريبا رهيبا ، وجوه جاثمة من غراء وشمع تتأمل القادمين بعيون بلا أجفان، وكان قد قرأ : عليك الفرار من المجذوم كما تفر عند مشاهدة الأسد.

بقايا أجسام بشرية تلتصق بالحوائط، يفترسون اللجنة بعيون فضولية، تلمع وتنطفىء، وكان سوء أحوال الطعام ، وقلة البطاطين، وتوقف صرف الملابس والصابون منذ خمس سنوات هى شكوى المرضى الجماعية .

وعندما دخلت اللجنة مبنى المطبخ أقعوا جماعة، شاهدوا الصدأ يعلو أدوات المطبخ، وشاهدوا تسرب أجولة الأرز والسمن أثناء ذهابهم إلى مبنى الإدارة، كان الألم يعتصر الجميع، فيما كان عمرو يقول لنفسه " طالما أن العالم لم يتغير فإن على الإنسان الحر إما أن يدخل مستشفى المجانين أو أن يهلك، لأنه إذا أصر على إثبات قيمه المطلقة فإنه يتجاوز الحدود الشرعية لحزنه ".

شاهدوا مبنى الإدارة من بعيد، وجمعا من الممرضات العرايا يتشمسن، يلتصقن بالحوائط، يحككن أجسادهن بقسوة، عاجزات عن اتقاء آلاف الفظاعات المنتشرة فى الهواء، يشتكين من الهوام والدويبات الشنيعة التى تدب وتتسلق فى كل مكان، وكان الجرب داء فتاكا أيضا، لا يقل قسوة عن الجنون، كان لحمهم جروحا متقيحة، يتألمن ويضحكن، وكن دنيا مليئة بالاحداث الغريبة والأحلام المتناقضة والخيال المستحيل، اللامعقول والعجيب والخارق، دنيا لا حدود لها من الأوهام والسحر والسباحة فى الرمال والجبال، قفزات عقلية لا يوقفها شىء، لا يبذلن أى جهد، يقهرن الأحداث باللامبالاة،

يتغلبن على الجنون برؤى جماعية، تتطور النزوات وتتغير حسب المواقف المختلفة وردود أفعال مدير مستشفاهم .

* * * * *

وكان قد لاحظ أن مدير المستشفى ينظر له نظرة غريبة، لم يعرف أو يحدد ماذا يريد، ما هو مقصده، كثرة أسئلته عن " أبا الخير " كانت مجال شكوك عديدة خاصة من مدير الشئون، لم يصمت ، سأله : ايش تبغى منه يا أسامة ؟ بدا أن هناك شبه اتفاق ضمنى ثابت على حرية الحركة، وحرية التصرف لكل مسئول على حدة، رغم أن أسامة اليمنى قد جاءته الأخبار كاملة عن فيلا مدير الشئون، إلا أنه لم يبلغ أحدا، كما فعل إثر شكوى طاهر سليم المصطنعة .

هرب " أبا الخير" من المحاولات المتكررة والإلحاح، أراده أن يتدخل لدى المقاول لأخذ أحد العمليتين من الباطن لشركة ابنه التى لا تجد أعمالا ، لم يكن يريد بندا أو بعض البنود، لكنه يرغب فى عملية كاملة، كان هذا خارج النطاق المسموح، يعرف عن أسامة وابنه وشركته كل شيء ، كل الأعمال التى أسندت إليه، والتى تعثر فيها، لم يكن موضع ثقة، كما أنه ليست لديه القدرة على إنجاز مثل هذه الأعمال الضخمة، ولن يتردد المقاول فى إبلاغ أولى الأمر .

لم يكونوا فى حاجة لاختلاق الأعذار أو افتعالها حين حاولوا تعطيل تسلم الموقع، هاهى الأعذار متراكمة ، فيما هم يتناقشون ويتجاذبون الأحاديث عن كيفية الوصول إلى الحل الأمثل الذى يراعى راحة المرضى أثناء العمل .

تحتاج العنابر إلى النسف وليس الترميم، وأن المقاول حسب ما قرأ شروط العقد يستحق العطف والرثاء ، يتكلم أسامة من موقع قوة، يستطيع لى ذراع المقاول وعنقه أيضا، لا يعرفان طلبات أسامة، وماذا يريد بالضبط ؟ وما سبب هذه المماحكات والتعطيل، لماذا يلف ويدور والعقد بين أيديهم.

اقتـــرح السودانى البدء بالإدارة، وهى ضمن المدة الزمنية، استحسنوا الفكرة ، لم تلق قبولا ، قال له بخنافة يمنية : ترميمات الإدارة حسب البرنامج الزمنى فى نهايـة العملية .

العقد مرن مرونة الراحة الأبدية ، وكان عمرو مشغولا أيضا بإيجاد الحل الأمثل .

يتناقـــش مع لطيفة فيما سأله عمرو عما اذا كانت هناك ميزانية اضافية داخلية ، سأله باهتمام لم ؟ اقترح عمرو بناء عنبر من المبانى الجاهزة، حيث تكلفته قليلـة، ينقل فيه مرضـى أحد العنابر حتى يتم ترميمه، انتبه كلكتاوى قائلا : يرحم أبوك، مـا خطرت فى ذهنى هذه الفكرة، قال عمرو : يستطيع المقاول الاشتراك مع الشـئون فـى تحمل التكلفة .

بعد أن ترجل من سيارته بجلال وزير اجتمع أسامة مـع مسـاعديه فـى الـدوام المسائى للعثور على أسباب مقنعة لإحباط تنفيذ هذه الفكرة حيث لن يستطيع أن يتحمـل مسئولية مرضى يعيشون فى مبان جاهزة، ظهرت وجهة نظر مدير صيانة المستشـفى معقولة، أوضح أن هذا النوع من المبانى قابل للاحتراق، قابل أيضا للتقويض إذا ما دق مريض رأسه فى إحدى حوائطه، علق مدير المستشـفى موجـها كلامـه للاستشـارى وللسودانى متغاضيا بتعمد مدير الشئون : أنتما لاتدريان المسئولية الجنائية التى سـتقع على عاتقنا إذا وقع حادث لا قدر الله، أهل المرضى لا يصمتون، يكتبون شكاوى بسـبب وبدون سبب، فكيف إذن لو حدث مثل هذا الحريق، أو أى حادث آخر ؟

كان يتحدث متخيلا الحريق وقد طال مرضى العنبر جميعهم، حيث لكل واحد منـهم قبيلة كبيرة، متخيلا فظاظتهم وجلافتهم .

باءت بالفشل ووئدت قبل ولادتها فكرة الاستعانة ببنـاء عنـبر جديـد، المقـاول ومهندسه فى حيرة من أمرهما، يستشيط مدير الشئون غضبا، يحـترق الملـح علـى خاشمه، فيما بدا عمرو مستنجدا بانكماشه من البرد جاريا إلى سيارته الجديدة، النـيران أمام بهو المستشفى ترسل دفئا جاذبا، يقتربون منها دون أن يشعروا، النـار تتوسـط

أشجار الجازورينا التى بدت فى الظلام كغابة، تطقطق وتشتعل، يتحلقها مجموعة من النساء المرضى العاريات تماما، ملتصقات بعضهن بالبعض حتى التوحد، يكدن يكن جسدا واحدا، يقتربن من النيران التى تقترب منهن كلما ازداد لهيبها ووهجها.

وكان ميعاد الدوام المسائى على وشك الانتهاء، فيما كان أسامة يسترخى فرحا بانتصاره بين مجموعة مديريه، راميا المدير بألفاظ بذيئة، مستطردا : لم يبق إلا الهنود ليضحكوا علينا، رفع سماعة التليفون متصلا بمسئول كبير، شارحا له الوضع، ثم واصل: إنه لا يدرى حتى هذه اللحظة لماذا يتحمس مدير الشئون لكل المقاولين، يريد اجبارنا على وضع المرضى فى عنابر من المبانى الجاهزة، ونحن طال عمرك لانقدر على تحمل هذه المسئولية .

تلك اللحظة عينها يحاول كلكتاوى الاتصال بالمسئول عينه، وجد تليفونه مشغولا لوقت طويل، وعندما رد عليه قال : طال عمرك ، مرضى النفسية خارج العنابر الآن، عراة تماما، يشعلون النيران ويتحلقون حولها، وأسامة يرفض نقل المرضى إلى عنبر جديد، ويثير كثيرا من المشاكل لتعطيل العمل، ثم واصل : لا أدرى ايش هو يبغى من المقاول الذى أبدى رغبة حقيقية فى تسلم الموقع، وأنه إذ لم يتسلم الموقع فورا وبناء على برقية معاليكم سيخطرنا باكر بتخليه عن هذه العملية برمتها، حسب العقد وتعنت أسامة .

واصل الحديث، يفتح أبوابا للكلام حتى يبين عن أفكار ليست فى مخيلته فيقتنصها وينسبها إلى نفسه بوصفه مديرا متجددا لا ينضب معين فكره ، حذر المسئول مدير المستشفى من النيران المشتعلة أمام بهو المستشفى، وحذره من الإهمال الفادح وعدم الاهتمام بالمريضات العاريات اللاتى يتحلقن حول النار، وعليه أن ينتبه لما يحدث فى مستشفاه .

وحتى هذه اللحظة لم يبلغ أحد المدير بتلك النيران، حيث يجتمع الآن مع كلاب حراسته، يبلغونه بعدد حبات الأرز التى تخص كل مريض، وبعدد حبات الأرز التى أكلها

الطباخون، والتى سرقوها ، ناهيك عن أجولة الأرز واللحم والسمن والخضراوات التى تخرج بعلم مدير المستشفى دون أن ينتبهوا أنه ضالع فيها ، وما هو أكثر أهمية وأخطر، حقن التخدير، وحبوب المهدئات الكثيرة والمتنوعة والتى لا يقام صلب وبنيان مستشفى الامراض النفسية إلا على أساسها .

هب المدير واقفا: كيف يحدث هذا فى مستشفاه دون أنا يدرى؟ من الذى أبلغ المسئول به بعد أن تأكد أنه صحيح؟ استبعد الذين يعملون معه، لم يبق إلا الهندى الذى أخذ قسطا وافرا من اللعنات والحركات البذيئة، توعده بمصيبة كبرى تليق به، بدا حجر عثرة فى طريق حلم إقامة امبراطورية المقاولات الكبرى باسم ابنه البكر، الذى فشل فشلا ذريعا فى التعليم، سواء داخل البلاد أو خارجها، ها هو ذا واقف له كاتما على أنفاسه، يسبب له كثيرا من الحرج مع معارفه، لم يستطع منعه من دخول المستشفى، هلك تفكيرا فى إرساء حجر أساس لمستقبل مضمون، فلم يجد إلا المقاولات ، مهنة من لا مهنة له فى هذه البلاد ، حيث ناسبت ابنه كثيرا، سيمارس من خلالها الإدارة دون جهد يذكر، بلا تعليم أو شهادات .

وكانت له تجربة مع الشيخ " أبا الخير " جد مثيرة، أثرت فى الشيخ تأثيرا بالغا، مما جعله يجفل من أى معاملة كانت مع أسامة أو ابنه ، خاصة المقاولات، الشيخ لا يريد أن يتذكرها، وأسامة يلح عليه بالتوسط لدى المقاول، لذا كان سفره سابقة لم يتعودها الشيخ فى نفسه ، ولم يتعودها أحد منه .

* * * * *

فى ذلك الوقت الذى كانت تجرى فيه المكالمات التليفونية، أوقفت الأجهزة الشرطية اللاسلكية عمرو فيما كان يقود سيارته حسب تعليمات الأمن والسلامة، ساقوه مكبلا إلى قسم الشرطة ، راكبا بجواره أحد العساكر البدو، لم يفهم من كلامه شيئا، حدث ذلك فور أن خرج من المستشفى الكئيب المنبت، المنقطع عن المكان والعمار، ينأى موقعه عن أية أحياء مسافات طويلة من الظلام، أحس عمرو بانضغاط مثانته،

أوقف السيارة بعد أن ركنها بجوار الطريق، فاتحا بنطلونه، حاسا براحة شديدة أثنـــاء بوله، الظلام دامس فيما كانت بعض السيارات تمرق بجواره ، أطلقت إحداها سارينة مع فرملة مزعجة مسحت جزءا كبيرا من الكاوتش، نزل منها إثنان فى الوقت الـــذى هـم عـــمرو فيه بركوب سيارته ، انقضا عليه ، سأله أحدهما : ما الذى يجعلك تقف فـــى هذا المـــكان؟ أين الإقامة ؟ هل مـــعك تصريح بالخروج ليلا والتـــــــجول بعـد صلاة العشاء ؟ أسئلة متقاطعـــة كثيرة وغير مفهومة، عندما يحاول الإجابة يـــهاجم بأسئلة أخرى، ركب أحدهما معه ، انطلقت السيارة الأمريكى مفسحة الطريق بســـارينة استنجاد إلى أقرب قسم شرطة.

أخذا مفتاح السيارة بعد أن ركنها، ثم الاقامة الخاصة، رخص القيادة والملكية وأى شىء يخصه، تركاه ودخلا، اندفع خلفهما، فيما كل واحد يتفرق إلى مكان أمسك واحـد منهما، التفت إليه مذهولا : ايش بك مجنون إياك، أراد الحديث فلم يقدر لأنه لـم يجـد أحدا يصغى إليه، اندفع إلى الضابط النوبتجى، ألقى عليه السلام، عرفه بنفســه، دعــاه للجلوس، نادى على أحد العساكر، عندما فتح محضرا بناء على إصرار العسكرى الـذى قال : المصرى يمشى فى بلادنا بالليل بدون تصريح، يأتى بأفعال تخدش الحياء العـــام، قال عمرو إنه خارج من اجتماع استمر طويلا، وأن الطريق والمنطقة بالكامل خاليـــة، والظلام كثيف، فكيف لى وأنا أتبول فى هذا الظلام وهذا الخلاء أخدش الحياء العام .

أصر العسكرى على عمل محضر، لم يجد الضابط بدا من ذلك، معنى هذا أن يوقفوه فى القسم إلى الصباح، استسمح الضابط، حاول الاتصال بالشيخ " أبا الخير " ، رد عليه بجفوة مؤيدا كلام العسكرى قائلا : كيف يسمح متعلم مثلك لنفسه بفعل مثل هذا، واصل: تفعلون هذا فى بلادكم، فلا تنقلوا هذه العادات إلى بلادنا، ثم أغلق التليفون .

أبدى الضابط أسفه، فالتعليمات الأمنية مقدسة وواضحة، وأنت تعرف ذلك، كـــان يتكلم فيما يفتح ملف عمرو الأمنى، أحضروه له، عرف من خلاله أن له سابقة سفر إلى البلاد، قال : لا عذر لك، وما دمت فى اجتماع فكان الأحرى بك أن تأخذ تصريحــا مــن

كفيلك، أو الجهة التى تجتمع عندها، استسمحه مرة أخرى فى الاتصال ، وجد تليفون الدكتور كلكتاوى مشغولا، فور أن رن الجرس سمع صوتها على الطرف الآخر غاضبة، تؤنبه على تأخره عن الميعاد، قال عمرو إنه يتحدث من قسم الشرطة، ويريد تصريحا أمنيا، بادرته : ما المصيبة التى سويتها ؟ ثم مواصلة بغضب : أعطنى مدير الشرطة نفسه ، أعطى السماعة للضابط، انتفض واقفا، رجاها دقيقة واحدة، لم يتردد فى إطلاق سراح عمرو، قال له : مالنا وهذه المره، أطلقه وأبلغها، ثم وهو يأخذ أوراقه نبهه بالذهاب فورا إليها، اضطر للمرور على المكتب لأخذ صورة من الرسوم الموقعة من البلدية، وصورة من الرخصة، ولم يبق إلا البدء فى العمل .

* * * * *

كانت لطيفة قد سلطت بعض الأضواء على الانحرافات المزاجية الدائمة لزوجة مدير الشئون خاصة فى الأوقات الصعبة ، التى تتطلب شفافية الرؤية، بدا هذا مفهوما حيث تنتاب النساء عادة مثل هذه الحالات من وقت لآخر دون سابق إنذار، تعرف لطيفة بتطور العلاقات بينهما أولا بأول، والتى تزداد تدهورا باستمرار، لا تطيق محاولاته العديدة والفاشلة لممارسة الحب، لم يكن هناك شىء يستطيع أن يفعله لإثبات رجولته الدائمة، تحبط آماله قائلة : بلا جدوى .. بلا جدوى .. بلاش إهانة أكثر من كده، لا تساعده بل تؤكد وترسخ عجزه، حيث تستسلم له بلا أى مقاومة استسلاما كاملا، قائلة .. هيا .. هيا .. لما نشوف، ثم تطارده بعد ذلك فى عمله، وفى المستشفيات، وفى أماكن اجتماعاته ، وعلى مدى شهور وأيام ومحاولاته لا تيأس، يفقد باستمرار قليلا من وزنه، أحس فى بعض الأوقات أن طوله يقصر، وأنه يرفع، وأن ملابسه اتسعت بشكل واضح، اضطر إلى تجهيز ملابس جديدة، مقاوما عنادها بعناد من نوع جديد، مستنهضا مقاومته وهمته وإصراره على تجاوز عقباتها واحدة إثر الأخرى، لم ينس أن يقول لنفسه مع هذا المرض يبدو الرجل صغير السن بالنسبة لرغباته، كبيرالسن بالنسبة لتحقيقها .

عندما وصل إلى حد أن ضاق صبره بنفسه، حيث لم يبق له إلا الاعتراف كما طلبت منه، التقطته لطيفة وهو فى أحلك أوقات يأسه، أشعلت أحلامه، أشعل لديها الرغبة فى تحقيق طموحاتها، زودته بشحنات من ثقة نفس متأنية، وجرعات مدروسة حتى لا ينقلب إلى عكس ما تود، تناقشت معه بصفته طبيبا عن أهمية معالجة السكر أولا، وأن هذا طبيعى، حيث إن المريض لا يقدر على مزاولة حياته الطبيعية كما قالت له وأفهمته، فترسب فى عقله الباطن كلامها المستند إلى الصدق، وإلى خبرة سماعية، وأن الأيام القادمة كفيلة بمعالجة الباقى.

وكان يأنس إليها ويرتاح فيحكى لها بالتفصيل كل ما مر به فى يومه وليله، بما فيه أدق الأسرار، شاكيا همه وتباريح الجوى التى تنتابه أحيانا، تستمع له براحة بال طويلة، ترشده وتعلمه، إلى أن أصبحت بالنسبة له إحدى مسئوليات إدارته وجزءا لا يتجزأ من تحركاته وهمومه، ومستشارة الأمن العاطفى الأولى والأخيرة، وقد أصبح بالنسبة لها ضمن برنامج عملها اليومى، معتمدة عليه جزئيا، غير ناسية نفسها ومسئولياتها .

من خلالها ازدادت معرفته بممرضات الشئون، حيث كانت له اليد الطولى فى اختيارهن، ضمن لجنة التعاقدات التى تذهب إلى القاهرة أولا، ثم مدن أخرى معروفة فى العالم يصدرن ممرضاتها.

وكان لايستطيع الاقتراب أو العدوانية من أى منهن، خوفا من عجزه، ولوك سيرته فانتظر إلى أن يتم علاجه ورجوع ثقته إلى نفسه ، حيث دأبت لطيفة على الأخذ بيده، تشد من أزره، إلى أن حدث ذات يوم وأثناء اللحظات الأخيرة من نومه قبل قيامه صباحا أن أحس أن ثمة رغبة تحاول لم شتات نفسها معبرة عن نفسها، شهق شهقة كادت تودى بحياته، نط من السرير إليها فى غرفتها، استقبلته كعادتها بلا اكتراث أو مبالاة، هجم عليها منبهها إلى انتصابه، كانت المدة المفترضه للانتصاب فى

مثل هذه الحالات قد انتهت فخذله، صار أكثر من أى وقت مضى فى حاجة إلى المحافظة وتطوير مبادىء الأمل والحنان حتى يستمتع بجمالها التركى العذب .

قالت لطيفة بشرة خير، مواصلة : علينا بالصبر والمثابرة، وهم يوزعون دفعة ممرضات مصريات جديدة على المستشفيات قدمتها له صغيرة وأنيقة وهادئة، رائعة الجمال حقا، نظرت إليه لطيفة مبتسمة مشجعة إياه، انسحبت البنت بثقة، بلا غضب، لم يتردد فى طلبها للزواج ، لعبت لطيفة دورا كبيرا ومؤثرا حتى وافقت نورا على ذلك، استأجر لها فيلا وعقد قرانها سرا، لم يعلم بذلك إلا لطيفة، قال لها لو علمت التركية لن تخرجى من البلاد أنت وزوجك، حتى لوحصل على الجنسية، كان يهددها تهديدا حقيقيا .

نورا تعرف جيدا مسئولياتها الزوجية، قالت لها لطيفة : ابعثى الثقة فى نفسه، ولم تفهم إلا بعد محاولات عدة فاشلة، وغير مكتملة، عشش الشك فى عقلها، فقررت إبعاد لطيفة من حياتها، إلى أن جاء فى أحد الأيام متهللا، ينفض ريشه وعرفه كالديك الرومى، متوردا ومنتصرا، قال لها : والله المصرية سرها باتع، تحملت وما قصرت، الحين كلما رأيتها رغبتها ، قالت لطيفة بدلع : كيف يادكتور سرها باتع ؟ قال : كلما رآها ينتفض، يقف الآن على رائحتها، وأنا الحين عرفت ليش زوجك مثل الخاتم فى إصبعك، والله اللى ما يتزوج ممرضة لم يتزوج، تضحك لطيفة بغنج حقيقى.

المشكلة كما قال فى التركية التى لا تهدأ ولا تهمد، ما أدرى ايش أسوى معاها، وضع فى ذهنه ضمن مخطط استمرار زواجه عدم معرفة التركية، فرضخ لكل مطالب نورا وكتب لها كل ما أرادت، استقدم عائلتها خاصة عندما أحست بالجنين يتحرك فى أحشائها، دائم التنقل من مكان إلى آخر حاملا معه ذكريات لذة جمالية وروحية، حيث أيقظت فيه شهوة واقعية وفورية، عبرهذه العشرة اللذيذة والجميلة والدائمة تعرفا على بعضهما جيدا، حددت فيه بفطرة وتلقائية أكثر النقاط إحساسا، تقول له ما هو بحاجة إلى سماعه بالضبط، عرف منها أن العادة تحبط التجديد فى الحياة الزوجية، فتصبح الحياة بلا مفاجآت أو لذة تشعل الخيال وتنشط الأعضاء، حيث يهرب الرجال ناشدين

اللذة عند أخريات لهن خبرة وفهم، فينشطن أعضاءهم كى يستردوا شرارة الشهوة، ثم تواصل : وأنت ياكلكتاوى طبيعى، ليس هناك نقص فيك، إنما العيب لديها، وقد بات مقتنعا أن نورا هى الوحيدة التى أشعلت فيه شرارة الرغبة، فانتصب كسابق أيامه ناشدا ممارسة الحب معها فقط، لم يكن يغريه البحث عن أنثى أخرى ، ولم يحاول إعادة الكرة مع التركية، رغم ما يحضه عقله على اغتصابها حتى يكسر أنفها، يقول للطيفة : هى الوحيدة التى جعلتنى أنتصب بعد المرض، وأنت عارفة فتضحك، وجدته لابسا جلبابا ذات يوم، وعندما سألته عن السبب قال : سوستة البنطلون شبكت فى رأس "عضوي" وجرحتها ولم تتركها ، يمشى مباعدا ما بين ساقيه .

* * * * *

عندما وصل عمرو إلى المنزل محملا بالخرائط سألته عن كلكتاوى فقال إنه خرج من الاجتماع، أجرت اتصالات عديدة، وفى أماكن متفرقة، ولم تجده فى أى منها، فلعنته هذا الهندى الذى ما يستحى، يعرف أن رجال قادم إلى منزله فيترك البيت، هذا ما عنده نخوة، عندما يأتى سيعرف شغله جيدا، تأففت، ثم صمتت، ثم قالت بعد تفكير كل ليلة والأخرى يغطس وما يأتى إلا آخر الليل، أين يذهب هذا الرخو، ما أعرف شيئا عنه، يقول اجتماعات ومشاكل ومبان وترميمات، لعنة الله عليه وعلى بلاده، طير الفكرة التى براسى، تفتح الرسوم مبهورة تتخيلها بمقياس رسم أكبر، أو متخيلة إياها قائمة، بعد أن اتضحت معالمها عرفت أن الخطوط المتشابكة فى فكرتها قد أضحت مجسدة أمامها، واضحة وصريحة، لم يبق إلا التنفيذ ، لم تتخيل كل هذه الكمية من الخرائط، ايش معمارى وانشائى وصحى وكهربائى ، موقع عام ومناظير، ايش كل هذا، ثم سألته : هل تسوى لكل تصميم كل هذه الرسوم ؟ أومأ دون أن يفهم ما تقصده، فيما هو يعيد ترتيب خرائطه استعدادا للانصراف، تذكرت أن هذا مجهود طيب ويستأهل الشكر، أما ملاحظاتها وما كانت تود قوله بدا باهتا وضعيفا أمام هذا الابداع .

(٩)

شنت الصحف الوطـــــنية فى ذلك الوقت هجوما حادا على الرئيس، وعلى كامب ديفيد، اكتسحت فى طريقـــــها كل ماهو جميل فى حياة المصريين، تقرأ سناء وتتـــــألم إلى حد التقزز والمرض، تتصل بعمرو وتقول هل قرأت هذه الجرائد؟ هل تستأهل مصـــر كل هذا الهجوم ؟ كانت الصحف تنتقد ساخطة، تقدم الإقناع التام بصحة مواقفهم، وخطأ موقف السادات ، تحض على كرهه ، أبدوا آراء قاسية ، وهجوما حادا ومريـــرا علــــى شعبه وبلده .

ثم باتفاق مسبق مع حكماء مؤتمر بغداد نشروا فى صحف البـــــلاد كلـــها كميـــة المعونات التى أرسلوها إلى مصر، استمعوا إلى الجدل العقيم فى جامعة الدول العربيـــة، وإلى نشرات الأخبار التى بثها راديو لندن، ووكالات الأنباء، ومونت كــــارلو، وصـــوت أمريكا، استمعوا إلى شتائم البلدان المجاورة، وبعض الآراء البعيدة، استمعوا باهتمـــــام مماثل إلى الحجج الواهية التى قدمها الوزراء المناصرون، وإلى البراهين الثاقبة التـــى قدمها المصرون على تطبيق العقوبة، استمعوا إلى النشرات المتعلقة بالنظام العام فــــى بلد مضطرب بسبب صمته، توقعوا أن يسمعوا فيما بعد إطلاق الرصاص من بعيد، بنــــاء على ذلك أحسوا أن ضربتهم قاصمة فأكدوها بمزيد من الضربات.

اشتعلت الكراهية وغضب النقمة، فجاءوا ببذاءات وأحقاد وتصرفـــــات شــعبية جماعية حتى يصعب تحديد الفاعل وإيقاع العقاب عليه، عبأوهم ولقنوهـــم التصرفـــات

القادمة، ودروس الانتقام من تاريخ المصريين وحضارتهم، فكانت المهانة والألم، تحرك وترعميق فى داخل المصريين جميعا، البعض صمت، والبعض أبدى اعتراضه وترفعه .

قالت سناء : لم نعد قادرين على اليأس أكثر مما يأسنا، فأظهرت فى محنتها أنها تتمتع بذلك الفرح المقلق، لقد أصابهما معا إحباط سياسى يدفع إلى الارتحال ، يؤدى إلى الجنون ، المدينة مغلقة ، الشوارع والمنازل ، من غرفة إلى أخرى ، قالت : لقد أمضينا حيواتنا فى محاولة تلافى الجروح والإهانات التى يجهد إخواننا بتوجيهها إلينا، هذا والله ياعمرو زمن معكر للصفو ، ثم تساءلت : لماذا يهين المرأ إنسانا لم يمسسه بسوء ، هل هى الرغبة الوضيعة فى إثبات الذات ، وكسر إرادة الآخرين ، سحق مقاومتهم ، قدرتهم على الرفض ، أم هو الاستبداد فى أبشع صوره ، ولم يعرف عمرو قيمة ما تحدثت به سناء إلا بعد أن رحلوها ، تبدو كمخلوقة الحلم، ثم تبعد به عن الأحداث، تقول : للفن خباياه ، أحاسيس تمر بنا دون أن نشعر بها ، أو نبعد عنها.

كانت تريد أن تنأى بنفسها عن التفكير، فيما هم حريصون على اقحامها فى وسط الأحداث، فأعادوا على مسمعها مرات عديدة ما أعطاه السادات لسلطان البهرة من حق إعادة ترميم حى باب الشعرية، ومساجده ، حتى تكون أماكن وقبلة يحجون إليها، نقلوا على أثرها تأدية الشعائر إلى باب الشعرية .

نزلت إلى السوق، ترى تطورات لم ترها من قبل، جاءوا بحياة وأفعال جديدة، وتعبيرات وعادات غير مألوفة، يضيفون فى الوقت نفسه إلى لغتهم، وإلى طريقة معيشتهم شيئا جديدا، يستمدونه من الأجانب يوما بعد يوم، أحدثوا تبدلات فى الملبس واللغة ، والنمط السلوكى .

ثم تقول : لقد أخذوا أغانينا وموسيقانا وألحاننا الوطنية، طريقتنا فى حلف اليمين، أغانى أطفالنا وألعابنا القديمة، إضافة إلى ما سبق أن أخذوه من كل طرق ووسائل ومظاهر الحياة والتعليم والطب والعادات والتقاليد ، حتى طريقة الكلام أخذوها، كانوا يقولون : إننا بدأنا من حيث انتهى الآخرون .

عندما علمت لم تستطع أن تصمت، اتصلت به من المدرسة، تنصتوا عليها، تحدثت عن كاميرا الفيديو العجيبة، والفيلم الذى يتفرج عليه الآن الناس فى كل أنحاء البلاد، لقد صور العروسان ليلة فرحتهما ودخلتهما، ووضعوا الشريط ضمن الأشرطة الأخرى ونسوه عندما رجعوا الأشرطة إلى المحل، تم نسخه مئات النسخ، يحتفلون الآن على مستوى البلد بهذا الشريط الوطنى .

كانت المرة الأولى التى يتفرجون على أنفسهم، فيما سبق كانت الأشرطة كلها أجنبية، وكانت هناك أشرطة لحفلات فنانين أجانب وعرب ومصريين، تصل فى عهرها إلى درجة ممارسة الجنس والسحاق والشذوذ المتنوع .

يتحدثون عن كل شىء بتفصيل مذهل، شاغلهم الجنس، الرجال والنساء على السواء، تكلموا فى المدرسة عن هذا الشريط فى البداية همسا، ثم انتشر الهمس وأصبح علنا، الكل يتداوله حتى الفتيات الصغيرات .

قال لها : أريد أن أشاهده ، فقالت ضاحكة : كنت أظن أن عقلك أكبر من هذا، ثم واصلت : لن تجد فيه جديدا، فسألها هل شاهدته؟ قالت إنه ليس لديها وقت أو رغبة لمشاهدة مثل هذه الأعمال .

ذهب إليها تلك الليلة، ثم حاول أن يتطرق إلى حديث الصباح بعد أن وجدها هكذا ذائبة فى وجد وجوده، فرحة به، صمتت هادئة وخجلة، أمسك يدها ، أحس أنها تقترب منه، ذائبة فى موجات قوية، كما لو كانت موجة إثر موجة، تفقد تماسكها ووعيها، تصبح إنسيابا ذائبا خالصا، نظرت فى وجهه كما لو أن وعيها قد غادر عقلها، بدت صيحات رغبتها القصيرة المتشنجة الغائبة عن الوعى تماما ترن فى روحها بشىء من قوة الانتصار.

* * * * *

تحدثا تلك الليلة بشكل عائلى تماما، وحميمية أوصلته إلى الاستسلام لكل ما تأمر به، فعرف كم هى تعانى معاناة حقيقة، إنها تدارى آلامها وخوفها على مستقبل بلدها،

ترى الأمور بشكل أكثر موضوعية وبرؤية ثاقبة، حيث تغلغلوا فى كل حياتنا، فرضـــوا شروطهم ، ساعدهم فى ذلك أبناء الوطن أنفسهم، إنها خائفة على فنــها ومســتقبلها ، فالممنوعات كثيرة هنا، لماذا يخافون هكذا من فننا ، أفاضت بمعلومات حقيقية ســمعتها من راديو لندن عن شروط الخضوع، وعن المحظورات التى يجب أن يبتعد عنها الفــن المصرى حتى يسمح له بالتداول هنا، قالت من ضمنها منع تصوير مشــاهد ســرادقات العزاء وأزياء الحداد، ممنوع أن تقول " بابى " و " مامى "، لا تستخدم ياباشـــمهندس، كلمة الله يرحمه ، أو الله يرحمها ، أو كلمة مرحوم أو مرحومة .

عليك أن تضيف كلمة بإذن الله ، وإنشاء الله قبل أى فعل مستقبلى أو فعل ماض أو حاضر ، لا تنطق كلمة سياسة، ولا تتعرض للأنظمة السياســية جميعــها، أو التــاريخ النضالى لبلدك أوالانتصارات التى حققها المصريون بما فيها حــرب أكتوبــر، لا تنقــد الشرطة، ممنوع كلمة فن أو رقص بجميع أنواعه بما فيه الباليه، ممنوع غناء النســاء فى المسلسلات إذا كان عاجبكم ، لا تستخدم كلمة " بعيد عنك " عند ذكـــر المــرض أو الموت، لايجب أن يتلاقى رجل وامرأة فى أى مكان إذا كانا غير متزوجين، ثم ضحكت ، واصلت : يعنى أنت هنا الآن غصب عن الرقابة، ممنوع التعرض للســـحر والشــعوذة والأبراج والنجوم ولو بالاستهزاء والسخرية منها .

تتكلم بترتيب وتأن وعقلية صافية وبألم شديد وسخرية، ترثى لحالنا الذى وصلنــا إليه، المشكلة كما قالت : أن شركات الإنتاج وافقت على كل طلباتهم .

ثم قالت ضاحكة : لابد أن يشترك أحد منهم فى المسلسلات المصرية، ولابد أيضــا أن يقوم بأدوار الخير والبطولة، وأن يكون منقذا، أما إذا كــانت هنــاك خناقــة فــهو المخلص ولا يضرب أبدا .

سألته : ما أخبار تصميماتك، قال : انتهيت من تصميم فيلا لمدير الشئون الصحيــة بعد مجهود ضخم، صمت ناظرا إليها، ارتبكت لوهلة، واصل : أجهدتنى زوجته، لكنـــها فنانة كبيرة، رأيت عندها معرضا من الفنون الجميلة .

قالت : هى زميلتى، وهى التى تساعدنى فى إحضار هذه الكتب ، وهذه الممنوعات. قال : هل أنت التى ساعدتها فى الحصول على هذه اللوحات ؟ قالت : إننى لن أتطرق للحديث عنها لأننا تواعدنا على ذلك، وأنا حريصة على أن أكون صادقة .

عندما صمتت سألها عن عم على، أخذته إلى غرفة منعزلة، قالت : لا تحدث صوتا، وجده يعزف لحنا منفردا من البكاء، تعود أن يأتى إلى هنا كل مساء، يتذكر زوجته وبلده، وتفهمت سناء ذلك ، ولم تقطع عليه متعته وتذكاراته، يصحب البكاء أحيانا صراخ ممزوج بالشوق للأهل والأحباب، حين يهدأ يعود قائلا " الحمد لله أنا مرتاح الآن " .

كان عم على قد ملأ غرفة بكائه بأبيات شعرية عن بلد المحبوب، ومصر التى فى خاطرى، ورسم الأعلام المصرية المتنوعة على حوائط الغرفة، تآلفت سناء تماما مع هذا وقدرته بصمت الفنان وإحساسه .

ياه .. كانت سناء قد ملأت حياته حقا، هل ستصبح هذه ذكريات؟ كلما تذكر ما حدث لها ينقبض قلبه ، يترك عمله ، يهج ، يذهب إلى هذه الحديقة، يرى الرجل ما زال يتجول فيها، يشاهد أطفالا آخرين يتشبثون بأيدى آبائهم، وكان قد سمع خطيب الجمعة يحذر الآباء من مدرسى أطفالهم ، ويدعوهم إلى تقوى الله، وزعوا المنشورات فى الشوارع من قبل الهيئات الدينية تحذر الأسر من الاعتداء على أطفالهم .

وعندما بلغ أحدهم عن اغتصاب طفله جلدوه، ومنعوه من السفر كالأسرى والسبايا والعبيد، سحبوا جوازه، وحددوا إقامته، أودعوه السجن رغم أن الطب الشرعى قور أن الطفل تم الاعتداء المتكرر عليه، وأن الآثار الموضعية المشاهدة تتفق والاعتداء على الطفل .

* * * * *

ولما تكررت الاعتداءات وجدوا أن الصمت وعدم عقاب الشاكى وترحيله فى ميعاد إجازته حل مثالى، تفادوا بذلك الردود العشوائية لأجهزة الإعلام الحاقدة، التى لا تبحث

إلا عن كل نقيصة فى هذه البلاد، عرضوه على مراكز طبية متخصصة، بعـــد أن فشـل علاجه فى مستشفى الأمراض النفسية، أشاروا بعلاج الطفل جسديا ونفســيا، تحملـوا بأريحية ونخوة كل النفقات.

عانى الطفل من أمراض اكتئابية، وقلق حاد، انتابته نوبات من البكـــاء والخـوف والتشنج، تبول لا إرادى ، بدا اضطرابه النفسى والقلق واضحين ، وبنـــاء علــى ذلـك استحدثوا مركزا للتأهيل النفسى لضحايا الشواذ والعنف، ودرسوا علم نفس الشواذ .

* * * * *

شاهد رئيس البلدية فى جولته التفقدية قادما فى موكب كبير، كانوا قـــد اشـــتروا سيارات جديدة بصفائح معدنية كمدرعة، ومقابض من ذهب، كانوا متـــأنقين، ينظـــرون بتأفف إلى تأثير رياح السموم التى اجتاحت المدينة ، راجيا وداعيا أن تتوقـــف باســم الماء والصابون الذى استهلكوه فى غسيل شوارعها، وأرصفتها تحديدا، حيث كان أرسل طائرة مخصوصة جابت بلادا شاسعة للبحث عن بلاط محبب لأرصفة هذه المدينة.

قال رئيس البلدية : إن مهمتى الأساسية هى تنظيف المدينة ، أنشأ الرجل حدائـق عديدة، إحداها للحيوانات اليتيمة، رغبة منه فى عمل الخير وإذاعته، تمد الذاكرة عمرو فيراهم فى الطائرة مبحرين فيما يشبه السراب المتألق دون ثقل أوحجم ، ناطقين بكلمات لاتخرج من أفواههم ، مرسلين إشارات غامضة لا تناسب لفتاتـــهم ، عندمـــا نظـــروا جماعة من أعلى أصدروا أمرا بإنشاء قطار الصحارى المرتفعة .

وتوالت إنجازات رئيس البلدية الفكرية فأنشأ مدرسة مجانية للنظافة ، الشـــوارع قبل البيوت، فالطرقات، فالدروب، نقلوا أكداس النفايات، ثم أعيدت من أحياء أخرى دون أن يتم التوصل إلى معرفة كيفية التخلص منها، حدث ذلك فى مواكب رســمية، رفعــوا أعلام الوطن، ولافتات عريضة تدعو للساهرين على نظافة البلاد .

(١٠)

تحتل الرمال الحريرية مساحات صغيرة، تكون أكواما متناثرة على جانبى الطريق الواسع والمنبسط بنعومة على امتداد أضواء كشافات السيارة اليابانية، تتجمع هذه الأكوام وتختفى بفعل الرياح التى تضرب فى كل اتجاه، تظهر العلامات الفسفورية واضحة على مسافات منتظمة بين كل حارة وأخرى، يسيطر الظلام والصحراء، فتظهر على مبعدة فى قلب هذا الخلاء الغامض المجهول جمال وأبقار فسفورية .

ينتبه ويهدئ من سرعته، لايعرف كيف تفكر هذه الحيوانات الصحراوية المتحررة، تظهر بغتة فى عرض الطريق، فتعددت حوادث الطرق، بدا أنها بلا أصحاب، تركوها لترعى الكلأ، مطمئنين إلى عدالة الحكم وأمانة الناس، يقود عمرو سيارته مغلقا زجاجها، يستمتع بالتكييف وأغانى عبد الوهاب القديمة، يشتاق إلى أم كلثوم وفايزة، يستمع إلى طلال مداح، يقود بسرعة معتدلة، ينظر مركزا إلى الطريق، تخاتله سناء .

لم يعرف كيف ضبط موجة الراديو على البرنامج الموسيقى الذى يذاع من القاهرة، وكانت هذه المرة الأولى التى يستمع إليه هنا، امتطى طريق الكفار، يمر خارج المدينة، يرى كلابا ضالة وثعالب، وذئابا صحراوية، تضايقه كشافات فسفورية قادمة من الخلف، يضع يده على مرآته الأمامية، يضغط على ذراع النور العالى، تخفض السيارة المقابلة إضاءتها، شم رائحة السمك الطازج، الذى اشتراه من "جارثيا " ، ساعده الرسام الهندى، اشترى عدة أنواع، أوصى بتنظيفها وتقطيعها وتعبئتها. أحاطها بالثلج،

وضعها فى شنطة بلاستيكية، لم يذق طعمه منذ جاء ثانية، اشترى كمية، الجزء الأكبر منها لزملائه، احتفظ بنوعين يجيد طهيهما، ويستمتع بطعمهما .

أزاد السرعة عندما جاءته الرائحة، عليه أن يذهب إلى منزلهم الذى استأجره لهم الشيخ " أبا الخير " أولا .

أشرف على مدينة " بوط " تخطى أربع نقاط مراقبة، يكررون نفس الطريقة فى التفتيش، يفتحون باب شنطة السيارة الخلفية خوفا من تهريب أشخاص ليست لديهم إقامة نظامية، أو تهريب أشياء غير مسموح بها من كتب وخلافه، يتأكدون من الهوية والإقامة والعمل، وتصريح المرور من مدينة إلى أخرى، بدا أن تأخره عن المدة المصرح له بها قد سبب له كثيرا من الضيق، ولم يغلب فى افتعال الأعذار عن بنشر السيارة أو عن شراء ثلج للحوت الذى يتشممونه، ثم يبعدون أنوفهم عنه إلى أن وصل إلى نقطة المراقبة الأخيرة التى أصرت على تمديد وقت التصريح إلى هذه الساعة، وإلا أنهم سيوقفونه إلى أن يأتى كفيله.

قال أحدهما : مصرى أنت ؟ قال نعم ، قال له بلهجة مصرية : آه ياقفل ، انتبه إلى ضحك الآخر قائلا بلهجة باكستانية : مخ ما فى ، ثم قال الثانى : فتح مخك يا أخ .. ايش مهندس ؟

ظهر تردده واضحا، تقترب الساعة من الواحدة صباحا ، يعرف مقدار القوة الجاهلة والغاشمة للعسكر البدو، إنهم يعادلون الهجانة المصريين الذين لم يرهم، لكنه سمع عنهم كثيرا، لحظة جاءوا إلى قريته عندما اجتاحت الكوليرا مصر، تواكب هذا مع الإعلان عن تقسيم فلسطين، وكان يتخيلهم عندما قرأ قصة ليوسف إدريس، لكنه يراهم الآن مجسدين، واقفين أمامه، يتهمونه بالغباء .

وكان هذا آخر شىء يتوقعه، وبدا أن كل المصريين هكذا " مخ مافى " ، ولم يعرف لم انطبق هذا عليه ، أحس أن إهانة ما تستهدف عقله وتلتصق به .

استــــعان بمخزون طاقته من الصبر والهدوء والسماحة، فلا تصلح المعاملـــة الندية والمتحضرة مع هؤلاء، وقد عرف أن هذا الفراغ وهذا الصمت يجعل الإنسان هكذا تافها، ليس لديه مخزون من الحكمة أو العقل أو الثقافـــة، أو حتـــى مراعــاة شــعور الآخرين، انتبه فى تــــلك اللحظة فقط أن بإمكـــانهما إيداعــه السجن حتى يظهر لـــه صاحب ، كما قالا .

عندما أخرج حافظته قال أحدهم : دا احنا اللى دهنا الهوى دوكو، وقال آخـــر : دا احنا خرمنا الغربال، يتكلمون بلهجة مصرية، تشوبها لكنة بدوية، انتبه إلـــى مونيتــور صغير موضوع أعلى سيارة أحدهما يذيع إحدى مسرحيات عادل إمام .

* * * * *

انطلق إلى منزل زملائه ، يريد مفاجأتهم بهذه الهدية، لا شك سيرحبون بها ، وجد سيارة الشيخ " أبا الخير " بالخارج، يجلس فيها السائق، لم ينتبه إليه، الشارع على غير عادته ملىء بالسيارات الصغيرة والكبيرة، متراصة بغير انتظام .

لم يأت إلى هذا البيت منذ مدة ، فور اســـتئجاره تداعــت الأعـــمال والأحــداث بسرعة، لم تجعله قادرا على أخذ أنفاسه، لهاث متواصل يسلمه من مشكلة إلى أخــرى، هل أهمل فى حق نفسه ، وفى حق زملائه، كان واجبا عليه أن يعى أن المشغولية ليـس معناها أن ينسى أن له زملاء فى مكتب واحد وأن عليه واجبا حيالهم، لقد كان البعــض منـهم زملاء دراسة .

لماذا هذه الدوامة قاسية هكذا ؟ وهل هى ضمن منظومة دوامات القسوة التـــى لا يستطيع الفكاك منها، ولم ينتبه إلى أهمية تلك الملاحظة إلا عندما دخـــل عليـــهم فـــى الصالة الكبيرة بالدور الأرضى، وجدهم متراصين على الأرض، يرتدون جلا بيب بيضاء، لابسين طواقى بيضاء مخرمة، وقد استطالت لحى البعض منهم، والبعض الآخر له ذقـن مشروع لحية، لماذا لم ينتبه إلى كل هذه التطورات ، ولم تلتقط عينـــاه هـــذه الأنمــاط والسلوك ، وجد بعض الأغراب أيضا ذقونـهم طويلة، يرتدون الزى الباكستانى الأبيـض،

يتناقشون بصوت عال، لم يهتم أحد بدخوله، أشار الشيخ " أبا الخير " إلى أحد الأركان ، لم يتعود الجلوس إلى الأرض، بدت المناقشات كلها فى الفقه البدوى، لايعرف عنه شيئا حتى هذه اللحظة، وليست لديه الرغبة فى ذلك .

تذكر عبد الصادق درويش الذى كان يعمل محاسبا فى مكتب الشريف، تم القبض عليه فى عملية مقتل الشيخ الذهبى، وجدوا اسمه فى كشوف جماعة التكفير والهجرة، كان شكل عبد الصادق درويش مثل باقى الأشكال الموجودة الآن والتى لا يعرفها ، يدقق فى وجوه زملائه وأصدقائه، يريد أن يعرف من منهم الآن المشروع المصغر .

أصواتهم عالية ، قبيحة ومنفرة ، يلقى أحد الأغراب المحاضرة مستعينا بطرح الأسئلة ، وتلقى الإجابات ، ثم لا يسمح لأحد فى بعض الأوقات بالحديث .

حاول عمرو أن ينبه الشيخ إلىعبء الأعمال الملقاة على عاتقهم صباحا، لم يعره اهتماما، استأذن وهو خارج شيعته نظرات بغض وكراهية، بادلهم نفس المشاعر والأحاسيس، وأكد ذلك بقوله إن الشرطة أوقفتنى ولابد أن أذهب .

هدأ الشيخ من نبرته ، ألقى نظرة بانورامية شاملة، استطاع أن يتأكد من وجود الدكتور رشدى وعبدالحميد راجح ، لا يختلف زيهما عن باقى الموجودين .

وقد بدا أن هذا الذى يحدث الآن قد تكرر فيما سبق، لأن انسياق هؤلاء الزملاء الذين يحسبون كل شيء حسابا عقليا بحتا بدون أية عواطف قد أوضح أن المسألة قد استغرقت وقتا طويلا قبل الموافقة على عقد مثل هذه الندوات، يعرفون أن قوانين البلاد لا تسمح بأى تجمع وأن الاجراءات الأمنية صارمة فى هذا الموضوع .

جاوزت الساعة الثانية، لا يجد أحدا قلقا، أو مشغولا، أومهموما، الجميع فى حالة صفاء ذهنى، مهيأ لمزيد من الشرح والاستيعاب والاستماع، ولم يشغله إلا الإفلات من هذا المكان، ها هو ذا الشيخ يصب جام غضبه ولعناته عليه متهما إياه بهذا الاتهام المجحف .

مع تكرار الندوات استطالت الذقون، وقصرت الجلابيب، ورغم أن الأعمال تتناقص لازدياد أعداد الخريجين الوطنيين الذين افتتحوا مكاتب هندسية فور تخرجهم، إلا أن الأجور ارتفعت كما أن معدل الانتاج لم يصل إلى المستوى السابق، وأن نوعيته قد انحدرت، لم يعرف لم يشارك الشيخ فى مثل هذه الندوات، ولماذا يشجع عليها ؟ وما هو دوره بالضبط ؟ وإلى أى شيء يهدف؟ وبأى شيء يعد هؤلاء الشباب، وتحويلهم إلى مزق متهرئة هكذا ؟ ضاربا عرض الحائط بالمكتب والإنتاج والتعاقدات والنسبة المقررة له ؟ هل لديه أوامر بذلك ؟ أم أن هذه مبادرة فردية ؟ ثم لماذا هو مطمئن هكذا وغير قلق ؟

كانت هذه التطورات المفاجئة وهذه الاتجاهات تشغله منذ مدة، وبالتحديد منذ كان طالبا فى قسم العمارة فى هندسة عين شمس، اجتاحت الجامعة هذه التيارات فى السبعينات اجتياحا كاسحا، واختلط عليه الأمر فلم يعرف هل زملاؤه هؤلاء الذين تعاقد معهم فى القاهرة وجاءوا فى صحبته إلى هذه البلاد لديهم قابلية الانخراط فى هذه التيارات دون مقدمات سابقة، هكذا دون مناقشة، أم أن الأمر مرتبط بعلاقة قديمة لا يعرف عنها شيئا، البعض منهم زملاء دراسة، لايشك لحظة واحدة فى أى واحد منهم، والبعض الآخر أصدقاء ومعارف، الجميع مشهود لهم بالتفوق وحسن الخلق، ما الذى يحدث بالضبط إذن ؟ كان البعض الآخر يصفى حسابات قديمة، حيث كان يتردد عليهم فى اجتماعهم مهندس نوبى طالت لحيته كثيرا ، دائب سب عبد الناصر بألفاظ بذيئة ، لأنه هجر النوبيين ومحا أرضهم من أجل إقامة بحيرة ناصر خلف السد .

ما يؤرقه هو أن مسئوليته ضمنية تجاه هؤلاء، يراهم ينساقون وينزلقون دون أن يستطيع منع هذا ، إذ إن وجود " أبا الخير " معهم معناه تخليه عن أية محنة يتعرضون لها، هل ثمة علاقة قديمة بالجماعات أيام الجامعة ؟ وأن الأرضية الآن صالحة للعب على المكشوف ومشجعة ومويدة دخوله هذا التيار ، ما علاقة " أبا الخير " بكل هذا ؟ ثم وجود الدكتور رشدى وعبد الحميد راجح يثير أكثر من علامة استفهام .

لم تتضح الإجابة على أسئلته إلا فيما بعد، أما ما حدث بعد صلاة الجمعة اللاحقة على هذا الاجتماع فكان تأكيدا لتساؤلاته، رأى الشيخ عينه الذى كان معهم تلك الليلة يقوم بمهمة الشرح فى ندوات هدايتهم ، وبث القوة فيهم ، وشد أزرهم حتى يستطيعوا الاطلاع بمهمة تنظيف مجتمعاتهم من الوباءات المتعددة التى اجتاحته، شيخ خطبة الجمعة مشهور فى المدينة، وطنى خريج الأزهر، له صوت رخيم أثناء تلاوة القرآن الكريم، صورة مكررة من تلاوة الشيخ الحصرى، رآه وبعض معاونيه يحثون الناس على التبرع من زكاة فلوسهم، لتحسين حال المسلمين ورفع الظلم والقهر عن كاهلهم، يصل بالناس إلى ذروة الايمان والحماس لنصرة الاسلام والمسلمين، لايضيع وقتا، يقصر من خطبته قدر الإمكان، لينقض هو وأتباعه يحملون الأجولة ، تمتلئ بالدولارات، والعشرات والمئات وفئة الخمسمائة الجديدة، شاهد أحد زملائه يوما يقوم بمعاونة الشيخ فى جمع النقود، ازداد عددهم بعد ذلك ازديادا كبيرا .

عرف أن كل مساجد المدينة، ومساجد مدن البلاد الأخرى تقوم بمثل هذا بعد صلاة العشاء أيضا ، ولا يعرف مجددا حتى هذه اللحظة إلى أين تذهب ؟ ولمن ؟

حين بدت صحوة الدين مصاحبة لفقهها البدوى بعد حرب أكتوبر ، وإثر الارتفاع المذهل المجنون لأسعار الثروة، وجدوا لديهم فائضا كثيرا من المال ، منهم من يملك أرصدة خاصة تعادل أرصدة دولة من دول العالم الأول، مشاريع الاستثمار جديدة عليهم فلم تستطع استيعاب هذه الكميات الضخمة، وزعوه على عدة بنود، أحدها تكديس الفائض منها فى البنوك الأمريكية واليهودية، ونظرا لأن الدين الإسلامى يحرم الربا، فقد رفضوا أخذ الفوائد والأرباح الضخمة لأرصدتهم، ذهبت تلقائيا كتبرعات عربية للمنظمات اليهودية، حين أنفقوا من رؤوس أموالهم مبالغ ضخمة على الخمر والقمار، وأنشأوا ضواحى خاصة فى بعض المدن الغربية لاستيراد العاهرات .

أحد هذه البنود خصص للجماعات الاسلامية المصرية، وبعد توجيه من القائد المؤمن، حيث وافق على الحصول على مبلغ مائة وعشرة ملايين دولار من

كبيرهم، لتقوية وتدعيم دين الإسلام ولمحاربة الشيوعيين والنـــاصريين فـــى نفـــس الوقت، لم يدر بعواقب ما فعل، ففور إضاءة النور الأخضر انقلبت إلى مارد جبار، صعبت السيطرة عليه، ها هو ذا أخطبوطى التكوين كلما قطعت له ساق ظهرت له عدة سيقان، وفيما بعد كان الرجل نفسه ضحية تفكيره .

يشاهد شيئا خطيرا يحدث الآن أمام ناظريه، يجرى بثقة وتؤدة أكبر من قدرتـــه على كبح جماح سريانه، وأن هذا التيار الجارف سيأخذ فى طريقه كل شيء، أصدقـــاءه وأحلامه ومكتبه، سيكون ضمنيا على رأس القائمة، يعرف أيضـــا أن مخـــابرات بلـــده متداخلة، منتشرة ومتوغلة فى كل البلاد عبر أفراد شبكات جيدة التدريب مـــن أطبـــاء ومهندسين وتجاريين، وغيرهم فى المهن الشائكة والحساسة، الخبراء منهم على وجـــه التحديد، وبدا أن المجموعات لم يكن لها من هدف إلا حماية النظم القائمة والمحافظـــة عليها ، وبدا أيضا أن هناك اتفاقا مسبقا على وجود مثل هذه الأجهزة، وسيكون عرضة فى القريب العاجل للمساءلة، وربما القبض عليه .

عالم من الكابوسية البدوية يكتم على أنفاسه إلى حد الاختناق، لا يعى التفكـــير الصحيح، والتصرف السليم إزاء هذه الكارثة القادمة، لا يستطع أن يفعل لها شـــيئا أو يردها، بدا وحيدا منبوذا، يقف بعيدا عن زملائه، بعيدا عن هذا التيـــار الكاســـح ، هـــم يرغبون فى انضمامه إليهم ، هو يرغب فى انقاذهم .

وكان يعرف عندما يتأنى فى التفكير أن له إرادة ، وأن سلبيته إذا ما بدت تجـــاه الأحداث لها عواقب وخيمة ، أرسل عدة خطابات لأهالى زملائـــه وأصدقائـــهم خاصـــة الحريص عليه منهم، شرح وأفاض فى الشرح، لم يتلق ردا على أى خطـــاب أرســـله، وعرف أنه تورط ورطة عمره، تذكر خطابات ليلى التى لم يتأكد حتى الآن مـــن الـــذى حجزها لديه، وعرف أن هذا الفعل فى حكم القانون المتعارف عليه، اكتشف فى الأيـــام التالية مقدار الفجوة التى تفصل بينه وبينهم، يراها تزداد يوما بعد آخر، يقيم الصـــلاة،

والشعائر والزكاة ، لم يكن هذا كافيا فى نظرهم، لم يعرف مقدار الكمال الذى يتطلبونه فى نموذج المسلم الصالح إلا فيما بعد .

كان الهدف الأول لهم انضمامه إلى الجماعة ، وتعاونه معهم فى كل ما يقومون به، فرغم الدعم الكبير الذى يتلقونه من جهات عدة، إلا أنهم يرغبون أيضا فى النسبة التى يحصل عليها من المكتب، قال أحدهم يكفيه راتب مثل أى واحد منا، عليه أن يساهم فى جمع الأموال، واتخاذ خطوة إيجابية نحو التقرب من الجماعة، حتى يعرف السر الربانى الذى كلفهم به الشرع .

عرف بعد مدة طويلة أن سبب انقطاع المهندس خالد، أحد زملائه عن العمل، والذى أصبحت لديه لحية كثة هو التردد على مقر الجماعة فى " جارثيا " ، وأن الشيخ أمره بذلك، فواتته جرأة عدم الاستئذان، وفيما بعد انقطع تماما عن العمل، وبطريق المصادفة البحتة عرف أنه يتدرب فى أحد مراكز المتطوعين، فور أن جاءهم منشور من هيئة الإغاثة الإسلامية العالمية الجديدة، حضوهم خلاف ذلك على الدعم والمساعدة من الزكاة والصدقة، أفادوا بأنها من الهيئات المشهود لها بالأمانة والنشاط فى خدمة المسلمين فى أصقاع الأرض قاطبة ، حيث تقوم بأعمال خيرية، وإغاثة اللاجئين والمحتاجين والمنكوبين، والأرامل والأيتام فى كل بلد حسب الطاقة، وهى جديرة بالدعم والمساعدة من الزكاة وغيرها حتى تقوم بمهمتها خير قيام " إن شاء الله"، ولمعرفتى بها ، كما قال رئيسها العام ، ورغبتى فى تشجيعها وتشجيع أصحاب الثروة والإحسان على دعمها ومؤازرتها جرى تحريره .

لم يستطع أن يعرف الأماكن المنشودة، لكنه سمع بعد ذلك باضطرابات فى مدن عديدة داخل البلاد وخارجها ، أعلنوا جمهوريات خاصة بهم، رحلوا وهاجروا حتى يأتوا بقوة تستطيع تغيير الكفر القائم إلى الهدى والحلال، ارتدوا قرونا سلفت فى مظهرهم، وطريقة عيشهم وشكلهم، أطلقوا اللحى ، قصروا الأثواب، هجروا العمل إلى العبادة، ركبوا الحمير والجمال، ذهبوا بها إلى الجامعات ودواوين العمل .

أجبروا المدرسين والتلاميذ على الدراسة فى فنـــاء المدرســة دون الاستعانة باللمبات الكهربائية والأجهزة الحديثة .

أحدثوا تمردا دمويا فى كل مكان حلوا به، لم تستطع الأجــهزة المعنيــة اللحــاق بأساليب التخريب المستحدثة، توالت الانفجارات فى كل مكان ، استولوا بقــوة الســلاح على الأماكن المقدسة، بشروا بالمهدى المنتظر الذى جاء حاملا رسالة القــرن الرابــع عشر الهجرى، وفق مقولة تدعى " أنه مع بداية كل قرن هجرى جديد يظهر مهدى يجدد للدعوة شبابها، ويعيد إليها نقاءها، ويقضى على قواعد الانحراف والفجور، يشيع النور فى الظلام، يملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما ".

جاءوا بذوى البريهات الخضراء، حرروا الأماكن المقدســة، أعدمـوا المئــات بالغاز، والذين هربوا منهم قصوا رقابهم فى مجموعات صغيرة علنية حتى لا يتعــاطف الغرب معهم، قتلوا الأطفال والنساء رميا بالرصاص .

كانوا متحفظين فى تصريحاتهم، مقتضبى الكلام، لم يتقبلوا آراء أو نقدا من أحــد، كان هدفهم الإبقاء على أنفسهم، لا يستمعون إلى ما تقوله وكالات الأنباء، عن أســباب التمرد، حددوه بالعيشة الزرية التى يحياها الناس، وسوء التدبير ، والأنــواع الجديــدة المختلفة للقمع .

* * * * *

تتكرر الأحداث هكذا دواليك، بدا أن المستنقع قد فغر فاه إلى نماذج أخــرى أكــثر قدرة وأكثر رغبة فى اجتذاب باقى زملائه، ولم يدر مقدار الكارثة إلا فى نهاية الشــهر، اكتشف أن عليه التزامات مالية كثيرة، وأن دخل مكتبه لا يكفى نصف هذه الالتزامات .

كان موقنا أن ردود الخطابات التى يرسلها زملاؤه تفقد طريقها إليه، لم يتخيــل أن يكون هناك شبه اتفاق صامت على تدعيم هذا التيار.

كانت لوثة الإسلام البدوى قد اجتاحت القطر المصرى كالوباء وأثره على هــؤلاء المصريين المتعاقدين واضح وبالغ على كل تصرفاتهم، خاصــة أشــكالهم وأزيــاءهم.

فاكتشف الناس أن الجلابيب مريحة ورخيصة السعر، ومن أقطان الوطن، ولا تجلب لهم الأمراض الاحتكاكية بين الأفخاذ، وتساعد على تهوية الأجزاء المهيبة، كما أنها تساعد الراغبين فى الوضوء، والراغبين فى الجلوس فترات طويلة بعد الصلاة لتلقى دروس الفهم الحقيقى للدين ، وحاولت كل جماعة اجتذاب الأخرى إلى زيها الذى يعبر عنها، وجدت أنواع مختلفة من الطواقى، طاقية بشراريب وأخرى بكريات قطنية خلفية، وثالثة لها فى الزوايا الركنية إشارات قطنية معينة ، جلابيب قصيرة وبنطلونات شرعية تحتها، جلابيب طويلة وأكمام قصيرة، استقطعوا أوقاتا كبيرة لصلاة الظهر فى الفترة الصباحية، وصلاة المغرب والعشاء فى الفترة المسائية .

تحدثوا باستفاضة ضمن هذا الفقه عن أهمية الحمامات البلدية، حيث لا تحتك سيقانه أو مؤخرته بقاعدة جلس عليه أحد من قبل، فتسبب له مرضا معديا لا قدر الله، أو تنقض وضوءه إذا ما جلس بعد امرأة قضت حاجتها، أو على تلك القاعدة عينها إذ لم يراع الطفل الصغير آداب الإسلام حول التبول .

فيما قبل لم يطلب أحد منهم مراعاة اتجاه القبلة فى توزيع أجزاء الحمام أثناء تصميم أعمالهم، إلا أن الرغبات قد أضحت قواعد متعارفا عليها، فقد رغبوا فى توجيه الكومبنيشن والبيديه فى اتجاه آخر من الجهات الأصلية الثلاث، على أن يترك اتجاه القبلة هذا نظيفا لا يلوثه وضع حمام بلدى أو إفرنجى .

كانت الأسئلة تحيره، ما دخل القبلة التى تبعد مئات الكيلومترات فى التحكم فى توجيه حمام أو فيلا أو عمارة؟ وأية علاقة أو رائحة أو نجاسة تربط بين هذا وذاك؟ قام العاملون فى هذه البلاد بنقل هذا السلوك إلى أوطانهم، وعرف البعض أن رسالة هذه البلاد ليست التنمية فيها بجلب العمالة المتميزة، وإنما الرسالة الحقيقية هى نقل عادات وتقاليد ومعتقدات هذه البلاد من خلال العاملين فيها إلى أوطانهم، وقد وضح أنها مثل ضوء شمعة فى مهب الريح تخبو أحيانا وتشتعل أحيانا كثيرة .

فكرة نقل اتجاه الحمامات وملحقاتها إلى اتجاه غير اتجاه القبلة سبب متـــاعب كثيرة لكل المصممين فى أنحاء العالم الإسلامى، حيث ناقشوه فى اجتماع المؤتمر الأول للمعماريين الإسلاميين، وكان على رأس قائمة الموضوعات المطروحة، فاتجاه القبلـــة يختلف من بلد إلى آخر ، " وأينما تكونوا ولوا وجوهكم شطره " أضحت الجهات التـــى يأتى منها الهواء الطبيعى نقيا عاملا على إفساد جو النقاء الذى تتمتع به هذه الفيـــلات وهذا السكن ، أضحت الجهات الشرقية والشمالية مليئة بتلك الحمامـــات التـــى تقـذف روائح كريهة فى بعض الأحيان، تحت تأثير إهمال صيانة هذه الحمامات .

* * * * *

يتذكر خالد أثناء دراستهم، فتى خجولا، يتحدث إلى إحدى زميلاته من قسم مدنـى ظهرا لظهر، لم تكن لديه القدرة على مواجهتها حسب الشرع، هى بحجابها ووداعتـــها وخجلها، وهو بريفيته وطيبته، لا يعرف أن الأمور كانت قد نضجت فـــى داخلـــه ، وأن عقليته قد أصبحت خارج ارادته، لكن لم يبن عن اتجاهه وتعصبه إلا هنـــا، هـل لـــهذا علاقة بتعاطف الشيخ " أبا الخير " معه أثناء اختبارات قدومه، وأثناء الفترة التى قضاها هنا ؟ هل ثمة توصية ما من جهات عليا عليه ؟ أم أن الأمور هكذا جاءت، ولا تتحمـــل كل هذه التأويلات؟ هل كان يحمل الأمور أكثر مما تحتمل ؟ أم أن عقله الراكن إلى العلم هو الذى أوحى إليه بكل هذه الملابسات ؟ ثمة ترتيبات لاتخل من شك، ثمة خيوط خفيـة هلامية تربط التنظيمات المختلفة فى كل بلد على حده ببعضها البعض، هل لهم كل هـــذه السطوة ، هل هم ذوو عقلية منظمة إلى درجة تربية كوادر من الجامعة ، وفى تطـــور آخر من الإعدادى والثانوى، يساعدهم هؤلاء المدرسون الذين قضوا فترات من حياتـهم فى هذه البلاد أو الذين تخرجوا بدعم منهم، مسألة مربكة ومحيرة ، فقط عليه النجـــاة بنفسه ، عليه ألا يتورط .

* * * * *

عرف فيما بعد أن هناك عدة أماكن للاجتماعات وأن الخبرات قد تبودلت، لأن الباكستانيين استعانوا بمهندس الشنون عبد الحميد راجح ليشرح لهم الدين شرحا صحيحا، وأن الدكتور رشدى قد أضحى نشاطه مكثفا ومعروفا داخل الاجتماعات المتعددة للعمالة ذات الجنسيات المختلفة التى جلبها " أبا الخير " وبن درويش لمشاريعهما ، خاصة بعد تعيينه طبيبا مقيما، بعد أن رفض التعاون مع الباكستانى طاهر سليم إثر إقامة تلك المحاكمة .

لم يوافق عمرو بالطبع على اقتطاع أى مبلغ لدعم هذه الجماعات، كان عليه أن يتحمل عبء الفرق بين دخل المكتب وبين أجور هؤلاء العاملين حسب العقد، عليه إذن أن يتخذ قرارا حاسما حيال هذا الموضوع الذى ليست له نهاية ، وتوقع أن الأمور ستتطور فى الأيام القادمة تطوراً مثيرا .

كانت الدهشة من التطورات المتلاحقة تسيطر على عقله ومخيلته، يصحبها شعوره المعتاد بالحزن العميق أمام هذا اللغز الذى يحدق به متوقعا نتائج غير مرضية، فكر أنه لابد من الاستغناء عن بعض الزملاء، قوانين العمل تحتم دفع راتب شهرين لكل واحد على حدة فى حالة فسخ العقد، فكر فى جلب عمالة جديدة بأجور أقل ، توقع أن تكون سهلة الإغراء وأكثر تأثيرا وفاعلية إذا انضمت إلى هذه الجماعات .

بدا التيار لا راد لقضائه، انطرحت أمامه حلول كثيرة، كيف يمهد لهذا ؟ عليه أن يبدى تعاطفه فى الوقت الذى يخطط لتنفيذ ما يرغب، حتى يحافظ على عقله وجسده، يرغب رغبة حقيقية فى عدم التورط، حتى لا يبقى غريبا إلى الأبد، فى نفس الوقت الذى يحافظ فيه على هويته ودينه وبلده .

لقد دلته خبرته البسيطة إلى أن الأمور عندما تصل إلى هذا الحد فالمعنى الكامن أن هناك حقدا دفينا متربصا به إذ لم يشارك .

* * * * *

تمدد على سريره فى ظلام غرفته، أحكم إغلاق نوافذها وبابها، ظل يقظا مــهموما بهذا الجديد الذى لم يخطر على ذهنه، رن التليفون لم يرد أحد، ولم تغلــق السـماعة، متوترا وأعصابه كادت تفلت منه عندما صاح : اطمئنوا أنا موجود شوفولكم حد غيرى، جاءته ضحـــكة ناعمة وقوية، لم يعرف لمن هذه الضحكة أيضا، لم يستطع التحمـــل اليوم بالذات، فيما سبق كان يرد بهدوء وتأن ، يؤكد رده مرة واثنتين، وعندما لا يــرد أحد يغلق السماعـــة بهدوء، الليلة وصل ذروة الضـــيق، تجسدت آمال أمامه فـــى هذا الظلام ترمقه بهاتين العيـــنين البدويتين الشرستين اللتين تنمان عن ثقة ووعـــد بالانتقام إلى حد الإذلال .

ترتفع أمامه كهالة من نور زئبقى مبهر فى فضاء الغرفة الحالك الســواد، تتأملــه بكبرياء من فوق عرشها الجهنمى بعضا من الوقت، ثم تتغاضى عنـــه، مهملـــة إيـــاه، موجودة غير آبهة وغير مبالية به ، بدت كأنها أحد الآلهة الســاديين القدمـــاء الذيـــن يطلبون قلب ضحاياهم ساخنا، ثم قالت بصوت كالبروق والرعود بدا فى ترددات ذبذباته كأنه قادم من أعماق الكون : لماذا أنت هنا ؟ لا أود أن أراك فى بلادى .

ثورة غضبها تشتد، يحس بالخوف فينكمش، مفتاح إضاءة الأبـــاجورة بجـــواره، لايقدر على ضغطه، خاف خوفا قاتلا من أن يكون قد حدث لعقله شىء، عندمـــا أضـــاء النور وجد الآثار الباقية للنور المبهر، وإنها ما زالت هناك تخاتله، وتخبىء فمها إثـــر ضحكة شقية ترسلها، وأنها محاطة بذقون وجوه زملائه .

كان شارد الذهن، يمعن التفكير بهواجسه وأسراره وأحلامه، لم يطفـــىء النـــور، استمر فترة زمنية مستيقظا ، سمع آذان الفجر، أنصت له بســكينة وتفكـــير، وجـــد أن صوت الشيخ محمد رفعت أكثر إيمانا، وأكثر صدقا وخشوعا، وأن هذا المؤذن الذبيـــح يؤدى واجب وظيفته .

* * * * *

حاول الاتصال بالشيخ " أبا الخير " كثيرا، وجده فى أحد الاجتماعات ، قبل أن يتحدث إليه بادره بعدوانية واضحة، بلا سبب تقريبا، إنك تريد تعطيل أركان الدين بمنعهم عن الصلاة، إنها أبقى من العمل ومن المكتب الذى تشرف عليه، قال للشيخ : لست معترضا على صلاتهم، ولا على أى تصرف يقومون به، إننى أبحث فقط عن وسيلة تغطى تكلفة أجورهم، ومصاريف المكتب، ولا يوجد غير العمل، قال الشيخ : إن الرزق من عند الله " ، وافقه على ذلك هازا رأسه، مؤكدا أن الله حث الإنسان على العمل، وليس التعبد فقط ، قال : كيف تقول الكلام هادا يامهندس ؟ أكد عمرو أنه يرغب فى توضيح أن الدين كان دائما معتدلا، هدد الشيخ : اذا تكرر منك مثل هذا الكلام سأبلغ الجهات الرسمية .

على مدى فترات طويلة من التفكير لم يتوصل إلى نتيجة، استبعد بكل قوة التفكير فى التخلى عن المكتب، لاحظ انتظام زملائه فى العمل بجدية، وأن ثمة نوعية من الأعمال مختلفة عن الأعمال العادية، لم يشركه الشيخ فى أى تفاوض مادى معه، وعندما كان الأمر يتطلب رأيا فنيا يشرك الشيخ أحدهم، وفيما كانت الأمور تستمر وتسير على هذا المنوال، وفى ذروة العمل دخل شيخ ، وضح من مظهره ومن معاونيه أنه ذو مكانة فى بلده كبيرة ، يحمل مساعدوه أوراقا وخرائط، وحججا لوقف آل السنوسى فى " جارثيا " ، لم يكن " أبا الخير " موجودا، رأى أن يستقبل ضيوفه الاستقبال اللائق بهم، وفيما هو مشغول بالحديث معهم دخل زميله الآخر ، موضع ثقة الشيخ، استمع قليلا ، أبدى رأيا فوريا، لم يتقبله صاحب الوقف، ولم يتقبل وجوده، حاول عمرو أن يلطف من حدة انفعاله مبينا العزم على ترضيته، مما أقنع الشيخ بمواصلة عرض قضيته .

نظر عمرو بإمعان إلى الكروكى المساحى للموقع، طلب أن يرى الموقع على الطبيعة، بدا كحارات جحا، وبدا أيضا بزواياه وسوكه وتداخله مع المبانى المجاورة عملا معقربا وصعبا، خاصة عندما حاول قراءة الحجة، استعصت عليه استعصاء بينا،

يعرف أن هذا المشروع لم يأت إلى المكتب فور أن فكروا فى تصميمه، ترددوا على مكاتب المدينة تقريبا، يعرض الوكلاء أتعابا ضعيفة، مقتطعين لأنفسهم النسبة الأكبر.

لم يكن مفوضا بممارساتهم على أتعاب المشروع، استنفر أقصى مهاراته فى الحصول على أعلى الأجور، وبعد أن وصل معهم إلى أقصاها اتصل بالشيخ قبل توقيع العقد، ولحظة أن يأس من العثور عليه وجده مقتحما المكتب، حيا الرجال، وضح أنه يعرفهم، انفرد بهم، ولم يعرف عمرو ما حدث، سمع الشيخ يناديه ويخبره أنهم وقعوا العقد حسب رأيه .

ثمة ضوء لاح بهذا الاتفاق لإعادة تماسك العلاقة التى كانت على وشك التقويض، أو هكذا توهم، بقى هذا الحلم الذى سكنه لفترة شيئا حقيقيا بالنسبة له فى الأيام التالية، ولحذره الدائم والذى بات فيه قاسيا مع نفسه حتى فى تلقى بهجة أفراحه تأتى فى استقبال رضاء الشيخ، حيث لديه المعرفة بتقلبات هؤلاء الناس مثل الصحراء لا تستقر على حال، لذا لا يثق فى وعودهم .

* * * * *

يحاول أن ينظم فوضى أفكاره ومشاعره عندما علم بوفاة وكيل وزارة الصحة أثناء مروره مع مدير الشئون فى أحد المستشفيات، سيصلون عليه فى المسجد الجامع، كان قريبا من المدافن، لا يفصله إلا شارع، وفيما هو ذاهب كان المدفن على يده اليسرى، أرضا منبسطة بدون شواهد قبور، لا يعرف أحد أين دفن أخوه أو أبوه أو أمه أو ابنه، يحفرون فى أى مكان يجدون تربته جافة، لأن كثرة الموتى تجعل التربة نازة، وبسبب المياه التى يرشونها عليها رطبة، وجد بجواره الشيخ وزملاءه، ووجد كل الذين يعرفهم بمن فيهم طاهر سليم، وقد أقام على شفتيه شاربا كثا ملفوفا مثل شارب الرئيس الباكستانى ضياء الحق، الذى لا يحبونه .

كان الدكتور قد جاءته سكتة قلبية أثناء مروره مع رئيسة الممرضات، لم تمانع بضحكة ناعمة من التحدث معه عن الممرضة الباهرة الجمال التى مرت من أمامه

كالحلم، تضحك منتصرة، تنظر إلى مدير الشئون، وكان الوكيل على وشك أن يقــول : يوجد كثير من الأشياء الجميلة فى هذا العالم ، عندما انتفض مستنجدا إثـــر إحساســه بمداهمة الذبحة الصدرية التى أودت بحياته إلى غير رجعة.

حاول مدير الشئون بما لديه من خبرة إنقاذ فى المواقف الحرجة إسعاف الرجـــل، ترمقه لطيفة بنظراتها، تفكر فى أزمنة طويلة انقطع خلالها عن ممارسة الطب، تتساءل ألا يزال قادرا على تذكر اسعافاته .

طغت ابتسامة سخرية على إمارة الرقة والحزن التى ترتسم على محياها، فجعلتها تتقلص، كما لو أن مادة حمضية صبت على بشرة بالغة الرقـــة، تحـــاول أن تســاعده، وتأخذ بيده حتى لا يحس بعجزه، نقلوه إلى غرفة العناية المركزة، التم حوله ذوو الشأن والتخصصات النادرة، وفيما كانت محاولاتهم المستميتة لإنقاذه جـــاءهم صـــوت أحــد الأطباء الملتحين : إن ما تحاولونه هو الكفر عينه ، إنكم تقفون ضد إرادة الله بمحاولــة إنقاذه ، لم يعلق أحد ، ولم يتراجع أحد .

ولم يكن له من عقاب إلا دفنه واقفا كما تخيلت لطيفة، أما مدير الشئون فقد كـــان تقديره لعذاب هذا الرجل شديدا، توقع أنه سينتقل إلى جحيم الأشــــرار، توقــع لنفســه مصيرا مثله، إنه المكان المخيف، سهول جدباء، جبالها صخور ومنحدرات وعرة، فيـها برك متجمدة، وبحيرات من الكبريت، والكبسة المغلية والسائلة، تغطــس فيـــها الأرواح روحا بعد روح، تعانى محنا قاسية، من زمهرير وقيظ شديدين، تحيط بـــهذه المنطقــة مستنقعات موحلة، آسنة وأنهار مياهها عفنة وراكدة، أو ساخنة محرقة، تشكل حدودا لا يمكن تخطيها، لا تتيح للأرواح أى أمل فى الهروب، أو السلوى أو الغوث .

كان يستأهل حقا ، لأنه ما جاء للمتابعة والمرور على مستشفيات المدينة، لقد جاء تحت تأثير الموجات النملية الزاحفة والكائنات الغامضة التى تسبح فى دمـــه، والشـطة التى جعلت قلبه ينتطط، خاصة بعد أن رأى تلك الممرضة التى تحمل فى طيات جمالـــها شيطان الموت .

(١١)

لم يحضر حفل افتتاح مشروع بن درويش إلا الوطنيون، جاءت التعليمات واضحة من الجهات المسئولة، تدخلا بثقلهما لدى جهات سيادية عليا، أجيبا إلى طلبهما شرط أن يلبس الأجانب ملابس وطنية، البعض منهم أعجبته الفكرة واستحسنها، والبعض رفض، وعندما علم " أبا الخير " قال تلبسون ملابسكم أسفل الجلابيب، هذا حل يرضى الجميع ثم أثنى على فكرته.

البرنامج الرئيسى للحفل إعادة إحياء الأطعمة الوطنية التى اندثر أغلبها، تقام فى موقع المشروع نفسه، ابتعثوا تقاليد ونظم وطريقة إعدادها، بدا لعمرو أن رغبته فى معرفة أنواع تلك الأطعمة كافية لإقناعه بالذهاب، جاءتهم السيارات فى المساء، يشع الموقع ببريق الضوء المبهر للإضاءات الفسفورية المتعددة، كشافات ثمانية مقامة على أعمدة ضخمة فى أماكن كثيرة، ككشافات الملاعب الرياضية، أعمدة نيون، تفيض عن حاجة الموقع عشرات المرات، كما قال مهندس الكهرباء ، إضاءة خافتة داخل الخيم .

الموقع مرتفع عن مستوى المدينة، ورغم أن درجة البرودة عالية، إلا أن درجة حرارة الإضاءة وكثافتها أشعت صهدا وعرقا واختناقا .

تحيط المزرعة من جميع الجوانب والأركان كلاب صيد مدربة، وكلاب حراسة عادية للنباح فقط، مهمتها لفت أنظار الناس، كانت هناك لحظة ترقب جامدة، بدا العالم فى حالة سكون تام رغم أنه يموج بالناس القادمين من كل بقاع البلاد لأهمية المشروع وضخامته، الاعلانات فى صفحات كاملة فى الجرائد الوطنية والممولة والأجنبية.

شاهدوا لأول مرة إعلانا تليفزيونيا مصاحبا للماكيت الذى بدا مذهلا و غريبـــا ومثـيرا للفضول، ومما زاد الخيال اشتعالا هو هذه الأطعمة الوطنية .

الموقع فى أرض منبسطة وممهدة، اختاره عمرو بالقرب من الطريق الرئيسى فى مساحة أرض الشيخ الشاسعة ، الطريق يربط المدينة بعدة مدن مختلفة .

مزارع وبساتين، آبار مياه اردوازيه، فيـــلا، اســطبلات خشـبية لإيــواء ذكــور الحيوانات، وأخرى بعيدة لإناثها، وبدا أن فضولهم شره، لا يمكن اشباعه، ولقد قارن كل واحد على حدة بين ما تحتويه هذه الضيعة وبين ما يمتلكه .

ابتعدوا عن هذه الأضواء ، وهذه الحرارة، صفعتهم كشتة الـبر، انكمشــوا علــى أنفسهم، البرد قارس يبين عن أنياب ومخالب، يتملكهم الجوع ورهبة السيارات المتعددة الأشكال والأنواع، فاجرة الفخامة، تتهادى وتركن فى المســاحات المعـدة لــها، خـدم باكستانيون لابسون زى منادى السيارات أعدوا لإرشاد الزوار والمرافقين، بدأ هجـــوم العباءات الثقيلة المصنوعة من جلود الحيوانات لمقاومة البرد والرعشة، يتفحصها بـن درويش بروية وإمعان، قرر أن يقيم خط إنتاج لها فى مصنعه الجديد .

كانوا بتواردهم وتجمعهم أشبه بالمهاجرين الرعويين الأوائل، انتاب عمرو خيـال مخاتل استحكم فى مخيلته المنفلته، رأى شيوخ قطعان الماعز خالعين كالعادة أحذيتـــهم وشباشبهم، جاءت سيارات مليئة بشرائح من جلد الخراف وزعها علـــى الموجوديـن، لفوها على سيقانهم، معصبينها بقوة، شادين عليها وموثقين، بـــدت اللحـــاء متموجـة وثقيلة تحت تأثير رياح البرد القارسة، بدت القرون تنبت صغيرة ثم تكبر، فتحمل الغـتر والطواقى إلى أعلى، وفى تخيله هذا وأثناء انشغاله وسرحانه برونه يضحك، لا يتكلـم عما يجول بخياله وخاطره، ود أن يقول : مهما أصبح الراعى سيدا تظل رائحة الخراف تنبعث منه، ودائما ما تطفو التصرفات الصغيرة للبدو الرحل، سمع أحدا ينـــادى علــى اسمه من ميكروفون الحفل الداخلى، الترتيبات تمت، بن درويش و " أبا الخير " وزعــا أعضاء المكتب على الخيم، لم يتركاهم مجتمعين وحدهم فى خيمة واحدة .

رتبوا عشرة أفراد لكل خيمة، الخيمة جميلة، كثافة قماشها ثقيلة، مشغولة من الداخل، لها ألوان واضحة من الأسود والأحمر والأبيض والأخضر، يفترشون سجادا يدويا، مُصنعا يدويا، متكئات مراتبية مستطيلة تحيط الخيمة من الداخل، شاى أخضر، فستق، كاجو، لكل واحد طبق خاص بجواره، يدخنون ويسولفون، دخل بن درويش خلفه أربعة باكستانيين يحملون تبسيا كبيرا، صائحا حيا الله الرجال، المفاجأة ، المفاجأة .. أزاح الغطاء عن الجراد، جاءتهم أصوات الكلاب ونباحها، صاحوا بفرحة مجنونة كأنهم أحرزوا هدفا فى مرمى الخصم .

حقا كانت مفاجأة مذهلة كما عبر " أبا الخير " يجلس عمرو بجواره، قال أحدهم بن درويش عفريت والله، وقال الآخر : أكلة وطنية بحق ، وثالث : ما توقعته صادقا قط، ولو صدق ما توقعت الجراد، لكن هلال قال : عمى ما تراجع يوم وضعت الذبابة صفرا أمام الرقم على الشيك، قال إن هذا إرادة الله ، عمى ما هو مثل البعض، ما عنده وقت يعد الفلوس، يوزنها .. أى والله .. عمى يقول المال لايطلب الصداقة، يطلب المزيد، المال ما يعرف المجاملة، لكنه إذا وجد ضيفا غير مرغوب فيه قدم له كتف خروف .

ينقسم التبسى إلى قسمين، جراد مشوى وجراد مقلى، بدا شكله كالجمبرى، لونه أحمر، له رائحة زكية وطازجة ودافئة، أول مرة يأكل هذا النوع من الطعام، تردد قليلا ، انقضوا على الجراد المقلى ونسفوه، استخلص جرادتين عنوة، ولو توانى ثانية لما ذاق طعمه مدى عمره، طعم لذيذ حقا، غير مصدق كطعم أبو فروة مشويا فى ليالى الشتاء، يعرف أن هلال الراسى يعمل محاسبا فى الشئون ، وهومتخصص فى صيد الجراد، وحكى عنه كثيرا .

" كنا نصلى صلاة الاستسقاء، ليس من أجل المطر، وإنما من أجل الجراد، وعندما يأتى نرفع حالة الطوارىء القصوى لمواجهة الخطر القادم، الدولة ما قصرت، أنشأت قواعد رئيسية وقواعد فرعية، ونقاط استطلاع، وطائرات ترش ضمن أسطول مكافحة

الجراد، ايش الكلام، سيارات جيب، أجهزة لاسلكى ، حجمها مثل هذه وأشار بيده إلـــى آخر جرادة مشوية " .

كانت لهلال الراسى وحكاياته مصداقية كبيرة خاصة عندما يأتى المطـــر " فأســـراب الجراد تنمو من جديد، تترك مظاهر الخراب على كل شىء أخضر تمر عليـــه، متجهــة شرقا، هذه الجرادة لديها أعصاب حديدية، قواطع ومناشير وعيون صقرية، تطير مائــة كيلومتر فى اليوم، عندما يهل الظلام تهبط فى موقعها .

فى تحركها تغلق الملاحة الجوية والمطارات الدولية لساعات طويلة، " وإذا ما دخل البلاد ما عاد يخرج، ما هى فوضى" ، ضحكوا ، قال أحدهم : لازم موافقة الكفيل، قـــال آخر : تأشيرة خروج لازم ، واصل أبو زيد : " ما نبغى هذه الأوقات مساعدة من أحـــد، فور أن يهبط بالليل نرمى عليه القش ونحاصره بالتبن، ثم نشعل النيران التى تستعر فى مساحات شاسعة، وعندما تنطفىء نشعل المشاعل، ونمسك الغلقان والقفف، الكـــل بـــلا استثناء، أولاد، حريم، رجال، نجمع جرادا مشويا جاهزا، نأكل فيه أياما وليالى كثـــيرة، البعض منها لم يستو بشكل جيد، لكن هذا ماهو مهم ، المسئول يتدخل ويـــوزع علـــى الذين لا يستطيعون صيده، يرسلون إلى الأماكن التى لم يأت إليها، كنا فى حالة حـــرب كما يقول المصريون، كانت هناك غرف عمليات الجراد، سرب الهجوم، أماكن المكافحة، وقاعدة، ومجال استطلاع، وأصبح لدينا ضباط جراد " .

بدا مزهوا، مظاهر الانتصارات المتعددة فى المواقع الجرادية المختلفة بادية عليـــه، يقول : الذى يحيرنى ياجماعة الخير هو من اكتشف طعم الجراد اللذيذ هذا، يقولون منذ أزمنة سحيقة إن أكله حلال، ويقولون إنهم اكتشفوا طعمه قبل الإسلام، وهنـــاك أبيـــات شعر جاهلية تثبت ذلك، كما أن شعرنا النبطى ملىء بوصفه ولذاذة طعمه، لكن لا أحـــد يعرف صاحب هذا الاكتشاف " ، قاطعه أحدهم : وايش علينا .

" قبل حرب السويس كنا فى مصر، هاجمت مصر عشرات الملايين عن طريق ليبيا، ولم تكن مصر مستعدة كالعادة، أتلف المزروعات فى الصحراء، رايته فى القاهرة، خيـــم

على سمائها وسد عين الشمس وأظلمها، لم أفكر إلا فى وجبة جراد، انتابنى حنيـــن طاغ، ارتعب المصريون وخافوا، وأصيبوا بالذهول، الناس يصلون ويتشاهدون كأنه يوم القيامة، كانت المرة الأولى التى يهاجم فيها القاهرة والأخيرة حتى الآن، ورغم أن الدنيا صيف هطل المطر بغزارة من غير ما يصلون، سقط الجراد متـــهاويا أمســكته بيــدى، تحققت أمنيتى فأكلته مشويا ومقليا .

كانت كتلا من السواد ، تتلاحم الأجنحة وتتحد، كأنها العاصفة الترابيـــة، أو كأنـــها السحب السوداء الكثيفة، طولها أكثر من ثمانين كيلومترا وعرضها أكثر مـــن خمســة وعشرين ، وعندما تريد الجرادة التكاثرتقوم مجموعة من الجراد بالانضمام إلى بعضها، وكأنها أرض ثابتة يبدون فيه وكأنها أرض ثابتة، تضع البيض، يفقس فى الجو، تطــير الجرادات الجديدة معها .

يخرجون قبل اختراع المبيدات بغطيان الحلل والأوعية المعدنية، يطرقون ويخبطون عليها، يأخذون أطعمتهم وحلل الشاى معهم، يعسكرون فى انتظار مجيئه ، والله نحـــن يأتينا الجراد من ناحية، مصر يأتيها الجراد من ثـــلاث، والذيـــن يقاومونـــه يتصفـــون بالأبطال، أصبح المصريون كلهم أبطالا، يقولون إنها معارك حربية حقيقية، أنشأوا خـــط الدفاع الأول والثانى والثالث " .

قال " أبا الخير " : إننا لم نأكل جراد الأعوام الماضية، ولم يمت من الرش، كيـــف يا أبو زيد ؟ قال : "إن هذه أسرار"، قال عمرو : " إن الجـــراد يكتســب مناعـــة ضــد المبيدات" ، قال هلال : " تقصد تقول إن احنا ما نبغى الجراد يموت " ، قال عمـــرو : " ماذا يعنى كلام الشيخ ؟ " ، قال هلال : " احنا ما نبغى لمصر سوى الخير " .

تأكد عمرو أنهم غير حريصين على إبادة الجراد حتى يعيد دورته تحت تأثير ريـــاح منخفضة متجهة إلى مصر .

وكان أبو النطيط يصاحب الجراد فى هجماته، قال أبوزيد " لعنة الله عليه، هذا ينــط ويفرقع فى قمك، لا يستوى مطلقا، ولا يطير إلا قفزا، تجده فجأة لاصقا بعنقك مكلبشـــا

بقوارضه، هذه الحشرة مدمرة بطبيعة تكوينها ، وملائمة للأوضاع الجوية، حيث يـــأكل النطيط القشور واللب من ثمار البرتقال، وصعوبة مقاومتها تأتى من سكناها الأشـــجار العالية، وغير معروف رد فعلها، ياالله .. الله يزيدك ياعمى من نعيمه ، من فين حصلت على كل هذه الكمية ؟ .

رفع بن درويش حاجبه الأيسر بكبرياء، هازا رأسه وصامتا، قال أحدهم : " ابـــن درويش ما يغلب أبدا " .

لم يكن الرجل مجاملا، يشبه " أبا الخير " لدى كل منهما شركات عابرة للقـــارات، ومجلس للحبوب والمحاصيل، وإدارة عموم البطاطس استعدادا لتحويل الأراضى الرملية إلى أراض طينية، وفريق مجهز لمقاومة الأعمال المدمرة التى يقوم بها الغزاة البـــدو، لديهما أيضا مراكز معلومات متحركة فى كل أنحاء العالم تقريبـــا، مركزهـــا الرئيســـى بيروت أو القاهرة، تأتى إليها الأخبار الجديدة أولا بأول، هكذا رجال الأعمال الناجحون.

* * * * *

يواصلون الحديث انتظارا للنوع الثانى من الطعام المدرج على قائمة الليلة، يحمـــل العمال التباسى الفارغة، يمسحون أياديهم فى أوراق المناديل المعطرة، يتناولون الكريز، جاءالطعام ، حرارته تسبقه، وعاءان عميقان، وتبس كبير، رائحة نط لها شيخ بـــدوى صائحا : . . مطازيز . . مطازيز . . غنى عليها مكملا ياأهل الهوى مطازيز ، وايـش ذنبى أنا مطازيز ، كيف المطازيز تهون ؟ أبان الوعاء الثانى عن قفر ، يجمع الاثنيـــن رغم الحرارة اللاهبة الدود الذى بدأ يزحف، أكمل البدوى : بدُوده، نط إلى باب الخيمـــة مناديا كما كان يفعل سابقا : قفر بدوده، مطازيز بدوده ، ياالله خلينا نروح، ياالله نقفـــر ، ياالله نطزز ، ثم أخذ يرقص رقصة بدوية ، الله الله يابن درويش ياعفريت .

القفر.. لحوم جمال ناشفة ، عندما تستوى يشغى بها الدود ويسرى، يحبون هــــذا النوع من الطعام، والمطزز عصيد ولحم وعسل ودود، أدار عمرو رأسه واضعا يده على فمه ناطا إلى باب الخيمة، وجد زملاءه كل واحد على باب خيمته، منكفئين على أنفسهم،

يرجعون ما فى بطونهم، تظاهر بالتماسك، ينظر إليه " أبا الخير " خلسة، يظن أن عمرو ليست لديه القدرة أو الرغبة فى تناول الجراد، حين وجد عمرو فيه طعاما مستساغا، قال " أبا الخير " بصوت عال : أنت يا عمرو ما تأكل المكرونة الإسباكيتى الملونة ؟ واصل : هذا بطعم السباكيتى بالعسل، كان يود ألا يقفز هذه القفزة الأرنبية الهالعة ، يكره كراهية التحريم ولا يطيق النظر إلى الدود ومنظر الثعابين، ومنظر الزواحف الناعمة والرخوة، تلك التى تسبب الغثيان والموت دون إنذار، ينظرون إليه بعيون شريرة ، ظانين تكبره على طعامهم وعاداتهم، فيما كان يظن أن إحساسه طبيعى، الخجل والبرد والقرف تتنازعه، لا يعرف كيف يتصرف، عليه أن يتماسك ، لم يجرؤ على مناداة أصدقائه، كل واحد منهم مشغول بمصيبته، غير قادر على التفكير أو النظر أو المبادأة، أصيبوا بالشلل التام والذهول، فقدوا القدرة على الإشارة بأيديهم .

اقترح أحدهم أن من يأكل أكبر كمية سيأخذ ألف دولار، نادوا عاملا هنديا لتوزيع الأطعمة فى الأطباق، يعدون لكل واحد ما أكله ، عندما تتسلل دودة يطبق عليها أحدهم قائلا : وين تروحين ، تتنطط عارفة بمصيرها، تقاوم بلا هوادة، حينئذ شاهد ضخامة وتفاهة كل نضال، وفى أحد السنين نجا الزرع من الجراد، ولم ينج من الدودة خاصة الطماطم والخضراوات، أقاموا محاكمة للديدان فى وسط الحقول، استدعوا ديدان البلاد بأوامر لا ترد، لمحاكمتها بتهمة التعدى والاتلاف المتعمد للمحاصيل، كان الأمر صريحا، أكرموا هيئة المحكمة بأكواب من عصير الدود الطازج .

أحد علماء الحشرات الوطنيين الذى تلقى علومه فى أمريكا صرح بأنه يجب الاستفادة منها ضمن مشروع علمى كبير، يأكل تلاميذ الحضانة من خلاله الديدان مطهية، لإظهار مدى تأثيرها على نشاط وحيوية الأطفال، وتربية ملكة الإبداع والتفكير لديهم، خاصة أن لغة العصر القادم هى العقل .

* * * * *

قائمة الطعام طويلة، انسحب عمرو وزملاؤه بالضربة القاضية، لديه خبرة بما لـــذ وطاب، لكنه يتذوقه فقط ، مشغول ليل نهار بأعماله وقراءاته .

لايكلفهم طعامهم بالنسبة لدخلهم شيئا يذكر، وكذلك بالنسبة للذين هجروا أوطانـــهم إليها، لم تكن المقارنة بين الوطنيـــين والمتعاقدين، لكنها كانت بيـــن هــؤلاء وبيـــن الشعوب المسلمة، هؤلاء الذين وعدهم الله، والذين يرون أن لهم حقا فى هذه الخــيرات لأنهم سلالة الداعى .

كم هى تعيسة الحياة ؟ وكم أنت تعيس ياعمرو ؟ ومما أكد تعاسته هذا البرد، وهــذا الاسترسال فى الطعام، لا قوة ستوقف هذه المفرمة، وتفكيره هذا لا يعنى سوى الحماقة، عندما يهدأ يعيد النظر فيما يفكر فيه .

أصواتهم عالية، يغالطون فى أعداد الأطباق حتـــى يفــوز كـــل واحــد بالجـــائزة، يستشهدون بالعامل الهندى الذى ينحاز إلى كل واحد، ويؤكد أنه التهم أكبر عـــدد مـــن الأطباق، هازا رأسه مذهولا ، غير فاهم، منساقا، وحتى لا يصدع رأسه بـــالكلام شـــغل هزازات رأسه فى كل اتجاه، تأتيه عبر الفتحات أصـــوات مختلفـــة عاليـــة ومنخفضـــة ومتقاطعة، للتجشؤ أحيانا، متكرعين أحيانا أخرى، خابطين على بطونهم، كل واحد بشكل مختلف عن الآخر، البعض يهزها، والبعض الآخر يطمئن فقـــط خوفـــا مـــن رد فعلـــها الغاضب، وآخرون فخورون بارتفاعها، حامدين الله وشاكرين ، صياح ولعب، تحركـــوا آخذين فى الجريان خلف بعضهم البعض، صانعين من الغتر حبالا، يمسك أحدهما طرفيها بيده، ثم يلقيها على رأس الآخر حتى يتمكن من الإمساك به .

وجد نفسه ضمن مجـــموعة مكتبه، تختلط الأمور عليه، يكاد يفقد رشـــده، غـــير مصدق، لايعرف شيئا، وأنه لم يأت إلى هذه البلاد قبل الآن، وأن هـــذه البـــلاد مخـــزن للأسرار والعجائب، تخبئها كما تخبىء ثرواتها، تبخل بالمعرفة والأســـرار كمـــا تبخـــل بالمال و البنين.

وضـــح أنه يرى الأشياء دائما لأول مرة، يندهش باستمرار ويســأل، صياحـــهم مدهش، وطعامهم مدهش، وجريانهم خلف بعضهم فى الأماكن البعيدة عن الإضاءة فيـــه جديد.

تقترب الساعة من منتصف الليل، مبتهجون وفرحون بهذه الليلـــة التـــى أعـــادت ذكريات الأيام الجميلة، العرق رغم البرد منسال علـــى وجوهـــهم ورقابـــهم، منـــهكون ومتعبون، يأوى كل واحد منهم إلى خيمته، هدأ الجرى، همدوا قليلا، رآهم ممددين .

* * * * *

أحس دبيباً نملياً يزحف على ساقيه ، حسب أنه أرتكاريا الأطعمة، كل واحد يمد يديه إلى ساقيه، وجدوا حشرات مختلفة تزحف كبيرة وصغيرة، ثم سمعوا لها أصواتا تفـــح وتجأر، تتوافد كأنها هجوم كاسح، بعد أن سمعت نداء الديدان المستجيرة، الأرض تـــهتز تحت قدميه، الهجوم الحشراتى مستمر ولن يتوقف، بسبيلهم إلى تطويره، حشرات مـــن نوع واحد ذات أحجام مختلفة، النمل بمختلف أنواعه، أبيض، أسود، جبلـــى، حيوانـــى، نمل الأشجار والصحارى والأراضى الزراعية، هياكله مختلفة، بعضها ملء قبضة اليـــد، الأخرى أقل أوأكبر قليلا، داعب أحدهم الخيال وتوهم طهيها والتهامـــها، تـــهتز الأرض عندما تأتى موجة وتذهب أخرى، تتكاثر وتنتقل بقرون استشـــعارها وبتـــاريخ ذكائـــها النملى، وفى بحث من البحوث قرأ أن نملة هذا الوادى كان اسمها جرسا، مـــن قبيلـــة نملية يقال لها بنى الشيطان، ، عرجاء، بقدر حجم الذنـــب، تـــآكلت كســـائر الأشـــياء، كالإنسان تماما، يقل طوله وعرضه ووزنه، إلى أن وصلت إلى حجم قبضة اليد .

أعلن ميكروفون الإذاعة الخارجية التزام الصمت والهدوء، سنذيع آيات مـــن ذكـــر حكيم بصوت الشيخ محمد رفعت تعبيرا عن الشكر لله، لنعمته التى أفاء بها علينا، قراءة شجية وعذبة ووقورة، يهز الجميع رؤوسهم خشـــوعا، يســـبحون بســـبحاتهم اليســـر السوداء، هازين رؤوسهم ورعا وخشية، جـــاءوا بالشـــاى الأخضـــر، ودالات القـــهوة العربى، احتسوا الشاى وذكروا الله كثيرا .

فى هدوء صمت الليل جاءت أطباق مغطاة بعدد أفراد تجمعات المخيمات، ظهر أنه ختام طعام الليلة وأنه حلوهم، مفاجأة مذهلة حقا، الأطباق بيضاء مقعرة، تغطيها أيضا أطباق بيضاء مسطحة، محكمة عليها إحكاما شديدا .

طريقة فتحها سهلة إذا ما لفوا غطاءها ضد اتجاه عقرب الساعة، لهفتهم تفوق قدرة العقل على التفكير ، يمسك كل واحد بطبقه، يحاول فتحه بطريقته .

توقعوا كل شىء إلا هذا النوع، سمع البعض عنه لكنه لم يتذوقه، " أبا الخير " وبن درويش ومن لديهم القدرة مثلهما يعتبرونه الطبق المفضل، يحتوى كل طبق على كمية من عيون الصقور المقلية، وكمية أخرى من عيون الخراف المقلية، أو من عيون التيوس إذا لم يجدوا الخراف، يختارون عيون الصقور التى يتنسموا فيها الذكاء حتى يتوارثوه، وعيون الخراف والتيوس الشجاعة والمقدامة، غسلت جيدا قبل طهيها، لا توجد آثار للدماء أو الإهمال، الأطباق نظيفة والعيون مقرمشة، يأخذ " أبا الخير " واحدة بين إصبعيه، ينظر خلسة إلى عمرو منبها إياه إلى أنه أحلى طبق من الطعام تذوقه فى حياته، دائب التلذذ به، يهشم العين بين أسنانه ويلوكها بتلذذ فتخرمش، قال عمرو : " إن التيوس تأخذ المرتبة التالية بعد الخراف فى التعاسة وسوء الحظ " ، وكانوا قد افتقدوا الصقور فى بلادهم، فور أن اكتشفت عدم وجود أرض .

وقد عن لعمرو أن يتذوق هذا الطعام الذى تهيأوا له بسماع آيات الذكر الحكيم، لم يقدر على النظر ، تناديه مستنجدة، يسمع حكاوى مختلفة من أزمنة غابرة عن طريقة صيد الصقور وترويضها، وعد " أبا الخير " عمرو برحلة ، لتعرف يامهندس كيف تصطادها، يهز رأسه وهو يتوعده ضمنيا فى كلامه، واصل : ترى كيف نروضها ، وننزع عيونها، وكيف نعرف فيما تفكر، وماذا تحمل لنا فى ذاكرتها من ود واحترام، أو من جبن وخيانة، إننا نستطيع أن نعرف كل شىء. وإننا نستطيع أن نمنح ونمنع، نكافىء ونعاقب، هيىء نفسك لرحلة صيد قريبا.

لم يستطع أن يمسك عينا واحدة من عيون طبقه، رآهم يركنون أطباقهم، تكررت كثيرا أصوات هذه الكلاب اللعينة ، لا تفتأ تصمت حتى تواصل مــن جديـد، مخلوقـات غريبة حقا، قلقة ومتوترة وغير هادئة، ليس كمثلها مخلوقات أخرى فى وفائها، وفـى عدائها، وفى نباحها، والأغرب أن تنسيق ونسب جسمها مذهلة .

يستعدون بمواصلة حفل الليلة بختامها بما يليق، وبنهاية أكل العيون والخراف يتم الاستعداد للحفل الغنائى الموسيقى الراقص بالسيوف البدوية، يغنى أحدهم شعرا نبطيـا، إلا أن هجمة كلابية شرسة أوقفت بدء الحفل، تنصتوا لنباحـها، مـن خلالـه يعـرف التائهون والجوعى مع شدة الإضاءة أن ثمة مكانا هنا يمكن اللجوء إليه، وأن ثمة أناسا استعدوا لضيافة أى غريب وإطعامه، يأتى النباح من جميع الأركان والزوايا وجوانـب المزرعة، ثمة كلب تنازعته الأهواء والأفراح، فشجى شجوا عزبا، على أثره واصلـت باقى الكلاب عزفها، بعد أن هدأت وأثناء الاستعداد للخروج صاح أحدهم الحمـد لله أن مافى كوريين، أمر الشيخ حرسه الخاص باللف والدوران على المزرعة، إنـهم يـأتون على النباح، منذ جاءوا وأعـداد الكلاب تـتناقص، مر عليـهم حين من الدهر يصـل الكلب فى عين الراعى منهم إلى مرتبة الأخ أو الصـديق، ولأهـمية الـدور الرعـوى الذى تقوم به الكلاب فى حراسة الأغنام والماعز، كانوا يحفرون فى أماكن متفرقة مـن المدن والقرى، يجدون كميات وافرة من مواد عظمية حيوانية كلابية، اعتبروا عظامـها لدى أثرييهم المحدثين مؤشرات مفيدة حول الأدوارالمهمة للثقافات الماضية، وأهمـها ثقافة الدور الرعوى .

وفى دراسة تحليلية مستعينين بأثريين أجانب للمواد العظمية التى تجمعت توصلوا إلى نتائج مذهلة ستعيد فى القريب العاجل ترتيب أهمية الأنواع الكلابية المختلفة وكيفية الاستـعانة بتلك النتـائج للتوصـل إلى نوع معين يسـاعد علـى عمليـة التدجين " التكليب " ، وجدوا العديد من المواقد وعظام الماعز والبقر والكلاب، وفى هذا ما يشير إلى تجمع بشرى رعوى جديد، حمدوا الله أن السلالة لم تنقرض .

لم تهدأ الكلاب ، غطى صوتها على صوت الدفوف، والآلات النحاسية التى تشـب الأطباق، وكلما علت الموسيقى علا نباح الكلاب وازدادت قلقا، وكأن هذه الموسيقى هى عدوها اللدود، جاءت سيرتها ثانية مصحوبة بالوفاء واللعنات، قال " أبا الخير " ضاحكا: إن كلابنا مسكينة ، يطاردها الكوريون ونلعنها نحن، أما فى أمريكا وأوربا فإنهم يقدمون لها الشراب المنعش، المثلج، له طعم عصير اللحوم ورائحتها، قال بـن درويـش : إن أغلب الأوربيين، ليست لديهم عواطف .

ولم يستطع عمرو الانصات أكثر من هذا ، ضرب عرض الحائط بعادات المجاملـة وحسن الاستماع، لم يقدر على تحمل المزيد من هذا الخبل والجنون، تكلم بصوت عـال تحت تأثير تقطيع أحشائه : ما فى سيرة غير الكلاب، اتركوها سيرة يرحمكم الله، كـأن هلال الراسى ينتظر أن يتكلم عمرو، قال له : ايش بك يا مصرى ؟ ما تبغى تسمع قـم من هنا، أنت موجود لكن لا يحق لك الكلام فى حضرة هؤلاء، ثم إن الحـاكم بـأمر الله أكلكم الكلاب والقطط وأزيد .. الحمير، ضحكوا، تساءل أحدهم عن الحاكم بأمر الله ومن هو، تساءل آخر متى حدث هذا، لم يصدق أغلب الجالسين، إلا أن عمرو لم يصمت، قال رغم كل مساوئه إلا أن أوامره كانت واضحة بقتل الكلاب خوفا من الأمراض، هذا مـا زال يتبع فى عصرنا، وأن معلوماتك كلها أخطاء، أنك تقول ما تود أن يحدث، لكنه لـن يحدث بأمر الله.

يعبر بصراحة عن المسكوت عنه، يؤمن أبو زيد بأن الأجانب أعـداء طبيعيـون كالأفاعى و الذئاب، يزاحمون ويتسللون ولا يخرجون الا متقهقرين، تعالت همهمات غير مرضية من الدائرة التى أخذت تتكاثف حوله، البعض يعاديه، والبعض الآخر أخذ موقفـا محايدا، أخذ أحدهم يتمتم بأغنية لطلال مداح، للرجل صوت لافت حقا، عباراته بسـيطة، منغمة، ومهدبة، يبهج الحواس، كان التأثير مكتملا على الحاضرين، أعجبوا بـالصوت، كرروا تهنئته .

بعد أن انتهوا قال " أبا الخير " : باختصار قررت حاكمة بريطانيا استدعاء أحد أطباء علم النفس المتخصصين فى معالجة الكلاب لفحصها، وفى مصرلديهم قانون يوجب قيد الكلاب فى سجل خاص، يسلم صاحبه لوحة معدنية يجب أن تثبت فى رقبة الكلب، اشتكى المصريون من ازدياد أعدادها، حرمتهم من تغطية سياراتهم، حيث الغطاء فى نظر الكلاب سجادة ممتازة يقيمون فوقها الأفراح ، يعتبرونها بساط الملاكمة أوالمصارعة للمباريات التى لا تنقطع ، تسفر المعركة فى الصباح عن تمزق الأغطية .

عندما حرمتهم الكلاب من الاستمتاع بموسيقى الدفوف اقترح تعريضها لعملية تقصير أو تشويه لحبالها الصوتية، والبعض الآخر اقترح اخصاءها حتى لا تتزايد، قال بن درويش : فى أمريكا يجرون لها عمليات جراحية لزرع منظم لضربات القلب، أما فى كوريا فقد استاء السياح من منظر الكلاب المعلقة فى كل مكان، شنوا حملة واسعة النطاق قبل تنظيم واقامة دورة سول الرياضية، لنقل المطاعم التى تقدم حساء الكلاب، لاقت فشلا ذريعا، متعتهم التجول فى سوقها، والتمتع بمنظرها قبل الإقدام على شراء القطع الممتازة، يصنعون منها شوربة كلابية، احتساء طبق واحد من الشوربة يفعل الأعاجيب ، بدأ ريقهم فى الجريان، هى الطعام المفضل بين الرجال، خصوصا لأنها تعزز قدرة الأشخاص الجنسية حسب اعتقادهم .

ماهو المقصود تحديدا بهذه السيرة بعد أن استمتعوا بكل هذه الأنواع الغريبة من الأطعمة، لم ينتبه إلى قول أحدهم إن حياة الملايين من أخلص أصدقاء الانسان ستنتهى فى آنية الطبخ خلال العام الحالى، وأن النساء يشجعن على ذلك، فبالإضافة إلى فائدة الاشباع الجنسى فإن الطبق الكلبى هذا يعطى لهن نعومة الجلد وطراوته ولدونته .

رأى نفسه وحيدا فى تلك الخيمة، خرج الجميع يقفون دائرة ملتفين حول غزال، الإضاءة مبهرة، ما فتأ أن اطلق أحدهم إشارة البدء ، قيدوا الغزال ، وضعوا الآنية أسفل الرقبة التى تم جزها ، يحاول كل واحد أن يأخذ كوبا من الدم دافئا وطازجا، يشربه بسرعة حتى يلحق بآخر ، كان ذلك مشروبهم المفضل بعد كل تلك الانواع. يعتقدون فيه

اعتقادا جازما بالفأل الحسن والأيام السعيدة القادمة، وانعاش أنفسهم، وتنشيط ذاكرتهم، كانوا بعد ذلك في حالة استرخاء تام عندما أقاموا مباراة شد الحبل لمدة ساعتين وواحد وعشرين دقيقة، خلال هذه الفترة كاد النعاس يغلبهم، جاءتهم صيحات الديكة، وانتشـار اللون الفضي، ينظرون إلى سيوفهم ودفوفهم معتقدين أن الكلاب قد منعتهم من استكمال متعتهم .

(١٢)

أعدوا كل شئ وتأهبوا للرحيل ، ولم يبق غير عودة الصقرين اللذين أطلقهما الشيخ صباح هذا اليوم ، تم تدريبهما خلال المدة التى مكثوها أثناء رحلتهم البرية التى وعد الشيخ بها عمرو ، وبانقضاء هذا اليوم يكون قد مر على وجودهم فى هذا المكان شهر كامل .

تلك هى المدة التى حددها الشيخ منذ عدة سنوات لقضاء رحلة صيده السنوية فى الصحارى والوديان البرية ، يختار عادة أماكن صيد مختلفة ، وحسب البعد عن مدينته، بعد أن يقرأ ويسمع النشرات الجوية ، يحدد مواقع رياح السموم ، والأوقات التى تبدأ الصقور هجرتها إلى الأعالى .

الخيام الرمادية اللون منصوبة ومثبتة جيدا ، تبتعد إحداها عن الأخرى مسافة تسمح بسماع من يسكنها إذا استنجد بالآخرين .

فى بداية الرحلة أعدوا سيارات اللاندروفر ، وحملوا الحقائب والملابس والمشروبات فى سيارات أخرى ، تتبعهم سيارات نصف نقل محملة بالخرفان والوقود والخيام والمؤن مع الحلل والأوانى الكبيرة .

تحرك الموكب ، ومع انبلاج نور الصباح الفضى توجهوا بدعواتهم إلى السماء فى وقت واحد ، بعد أن نبههم الشيخ من خلال اللاسلكى الذى يرسل ولا يستقبل أن استطلاعاته تؤكد أن الرياح قادمة .

يتلون دعواتهم وتتوالى ابتهالاتهم ، وتقطع السيارات مسافات شاسعة ومسـاحات لانهائية ، فتتوه فى أرض مجهولة مليئة بالصخور البركانية والكثبان الرملية ، وتبـدو السماء والأرض من تأثير الريح فى وحدة ترابية وتجانس متدرج حتى تتداخلا ، عندئـذ لا يتمكنون من معرفة مكانهم وتحديده .

توقفوا ولم يترجل أحد ، وبمساعدة الشيخ عرفوا أنه مكان صالح ، فبدأوا الاستعداد للمكوث والبقاء ، ومع انقشاع الرياح نظر بعينيه إلى عنان السماء ، إلى الصقور التـى ما فتئت تتضح ، وبانت على بعد مئات الأمتار تجوب سماء الله الواسعة، غائصة فـى نورها البرتقالى الذى بدأ يتوارى تدريجيا مع حلول رماديات الغروب .

إذ ذاك أسرعوا فى تثبيت خيامهم بطريقة قوية ، وحتى لا يتعجـل الشـيخ مسـح المكان بنظرة بانورامية ، ليتمكن من تنفيذ خطته التى رسمها فى دماغه هـذا العـام ، وحدد وبلا أدنى تردد أماكن الخيام الخاصة بكل منهم .

يزداد الشيخ إصرارا كل عام على القيام بتلك الرحلة خاصة هذا العـام ، بعـد أن افتتح مستشفاه الكبير أمير مدينتـهم حفظه الله ، صممه عمرو فى مـدة قياسـية ، حرص الشيخ " أبا الخير" على دعوته ، وفى هذا الوقت من العام يشد الرحال ويحـوص ضمن ما يحـرص على أن يحضر فى معـيته وصحبته طبيب العيون الذى لديـه فى مستشفاه الخاص .

استقدم ذلك الطبيب من بلاده فى نفس الوقت الذى استقدم فيه عمرو ، إثر مرض زوجته ، لاقت على يديه راحة عينيها الجميلتين اللتين لم ينتبهما المرض منذ وعـت الحياة ، ولكثرة ترددها عليه دون موعد سابق أدرك الطبيب بألم بالغ وبقوة ملاحظة ما نونه المرأة ، فخلقت مواعيدها فرصا مواتية لتوطيـد علاقتـه بمعارفـه وأصدقائـه ، بوجودهم معه أثناء اجراءات الكشف عليها .

لاحظ الشيخ كثرة ترددها على الطبيب . فأعد الأماكن والأجهزة المناسبة ووسائل تكنولوجيا المعرفة الحديثة لكى يتلاقيا تحت سمعه وبصره للوصول إلى إثبات اقتناعه .

لما رأى الطبيب خيمته المواجهة لخيمتها وعلى مبعدة منها ، فيم كانت خيمة عمرو فى الاتجاه المقابل ، تذكرا كل فى خيمته أن الشيخ ينظر إليهما خلسة ، وعلى فترات متقاربة .

منذ مدة طويلة يستمع ويتنصت على مكالماتهما ، ويقوم بفتح خطاباتهما ، وأن الشيخ يضعهما دائما أمام امتحانات وموازين مبتكرة تختلف طرق تنفيذها ، ويدخل الخيال المتجدد أحيانا كثيرة فى لمساتها الأخيرة ، ولما نفدت حيله ، وأعياه فكره البدوى مد لهما معا حبل الصبر طويلا ، ولم يتمكن الطبيب الشاب بصفة خاصة منذ تعاقده أن يسافر إلى بلده حتى يتمم زفافه ، لأن العمل فى حاجة إليه .

قبل الاستعداد للرحلة نبه الطبيب كفيله أن الأعمال كثيرة ، وقرر إذا ماحان وقت الرحيل أن يعترض ويرفض ، إلا أنه انساق ولم يقدر على البوح والمواجهة ، وفى الرحلات السابقة كانت أعدادهم قليلة ، وسياراتهم تتناسب مع هذا ، إلا أنه لوحظ أن الشيخ زاد العدد كثيرا هذا العام ، فلم يكن فى الماضى إلا الشيخ وزوجته الشابة التى تزوجها منذ فترة ، والمدللة لصغر سنها ، ولجمالها الأخاذ الفاتن ، ولأنها آخر ما نكح، إضافة إلى المساعدين والخدم ، والأدوات اللازمة .

رحلة هذا العام التى رآها الشيخ وتخيلها قبل أن تبدأ حددت المسألة تماما ، فحرص على اصطياد أكبر كمية من الصقور ، تلك الهواية التى لازمته طويلا ، وعلى فترات متقطعة ، والتى يؤكدها منذ قدومه بتهيئة المكان المناسب والأدوات المناسبة لترويضها وتدريبها ،ويخبرهما بطريقة عابرة أنه لم يتذوق طبقا أحلى من طبق عيون صقور مقلية .

تذكر عمرو ليلة الاحتفال بالأطعمة الوطنية ، ونظرة الشيخ له ، ولم يفسد تذكره هذا حرصه على الاستمتاع بهذا الجو الربيعى المبهج الآخاذ ، تلك الأوقات التى عرف أنها أنسب أيام العام للرحلات البرية وللصيد ، حيث تدب الحياة فى أرجاء المكان فيضيق بمن فيه ، و يأتى فيها الرمد الربيعى لعينى زوجة الشيخ .

أوقات صيد ربيعية لاتضاهيها إلا أوقات بدايات الخريف ، أثناءها يرون الصقور من أعلى تلك الخيام المثبتة ، والمتباعدة بمسافات متساوية ، صانعة شكلا سداسيا منتظم الأضلاع تحوم حولها محلقة فى ارتفاع شاهق ودوائر ذات أقطار كبيرة .

فور قدومهم ، وبعد تثبيت خيامهم قام الشيخ لاستكشاف المنطقة ، تبعه معاونوه وعبيده ، ركبوا سياراتهم قائمين بجولة حول الأماكن المجاورة ، ولاحظ الشيخ أن الصقور الوحشية هى الطير الوحيد الذى يملأ سماء المكان ، وفيما بعد رأى أن رياح السموم هذا العام عنيفة وعاتية منذ مقدمهم ، إذ قام معاونوه بتثبيت الخيام أكثر من مرة ، واندفعت موجات الغبار والرياح موجة إثر أخرى ، ولاحظ أيضا تكاثر أفواج ذبابة الرمل الزرقاء ، والغربان على القطائس التى أعدوها خصيصا للصيد ، وأثناء ذلك رأوا أنواعا كثيرة من الفطر نابتة مع العشب على الصخور .

عندما نشروا خيامهم وثبتوها حرص الشيخ على أن تكون خيمة تدريب الصقور وسط المخيم ، وفى طرفه تربض عربة مليئة بالخراف ينزلق واحد إثر الآخر بدفعات العامل الهندى وبمساعدة زميله .

فى صباح اليوم التالى وبعد أن استكشف الشيخ المكان وزع لحوم الخرفان الجاهزة على أماكن متفرقة ، ونشر فوقها شباكه وفخاخه ، ورأوا مع مشرق الشمس وارتفاعها فى السماء مجموعة من الصقور البنية التى تصنع فى طيرانها حفلها الخاص المتسم بالانسيابية والتآلف ، ومسيطرة أثناء ذلك على السماء التى تفتح أبوابها أمام خفقات أجنحتها الخرافية ، فيها تبدو وكأنها تتبع الخط المتعرج لنهر أو أخدود فى واد ، وفى مكان آخر تتبع المسارات الخفية للريح .

تغلى القدور بنار حمم متقدة ، يتساقط دهن الشواء المعلق لينضج الأرز بها ، حتى يتناولوا غداءهم أثناء مشاهدتهم طقسا دمويا ، ومعارك خلاص غير مجدية ، تتركز نظرات الشيخ عليهما أثناء تناول طعامه ، وفى الخيمة المجاورة والمفتوحة على بانوراما مشهد صيد الصقور يتناول الحريم غداءهن .

حول الفخاخ وعلى مبعدة تتأهب كلاب الصيد المدربة ، ومـــع الغــداء السـاخن الدسم، وأشعة شمس منتصف ذلك اليوم تنتشر الوداعة والاستسلام على وجوه الذيـــن فى الخيام القائمة .

ومن خلال تثاؤبهم رأوا المحاولات العقيمة اللامجدية لسرب الصقور الذى اصطادته الشباك والفخاخ محاولا النجاة ، وبعد أن هدأت خرج الصقّار مرتديا قفازاتـــه الجلديـة المحكمة الربط لاستخلاص فرائسه من شباكها ، تلك التى قاومته مقاومة عنيفة، واحدا إثر الآخر ، ثم لا يلبس كل منها أن يستكين ويهدأ فى قفصه المعد خصيصا له فى خيمة الوسط .

ذلك هو سرب القنص الذى اكتفى به الشيخ ، عليهم القيام بترويضه حيـن يـأتى الصباح ، بقيت الشباك والفخاخ كما هى ، ومع أفول شمس هذا اليوم انســحبت كـلاب الصيد المتأهبة ، فدقت أجراسها مع هرولتها المنتظمة ، ونباحها الــذى بـدا عاليـا ، ومعاركها التى بلا سبب ، شاعرة بقلق وعدم راحة ، سامحة لنفسها أن تنجذب أكثر من المخيم متشممة رائحة الزوايا ، وسيقان الشجر ، والأماكن المحفورة لبقع بول النساء .

ومع رائحـــــة شواء العشاء تستكين ، ترى على البعد فى الليالى القمرية جبالا تتلون بألوان سوداء وغامقـة ، جحور أرانب برية ، وفى منطقة ما من الظلام أمكــن سماع عواء ذئاب ورائحة نفاذة لضباع تنهش ما تبقى من جيف غير آبهة بتلك الخيوط الواهنة .

يتغاضى الحرس الخاص عن تجولات الشيخ الليلية بين المخيم ، وبعد أن يـــهدأ ويطمئن فى خيمته يركز النظر مراقبا عمرو ، وطبيب العيون من خلال نظارته المـزودة بأشعة الليزر التى تستطيع تحديد وتدقيق ماذا يفعل ، وفى أى شئ يفكر .

وكل منهما يراها ، هو يختلس النظر بحذر من بين زوايا خيمتها التى تنبعث منها إضاءة تتلاءم مع انسياب موسيقى ناعمة وحزينة ، وأغان موشاة باللوعـــة ومطـرزة بالحنين ، وشعر غجرى فاحم السواد مسترسل ومتناثر فوق براكين صدرها المنتصب .

مثل فتاة الجيزة التى يعشقها حد الوله ، وخادمتها الفلبينية التى يراها رائحة غادية مابين خيمتها وخيمة الكفيل المجاورة والمفتوحة عليها .

تدلك وهى منبطحة على مرتبتها الاسفنجية ظهرها وأفخاذها التعبة من آثار تعب اليوم الذى يتنوع حسب رغبتها فى المغامرة . يحدوهما الأمل أن يرصدا خيمة مكفولهما فى خيمته المظلمة ، وهو يجلس منتبها ومحاذرا ومتحفزا تجوب عيناه خيمة عمرو تارة والطبيب تارة أخرى ، لاتتحولان عنهما .

يسمع فى هذا الوقت من كل يوم ، ومنذ قدومهم وبدون وعى صفير الاستعداد الذى يفتح عينيه على أثره فيرى يوما جديدا على وشك أن يبدأ ، وعليهم الاستعداد للتمتع به ، ينظر إلى السماء فيرى قمرا فضيا كبيرا ومكتملا ، وتأتيه من خلال زوايا خيمته نسمات صحراوية رقيقة .

قام وتأهب وأطلق لناظريه العنان فى المساحات الواسعة التى بلا حدود ، وقبل أن تشعل أتون يومهم شمس نهارهم الجاف أو رياح سموم صحاريهم .

فى اليوم التالى لمقدمهم بدأت إجراءات تدريب صقور حصيلة صيد يومهم الأول، تتراص الصناديق الأرضية ذات الفتحات الحديدية ، وتبدو الصقور بداخلها قوية تقبض بمخالبها على مربطها المُخلّق من حديد مصبوب ، تنظر بتحد وبعيون شرسة إلى ضياء الشمس الذى ينفذ من بين زوايا الخيمة ذات المساحة الكبيرة .

خبرة الشيخ التى اكتسبها على سنوات هوايته فى ترويض الصقور متنوعة ، عندما بدأ يومه بدأه بهمة ونشاط ، وحرص على وجودهما بجواره كعادته ، وفى الجانب الآخر ، وخلف جدار الخيمة التى فتحت المزاغل فيها تقف نساء مبحلقات ومشدوهات فى انتظار إجراءات ترويض الصقر الأول ، وقد ترك الرجال مساحة من الفراغ حتى تتمكن النساء من المشاهدة ، والتم الجمع كله فى جانب آخر يشاهدون مابدأه الشيخ ، وهو بمقدار ما كان ينظرن إليه تخطى ما يفيض عن نطاق مخيلتهن .

بين عمودين متقابلين من الخيمة ، وبعد أن غلقت فتحاتها شد حبــل مجــدول وقوى من بلاستيك أبيض ،جاء الصقّار بالصقر الأول ، قابضا علــى مخالبــه بقفــازه الجلدى ، وضع البرقع على عينيه الحادتين ، فهدأت محاولات فــراره ، مكــن الشــيخ مخالبه من الحبل المشدود فتشبث به كأنه مربطه الذى يأنس إليه . قام الصقّــار بــهز الحبل بشدة من أحد الأطراف فانتفض الصقر رافعا جناحيه ضاربا بهما الهواء متمســكا بعنف بالحبل ومتشبثا به أكثر فأكثر ، ينظر الشيخ خلسة وفى وقت واحد إلى الطبيــب ، ثم إلى عمرو ، نظرة برقية ماسحة للمكان والافكار ، ويرى من بين فتحــات المزاغــل عينى زوجته اللتين يعرفهما جيدا ، مصوبتين ومشدوهتين ، إلــى محــاولات الصقــر المتشبث بالحبل وقد تصور بتأثير إبهار جمــالها أن أى نظرة نهارا أو ليلا تكمن فيها الرغبة النائمة ، فيما كان عمرو مشغولا ، يتذكرسناء وأوقات البهجة والفرحة ، ووقت تعارفهما القصير ، ومحاولات الشيخ الدائمة فى الهروب من أسئلة عمــرو المتكــررة والحائرة عن سبب ترحيلها .

الهنديان يقفان بذهول ، والرجال المرافقون يغبطون الشيخ على دهائه وذكائــه ، وكل من حوله يشعره بمدى قوته ، وبمدى احتياجهم إليه دون أن ينبســوا جميعــا أو يغلقوا حتى أفواههم الفاغرة .

وعندما يهز الحبل مرة ثانية تزداد مخالب الصقر تشبثا ، ويحس الجمع الواقف أن هذا الجارح المشعث قد أحس بداخله بعدم الأمان .

ومن خارج الخيمة تقف النساء بملاءاتهن السوداء وعباءاتهن المتلألئة مبهورات، ينظرن من خلال المــزاغل منحنيات ، فتظهر عجائزهن تحــت اثوابــهن الحريريــة الملتصقة بأفخاذهن طبيعية ومقسمة وبانسيابية مدهشة ، وعندما ينظر الطبيــب إلــى

عينيها، يحسان معا بالنضرة والسرور ، وترتجف ارتجافة الحور الراغبات فـــى تـــرك مقصورات الخيام .

وحين يهتز الحبل بالداخل ترتعش أفخاذ النساء المتعاطفات مع الصقر بالخـــارج ، يتوكأ الصقر على مخلبيه ، ويرفع رأسه ويهزه ، يحاول التخلص من البرقع المثبت بيد خبيرة دون جدوى ، ويطلق أثناء ذلك صرخة جارحة ومدوية ، ترتعد أطراف النســـاء وينكمشن فى الخارج فى الوقت الذى يقترب الرجال بعضهم من بعــض فــى الداخــل ، يحاول كثيرا دون جدوى ، ومحاولاته كلها مرتبطة بهذا الحبل الموجود أسفل مخالبـــه ، يعوقه برقعه المغمى به ، لم يستكن لفترة قليلة .

أشار الشيخ إليهم أن يتركوه فترة وأن يصمتوا ، فتناولوا عصانرهم وشــــايهم ، وهم جلوس على متكآتهم صامتين صمت المتآمرين ، إلى أن قام " أبا الخـــير " وهــز الحبل ، فارتعش الصقر واستكان عندئذ ارتخت أهداب النساء ، حريم الشيخ وبناتـــه ، تقف آخر زوجاته ذات العيون الجميلة فى وسطهن محاطة بهن ، ينظر بعضـــهن إلـــى بعض ، وكل لها أحلامها وآمالها ، تقف على مبعدة منهن سيارات تثير الرهبة والخوف للخدم والخادمات القريبين منها .

تكررت تلك التدريبات ، وتطورت خلال الثلاثين يوما التى مكثوها وتنوعت مـــع أكثر الصـــقور التى اصطادوها ، ومن خلال الصيد يمارس الشيخ هواية أكل العيـــون التى يتنسم فيها سرعة البديهة والذكاء بعد أن يقوم بفرزها ، وانتزاع عيونها عنوة إثر ربطها .

تقف الخادمة الفلبينية بجواره أثناء ذلك ، ممسكة طبقا متوسط الحجم ، ومقعرا، أبيض اللون ، تدير رأسها للخلف حتى لا ترى حفل انتزاع العيون التى يشتهيها الشيخ، يضع غنيمته فى الطبق الذى لونه الدم ، والتى تعودت هى أن تقوم بغســـلها وطهيـــها لتقديمها مقلية .

أحجمت فى البداية عن ذلك ، لكنه بعقابها الفظ ، وخشونة ملمح وجهه الجهم وتحت تأثير مناشدة سيدتها المتواصلة انصاعت لرغباته .

لا ينظران إليه ، وهو يتناول طبقه الذى يأتيه يوميا مع خمرته ، وتنتاب الجمع الغريب المصاحب للشيخ رعدة وقشعريرة ، وأحيانا ينسحبون بعيدا ، وفى كل محاولاته تلك ينظر بعين خفية نظرات مختلسة إلى كليهما ، يبادلانه دون أن يشعر نظرات متسائلة .

كؤوس خمرته التى يتناولها مع مزتها تحرك قوى قلبه الخفية الكامنة وتهنئه على نجاحات اختياراته .

كرّر محاولات شد حبله مدة أسبوع ، وأثناء ذلك قدموا للصقور المنتقاة لحوما لغذائها ، وعندما تم رفع البرقع عن عينى الصقر مد له الشيخ ذراعه فقفز عليها مطمئنا .

يعاود الشيخ تدريباته حتى يستأنسه ، ليصبح طائرا مطيعا، نسى السماء والانطلاق وتآلف مع مصيره بشهامة ، فينصاع للشيخ الذى يطعمه لحم الغنم المفضل لديه ، وأحيانا الحمام الطازج ، يقف وديعا ومسالما ، وطوع بنان الشيخ الذى حلم منذ بدأت رحلته بالانتهاء منها ، وبالوصول إلى نتيجة لخيالاته التى أرقته .

يتذكر الشيخ الأوقات التى قضاها فى تدريبها بجد وإجادة ، وأنه لم يهنها ، وأنها تآلفت معه حتى خيل إليه أنه يستطيع جذبها من السماء بمجرد النظر إليها ، عاملها برفق وحب ، وأشفق عليها ، سايسها ، قرب منها فظن أنها قربت منه .

يعرف من خبرته الواسعة أن تربية الصقور كتربية الأبناء ، ولذلك أطلق عليها أسماء بناته .

فى المراحل الأخيرة لتدريب الصقر ، يربطه الشيخ بحبل قوى من البلاستيك ثم يبتعد عنه مترا ، يقدم له الأكل فيرجع اليه ، يزيد المسافة فيعتاد العودة فيقدم له قطع لحم الخراف .

وعندما تعودت صقوره ذلك أطلقها دون خيط لمدة أسبوع ، وبعد أن اطمأن لصقرين وتآلف معهما أُلفة خاصة أطلقهما للصيد فى صباح اليوم الذى يعدون فيه للرحيل ، جلسوا ينتظرون الصقرين اللذين غابا طيلة يوم كامل ، وهاهى شمس اليوم على وشك المغيب ولم يأتيا بعد .

(١٣)

الخلا ولا بلاد زهوان، سمع هذا المثل فى السيارة التى أقلت اللجنة الذاهبـة إلـى الساحة لاختيار موقع المستشفى الضخم، ستقوم بتنفيذه شركة فرنسية، كانت الرسـوم والعقود قد جاءت منذ فترة، والتنفيذ بالأمر المباشر من جهات عليا، حجزوا لـها ألفـا وخمسمائة مليون دولار خارج الميزانية .

جاء المستشفى بعد شكاوى متعددة من الزهاونة والعمد إلى أولـى الأمـر الذيـن يعرفون اصرارهم على مواصلة الشكوى بلا سبب .

فور أن علمت القبيلتان أن المستشفى أدرج ، قامت بينهما المعارك، تألبت عليـهما الجروح والحزازات والثـأرات البدوية القديمة ، لم يسمحوا لأحد أيا كـان أن يسـبب القلقلة، ويثير البلبلة والمشاكل، انصاعا بعد مقاومة عنيفة، قصت فيها رقاب كثيرة مـن الطرفين .

ها هو ذا المستشفى قد جاء ، وأنه لعار أن يذهب إلى بـلاد عـامد كمـا يقـول الزهاونة، وأنه لعار أن يذهب إلى بلاد الزهاونة كما يقول العمد. يعسكرون فـى مقـر الحاكم، تتأجج نيران الرمضاء الكامنة بينهما، قبائل أعدادها ضخمة من القرى الكثـيرة، على قمم الجبال، أماكن قريبـة من الله. خـيم ثلاث تكون تجـمعا يرصـفون لـه طريقا حلزونيا حول جبال عالية، حيث توجد خيمة وعنزة وخروف ورجل مسن. طـرق

تشق ومستوصفات تقام، ومدارس، كيف يتصلون ببعضهم ليتجمعوا ويحققوا إنشاء هذا المستشفى .

اتصل المسئول بالتليفون، قال : طال عمرك الزهاونة يريــــدون المستشـــفى فـــى بلادهم، والعمد يريدونه، وما أعرف ايش أسوى، تمتم برأسه موافقا، اتصـــل بالبلديـــة وبوزارة الصحة وبإمارة "بوط " ، كونوا لجنة لاختيار موقع مناسب.

كان عمرو أحد أعضاء اللجنة، جاءهم مندوب الساحة ومساح البلديـــة ليســاعدا اللجنة فى العثور على الأرض المناسبة، اتضح أنهما من الزهاونة، لأن العمد شككوا فى مصداقيتهما بالشكاوى والبرقيات، جاء مندوب عن كل عائلة .

قال العامدى لدى موقع ممتاز، ذهبوا إليه، قال انظروا إلى هذا الجبل، كان عاليـــا، ثم نظر إلى جبل آخر فى اليسار، يوجد طريق رئيسى يفصل بينـــهما، واصـــل : نـــهدم الجبلين، ونسوى الموقع، يعطينا المساحة المطلوبة والموقع المناسب.

الموقع العام للمستشفى يتطلب ٣٥٠ ألف متر مربع، أحد أهم شــروط إقامتـــه أن يكون على أرض ثابتة ، ومستقرة، مبان متعددة، لكل أنواع الأمراض، كما أنه مرتفع .

قال زهوانى من الجموع التى اقتفت أثر اللجنة كلاما آخرمثل هذا. إلا أن زهوانيـــا يمتلك خيالا واسعا اقترح دق أعمدة خرسانية ضخمة فى جبال متعددة، "إلى أن نصل إلى مستوى أفقى واحد، نستطيع أن نقيم عليه سقفا بمساحة كافية، يكـــون بمثابـــة الأرض الثابتة التى تتشرطون علينا بها لإقامة المستشفى ".

توالت الاقتراحات المذهلة التى غذاها الخيال الصحراوى والجبلى المطلق، وشـــروط تنفيذ التصميم المعمارى ليس لها تأثير أو وزن، أما التكلفة فالدولة أعزهـــا الله قـــادرة وقوية .

سمة أراضى بلادهم الجبال الكثيرة المتعددة الأشكال والأحجـــام ، مســـاحة واحـــدة متصله، تتلمس اللجنة النصيحة من أى احد. يتوسمون صلاحية أى مكان. بحثـــوا فـــى

أراض شاسعة عن مساحة مناسبة، ضاقوا وتعبوا بما كلفوا به، ذهبوا إلى المسـئول، قرر : أنتم تنامون هنا ، وهم يبحثون لكم عن أرض .

لمّح المساح عيد الزهوانى بأرض بعيدة عن العائلتين، وجدوهـا مسـاحة كبـيرة ومنبسطة وقريبة من الطريق الرئيسى، هذه هى الأرض المناسبة وأن لا مجال للـتردد، أخرج عمرو أوراقا وكتب محضرا ، وقع أعضاء اللجنة، قال : أف حاجة تقرف، ثم بعد فترة الحمد لله ، لأنهم انتظروا ثلاثة أسابع، داخوا فيها بين قبيلتين بدويتين شـكاكتين ، ذهبوا بالمحضر إلى المسئول، قررأن يرى الأرض بنفسه قبل التوقيع، وعندما ذهبـت اللجنة أحست بأنها تحررت، أحس هو بالذات بذلك .

عليه أن يسلم الموقع للشركة التى تنتظر بمعداتها، ستكون الشئون مسئولة عـن تجهيزه وامداده بالأطباء والممرضات، وسائر احتياجاته من أجهزة طبية وآلات وفـوش وخلافه ، وقبل ذلك الإشراف عليه .

لم يدرك هذا الهندى مدى القدرة الرهيبة والاحتياجات المذهلة التى يحتاجها هـذا المستشفى، ظن أنه عمل عادى عابر، تنتهى مسئوليته باختيار الموقـع، لـم يظـن أن اهتمامهم به فاق حد التصور.

كان التصميم المعمارى جديدا، يتناسب مع الأعمال سابقة التجهيز التى سينفذ بها المستشفى، اعتبروا أعمالهم سرا من الأسرار، لم تستعن الشركة فى تركيب المبانى بأى أيد من جنسيات أخرى ، ولم تكن صناديقها الضخمة إلا خزائن مغلقة بشفرات سـرية، صناديق تحتوى على حوائط غرف كاملة، تركب بطرق بسيطة ، لـم توضـح الرسـوم المعمارية طريقة التنفيذ .

يرتـــفع المستشفى يوما بعد يوم، وبتدقيق وترجمة نص العقد الفرنسـى إلـى العربية، عرف عمرو ان ميزانية المبنى شاملة تجهيز المستشفى بالكامل ولن يحتاج إلا الى المرضى فقط، حتى أن مـيزانية الأطباء والممرضات الفرنسيات مدرجة ضمـن

العقد، كاد من ذهوله أن ينفجر، كان قد بدا أنهم لا يرغبون فى تدخل أى جهة فى هـذا المشروع .

* * * * *

فى الوقت الذى ينسحق فيه تحت تأثير احباطاته جاءه تكليف بالاشتراك فـى هـذه اللجنة، لا يقدر أن يبوح لأحد بهمومه، لأن " أبا الخير " خذله، قال له : هـذه مسـائل شائكة وحساسه، كيف تريدنى أن أتدخل فى أمر ترحيلها هذا ؟ سـألـه : هـل تعـرف تهمتها؟ قال : لا، ثم قال : لا تسألوا عن أمور إن تبدُ لكم تسوءكم، بهت عمرو، كيـف يحق له أن يلقى تهما عشوائية هكذا، هو الذى لا يعلم بترحيلها إلا منه، كان يـأمل ألا تغادر هذه البلاد بهذه الطريقة، يأمل أن يصبحا رفيقين، سندا لبعضهما، حاول محاولات عديدة مع الشيخ الذى قال: هناك مسائل لا يستطيع أحد التدخل فيها أو يسأل عنها، هذا عرف سائد، وأن أى شخص مهما كان يشغل منصبا كبيرا، وله وزن وثقل " أبا الخير " لن يستطيع أن يساعده ، بل سيتجنبه .

عندما دق الجرس على الساكن الأعلى فى منزل سناء جفل الرجل لمرآه قـائلا: أرجوك أنا لا أريد مشاكل، دخل بهدوء، سأله فى أى وقت رحلوها ؟ قال : جاءت قبـل انتهاء دوام اليوم الدراسى بصحبة ثلاثة مطوعين، كان أبوها نائما، حملت من منزلـها ما استطاعت حمله، وجدناهم يحملون لوحات رسوماتها، مزقوها، وكسروا براويزهـا وأحرقوها، أشار إلى مكان بعيد عن البيت، يرى تحت الإضاءة الكهربانية المشتعلة أثـر الحريق، قالوا لها إحمدى الله لأنك لن تسجنى، شحنوها فى سيارة جيب شـرطة، مـع بعض الحقائب والمتعلقات، استولى صاحب البيت على ما تبقى ونظف المكان، وها هـو ذا قد عرضه للسكن كما ترى .

تحولت المدينة إلى أذن كبيرة ، وعين تترصد أنفاس كل فرد ، وخطواته ، بـدا أنه على وشك أن يفقد طبيعته وثقته بنفسه ، وعندما كان يلتقى بالناس يرون ابتسامته مداهنة وتملقا وزلفى وإذا تصادف ان تحدث فيما لا يهمهم من الأمور بدا هذا محاولـة

للتخفى والتقية ، وإذا تحدث عن الله وعدالته تأكدوا أنه يتهمهم بـــالجور والظلــم ، وكان عليه أن يتأنى ويتريث ويهدأ حتى يعرف كيف يفكر التفكير السليم .

حاول أن يعرف سبب ترحيلها، لم يشفوا غليله بسبب واحد مقنع، وبدا أن الأمــر نكاية أو مؤامرة، هو المقصود بنتائجها، انتابه الحنين إلى الوطن، لم تخبو هذه الرغبة رغم كل الأشغال، تزداد مع الأيام قوة، أكدها عودة جزء عزيز منه إليه .

تساءل : هل ثمة خطأ ما ؟ من الذى يقف خلف ترحيلها ؟ كانت إنسانة مســالمة إلى درجة الطيبة والسذاجة أحيانا، لم يعد قادرا على الاستمرار أو تحمل المزيد، رحيـل سناء هو الفيصل، وأن ما آلمه حقا هو وقوفه هكذا، بغير قدرة على اتخاذ قرار، وحيدا وبلا سند، وأن أى صداقة لا قيمة لها، خاصة صداقته بهؤلاء الرجال الذيــن يتــوارون خوفا من مسائل تتطلب المواجهة والتساؤل، لا يظهرون إلا وقت احتياجهم إليه، يغلــى بصمته وبعدم قدرته على الوقوف بجوارها، حاول أن يأخذ مستحقاتها لدى رئاســتها، تنصلوا من تبعة هذه المسئولية .

وكان استشارى رئاسة التعليم مصريا، خنوعا وذليلا وخرعا، طريا مثل عيـــدان الخس، أجبن من نعجة، رغم وجوده فى هذه البلاد منذ أكثر من عشرين عامــا، هــل وجوده هنا هو الذى أوصله إلى هذه الدرجة من الخزى والعار الذى يحمله دون أن يراه أو يحس به ؟ هل هو حرصه على مكسبه ؟ ألم تكن هذه المدة التى تخطت المؤبد كافية لتحرره، يستطيع أن يحل بأرباحها مشاكله المادية ، تنتابه خسة ونذالـــة المقموعيـن والتيوس فينأى بنفسه هاربا من إبداء رأى شجاع بأحقية هـــذه المتعــاقدة لمكافأتــها المادية، ثمة أشخاص فى الغربة وفى داخل الوطن يبخل المرء عليهم ببصقة، أوســحقة حذاء، هذا حقها ياابن الكلب، ولن تدفع أنت أوغيرك شيئا لها من جيوب آبائكم، ليــس عليه إلا أن يقول هذا حقها، لكن الكائن الذليل توارى متخاذلا مستعطفا، راجيـــا عــدم الإلحاح. مواصلا : انك لا تعرف ظروفى .

* * * * *

عدة ليال قضوها فى الساحة لاختيار الموقع عرف فيها لماذا الخلا ولا بلاد زهوان.
رائحة زرق الدباج تفوح من المزارع المنتشرة، ومن المنازل الصغيرة، ومن الخيم والأخصاص .

هؤلاء الذين يكيدون لبعضهم قبل أن يكيدوا للآخرين، يقطعون صلاة الرحم أولا بأول، يكرهون الخير لأنفسهم, يرسلون الشكاوى والبرقيات بصفة دائمة، يشككون فى الجميع، الغريب لديهم مضام ومهان، وأمواله وعرضه ودمه مباح، والافتئات عليه تأشيرة الولاء وواجب وطنى، لذا فأى متعاقد لدى أى واحد منهم تعيس، لا يستمر طويلا، ينهى تعاقده، أو ينهيه كفيله .

إذا وطأت هذه البلاد ليلا فلن يُعرف لك صاحب، ولن تجد دليلا، ولن يستدل عليك أحد، حتى ولو كانت مخابرات هذه البلاد .

وكان قد سمع من العمد حكايات كثيرة تؤكد هذا المثل عن الزهاونة, أما الزهاونة فقالوا نفس هذا المثل عن العمد ، وساقوا أمثلة كثيرة تدل على ذلك .

* * * * *

فى أوقات ليل معسكرهم الإجبارى يرى سماء السهول البرية القاحلة مليئة بالنجوم الجامدة، ويرى فى أيام أخرى أحواضا ذات مساحات كبيرة جدرانها من حجر بازلتى أسود، محفورة فى الأراضى وبين الجبال حتى تكون مستودعا لمياه الأمطار لتفادى قحط الأيام القادمة.

يشاهد غزلانا بيضاء وضئيلة عندما تمرق مرتعدة، يتغير لون جلدها إلى الأصفر الذى يغمر السهول والجبال والوديان، أسراب من حُمر الوحش، بدت بألوانها المخططة.

بلاد زهوان ترتفع فوق الجبال فتبدو كالحصون العالية، يأتى النسيم الناعم محملا بالنتن، ومن السماء تهبط على الأرض ملاءة بعد ملاءة من الثلج الأبيض الذى كان الهواء يلفه فى الجو على شكل دوائر ، لا تلبث أن تتساقط فى حلقات متصلة لا نهاية لها ، فتغمر الأرض وتغلفها بأكفانها ، انفردت العاصفة الثلجية بأرض زهوان ، لم يكن

لها منافس أو غريم ، يفخرون بأنهم أول من شاهدوا الجانب الغربى المنسكب من السلاسل، ومن فوق القمة المسورة بالسحاب ، تأملوا السهل المائى للمستنقعات. وبما أن الطقس بارد ، فإنهم يضعون كل طبق ، وكل اناء على موقد مزود بالجمر حتى لايبرد شئ من جديد ، ترى ناسها عرجا، أقزاما حدبا، رجالا بدناء، نسوة إذا ما قشعن براقعهن تراهن ملتحيات، بلاد لا ترى أسوأ ما فيها، تسمع غرغرة تأتى من السقوف والأعالى، حيث يخفى الناس هناك أطفالهم المشوهين، يعلكون الأشجار ويطبخون البرسيم ، ولقد كفوا عن الاقتراب من زوجاتهم حتى لا ينجبوا عبيدا ، والمواليد الجدد يموتون بسرعة لأن امهاتهم المتعبات والمحبطات قررن الخلاص منهم ، ولم يكن من عاداتهم الإكثار من الاستحمام سواء أكانوا أصحاء أو مرضى ، وعندما كانوا يصابون بالجدرى فقد كانوا يموتون موتا جماعيا ، كحشرات البق ، ومادامو مرضى جميعا فى وقت واحد ، لم يكن بوسعهم أن يرعى أحدهم الآخر .

فى تلك الأوقات بدا أنه من العسير تجنب السير على الجثث أو الهياكل العظمية، أصبحت أطلالا بالية ، خالية ، لاترى فيها دابة ، ولاحيوان ، سوى جثث نفقت ، وأخرى تعفنت ، وكانت اسراب الطيور والغربان القادمة لنهشها من الكثرة حيث تحجب أشعة الشمس ، يجد الأحياء منهم لذة باطنية فى الوحشية ، فى ممارسة السلطة على الآخر ، فى إثبات قدرتهم على إحداث قهر الموت .

بلاد مانعة تترجرج فى السهل، وتتبعثر فى الصحارى، أبنيتها باهتة متساندة ظهرا لظهر، بلاد صاخبة بمنازل ذات جدران من المرايا ، لا يكاد يضئ لهم إلا بريق خفيف للحشرات الثلجية المضيئة ، تقام فى حقول رثة بين أسيجة خشبية، وفضلات صفائح مموجة من حديد، كلاب متوحدة فى نسيجها، تختلط الأمكنة وتبدو للرمال الشاسعة سلطة فأروية تعيسة وقططا تموء متمسحة بالسيقان، الجبال عدائية المنظر يتدحرج واحد إثر الآخر، فيلوذون بها خائفين من المستقبل قائلين " جبل يأوينى ويعدنى بالثأر " ، يشاهدون من اعماق بعيدة كبارى معلقة. وضيقة ومتعرجة على حافة واد

عميق بلا قاع، حيث كان من اللازم أن تكون روح السائق ثابتة جيدا فى مكانها، لكى يستطيع القيادة بسرعة مائة وخمسين كيلو مترا فى الساعة .

تعرف على أرخبيلات وسهول، وسلاسل من الجبال النارية والذهبية، شاهد رجالا يكسرون الجبال، ويتعمقون تنقيبا فى باطنها عن الثروة المنسية والأحجار الكريمة .

تختلط الأمكنة والأزمنة فالنهارات على الأرض والليالى فى السماء تعكس الواحدة الأخرى، بين جبال شاهقة ومدن معلقة فوق أبعاد فراغها، مشدودة إلى قممها بحبال وسلاسل ومعابر ضيقة، يسيرون فيها على روابط خشبية صغيرة، محاذرين أن تزل أقدامهم فى الفراغ، قرى تبدو شهباء لا يجدون فيها ضبا أو يربوعا، بيوت مسحورة أبراجها عالية ومآذن مساجدها تفوق عدد المنازل .

يأملون بعد انتهاء مستشفاهم فى استضافة مجدى يعقوب، يرى المبنى الفخم والتطور الحضارى المذهل ، حتى ينتزعوا اعترافا بأنهم قفزوا إلى مصاف الدول المتقدمة، لكنه قال إنها مبان فخمة وعظيمة حقا ومعقمة، تحتاج إلى عقلية مدربة وإلى خبرة أطباء كى يتعاملوا مع هذه الأجهزة، فقالوا إننا تعاقدنا على كل شىء، فصمت، رغم كل هذه المشاهدات وهذه الأحداث فلم يكن يشغله هذا أو يهتم به، إنما كان اهتمامه الحقيقى وشاغله الفعلى هو كيفية معرفة الظروف التى رحلوا فيها سناء بهذه السرعة، يتصل بها يوميا فى القاهرة، لم ينقطع ذهابه إلى رئاسة تعليم البنات فور علمه بأحقيتها فى مستحقات لديها، الشىء المؤلم أن سناء لم تعرف لماذا رحلوها، وفى إحدى مكالماتها الطويلة رجته رجاء خاصا بأن معرفة سبب ترحيلها أهم عندها من مستحقاتها، لذا فإنك ياعمرو لو عرفت لى ذلك، فإن باقى عمرى ملك لك وأسيرتك، فقط اعرف لماذا ؟ فإذا لم تكن فرحتها المجنونة ببلادها هى السبب، فهل كانت فرحتها الأخرى الدفينة بليلة خطبتها هى التى اوصلتها إلى هذه النتيجة ؟ واذا كانت كذلك فمن يا ترى يقف فى طريق زواجهما ؟ من له مصلحة فى ذلك ؟

أكد لها أكثر من مرة أن حيرته لا تقل عن رغبتها فى المعرفة، حاول الاتصال بالجهات الأمنية المتعددة، المنتشرة فى كل مكان لم يصل إلى نتيجة، فقد كان كل جهاز يسلمه للآخر، وكل شخص يسلمه لآخر، فلم يتوصل - رغم محاولاته المتعددة حتى الآن - إلى مسئول واحد يجيب عن تساؤلاته، ويشفى غليله، لاحظ زملاؤه على فترات متفاوتة عدم اهتمامه بالعمل كما كان، انخفض معدل إنتاجه كثيرا ونوعيته مما أثر على دخل المكتب، وقرر فى تلك اللحظات ألا يخذل نفسه وألا يخذل سناء، وأنه سيواصل المحافظة على هذه العلاقة وتطويرها مهما حدث، مهما بعدت المسافة وتنوعت الأحداث، انخرط فى أعمال تصميمية تراكمت على مكتبه، بات منشغلا تماما إلى أن نسى فى أحد الليالى أن الساعة تجاوزت العاشرة، كان زملاؤه قد تسللوا بعد صلاة العشاء واحداً إثر الآخر ، عندما انتبه أطفأ الأضواء ، أسرع بالصعود إلى سكنه .

لقد رأى ما لم يخطر على ذهنه، ولم يتوقعه، كيف لم يحس بما كان يجرى ؟ كأنهم هبطوا من السماء، جاءوا وصعدوا وفتشوا، عاثوا تقليبا وتخريبا دون أن يحس بهم أحد، قلبوا كل شىء رأسا على عقب، مزقوا لوحة لسناء لها تقدير ومعزة خاصة، مزقوا صورتها، وصورته العائلية مع أبيه وأمه وأختيه عندما كانوا صغارا، كان يلبس شورتا من الصوف الأزرق المخطط بخطوط رأسية بيضاء غاية فى الرقة والتأنق ، على رأسه الطربوش الذى أعطاه له المصور بناء على رغبة أبيه ، كانت الصورة الوحيدة المتبقية له ولعائلته معا ، عزيزة عليه قدر معزة سناء وصورتها، فتشوا خلف الجدران ، وفى النجف، وخلف كل لمبات الإضاءة ، وفى أوراق الحائط وفى المراتب وأسفل سجاد الأرضيات، وفى صناديق الطرد للحمامات، والمطبخ ، نزعوا أخشاب باركيه الأرضيات.

لم يعرف لماذا يفعلون هذا ؟ ولم يعرف من هم ؟ من يقف خلفهم يشجعهم على ذلك؟ من صاحب المصلحة فى ذلك ؟ هل هذا إنذار بعدم طرح مزيد من الأسئلة ، بعدم التحدث والتنقيب وبالابتعاد عما ليس له علاقة به، بالابتعاد عن ما لايهمه ؟ أم هوإنذار لسبب آخر لا يعيه ؟

كان أثر الغارة واضحا، بما لا يدع مجالا لأى شك، ليست بسبب السـرقة، مجـرد إنذار، شد أذن كما يقولون .

حقا عزيزة عليه تلك الصورة لن يستطيع أن يعيدها إلى سيرتها الأولى، يتذكر يوم التقاطها، جاءت سيارة مخصوص، وقفت أمام منزلهم، نزلت والدته مع أبيه وأختيـه، انتظروه يمشط شعره ، وينظر فى المرآة، عندما جلس نزل السائق، أدار السيارة يدويـا بالمنافلة، تذكرمنظر السائق المضحك وهو يلف آلته ، ارتسمت على وجه السائق آثـار ضحكته المجلجلة، ذهبوا إلى إيتاى البارود، لا يوجد مصور فى قريته، كانت الاحتفـالات بالمولد النبوى تبهج العين والخاطر، المدينة تتألق رغم أنـها تجمعـات قرويـة، كـل الدكاكين تضع عقود الإضاءة الكهربائية متصلة بعضها ببعض، بنوك الحواجز تئن تحت وطأة ألم الحمصية والسمسمية والعرائس والأحصنة القادمة من طنطا، الناس فى أبـهى وأحلى زينة لهم، ملابس جديدة وأحذية، مراكيب جديدة، يلبس الأطفال الطراطير الملونة والمزركشة، يركبون المراجيح ، يرتكبون الحماقات، يلعبون الطُرّة والاستغماية .

الشوارع واسعة ونظيفة، والمدينة كأن بناءها حديث، مرتبـة، يرتادهـا بعـض اليونانيين، ما زالت لهم دكاكين أمام مركز الشرطة تحديدا، ذهب به والده إلـى عـدة أماكن فى المدينة، منها المدرسة الاعدادية الجديدة التى بنتها الثورة، قال : ستأتى العام القادم إذا نجحت بمجموع كبير، بدت كبيرة جدا، تفقد السور وحدائق الإصلاح الزراعـى المحيطة بالمدرسة ، مليئة بكل أنواع الفاكهة، شاهد مكتبة المدينة، وقف مبهورا أمـام الكتب التى يعرف الآن كيف يقرأ عناوينها، قارن هذا الكم الهائل من الكتب بمكتبتـهم المتواضعة فى مجلس دوارهم الكبير، تناولوا الغداء عند الـشامى، اشتروا حلويـات المولد وملابس وفاكهة وغيرها، بعد آن أخذوا صـورا ركبوا نفس السيارة إلى البلدة، أليست تلك الصورة عزيزة عليه اذن ؟ إنها تاريخ وعمر وذكرى وحياة، بالغ الحـيرة ، حنق على نفسه لأنه ليست لديه القدرة على حماية منزله، كيف إذن يسـتطيع العثـور على سبب ترحيل سناء .

أدرك الآن هذا البريق الزائف الذى يعيش فيه، فالنجاحات المتكررة فى أعماله لاتعوضه عن الاحباطات المقوضة لكل ما يسعى إليه، وها هى الأزمنة تنسرب والأوقات تنقضى بدون تحقيق حلم استقراره، فإذا كانت خصوصية الإنسان هكذا مستباحة، فماذا يتبقى منه كى يساهم ويأخذ دورا فى بناء المجتمع ، أى مجتمع كان، حتى ولو كان متعاقدا على ذلك .

ثمة أمور لا يجب الرضوخ إليها، ولا يجب الركون إلى مسلمات أحداثها، عليه أن يوازن المسألة ، وألا يثير القلاقل والمشاكل، فإذا جاءت الشرطة لن ينتهى الأمر بسلام كما يعرف، ستطلبه كثيرا وستتردد عليه مرارا، تحقيقات ومحاضر وجلسات، الشرطة ورطة كما يقولون ، لن ينصفوه رغم حقه الممزق والمبعثر، يحافظون على سمعة البلاد التى تتمتع بحصانة أمنية وعفة على المستوى الرسمى، وجاهد الجميع لتأكيد ذلك حين كان الواقع مخالفا ومريرا .

كانوا غير مصدقين هذا الارتفاع فى البنيان، الكبار منهم يقولون إنه من علامات الساعة، يتخيل عمرو آلاف الثعابين البدائية الطائرة السامة، ذات الأجنحة، التى لم تتطور بعد حسب قانون الطبيعة، رابضة فى كل ركن وفى كل منزل، وكل شارع، أما فى الحقيقة فكانت الضباب تتجمع فى أعالى الأبواب والشبابيك، ناشدة النور، طعمه لدى البدو شهى، وله فى تراثهم وفى تاريخهم مكانة ، الهوام البدائية الضخمة تدب على هذه الأرض القاسية والصلدة ، وبدا أن هناك صراعا أبديا بين الطبيعة التى يريدون ترويضها، وبين هؤلاء الناس الذين فى حاجة لانتزاع تلك القسوة والصلادة حتى يتآلفوا مع الانسانية .

هل كان عمرو متجنيا ؟ هل انساق للغضب حتى يحكم بهذه الأحكام ؟ أم كان جزنيا محقا فى رأيه وصائبا ؟ أم أن الحقيقة هى هكذا بلا مجاملة، وبلا دبلوماسية ؟

كانت غضبته كاسحة ، وخوفا من أن يفلت زمام الأمور من يديه لعن هذا الشيطان الذى تقمصه، الهدوء والتحكم فى التصرفات والأعصاب مطلوب، ومطلوب

أيضا ضبط ردود الأفعال حتى لا تأتى عشوائية، وعليه إذا ما رغب سناء حقا أن يهدأ وأن يصبر، وأن يفكر بعقل يحكمه الوجدان وحب الحياة .

أحس أن تشبثه بها يفوق حد التصور، هل لأن رغبته فيها لم تشبع، ولم تتم ؟ أم أن سلسلة احباطاته وفشله فى جرأة اتخاذ قرار الزواج بمن أحب سابقا دفعته للتشبث بهذا الأمل حتى الرمق الأخير، وحتى لا يضاف فشل آخر إلى فشله ؟ أم لأن سناء كانت على درجة مذهلة من التأثير، فخاف بسفرها أن تفلت منه، أحس معها بالطمأنينة والأمان ، وأن الفنانة فيها أضافت إلى الأنثى، وأن رغبته أيضا فيها حارقة .

ورغم أن هناك سببا من أهم أسباب احباطاته، إلا أنه يسقطه من ذاكرته عادة، يخبو ويظهر على فترات متباعدة، إنه لا ينسى كيف جاء إلى هنا ثانية ؟

* * * * *

فى صباح اليوم التالى لم يذهب إلى العمل، ظل ممددا ويقظا، لم ينل القسط اللازم من النوم، غير قادر على اتخاذ قرار أو إبداء رأى، أو المبادرة بفعل ما، تائها ومتوولا، مشتت المشاعر، يضع رأسه على راحة يده، يمر الوقت ، التنميل والخدر يسرى فى ذراعه، ركب سيارته، لا يعرف إلى أين يتجه، ذهب إلى أحد المقاهى التى تعود على ارتيادها، شرب شايا، دخن جراك الصباح، ثم قادته سيارته إلى الحديقة نفسها، جلس فى نفس المقعد، شاهد الرجل ، مازال يعوى ويلطم حظ ابنه، ثم انتبه إلى أنه ومنذ قدومه وتحركه فى عدة أماكن وعدة مدن لم ير طائرا واحدا، لم يسمع شقشقة عصفور واحد، حتى أن العصافير التى تخيلها فى هذه الحديقة عينها فيما سبق لم تعد لديه القدرة أو الخيال على تخيلها ثانية.

بدا المكان قاحلا، رغم هذه الحديقة المنسقة البديعة الضخمة ذات الألوان الخضراء الطازجة، حين كانت أشجار الكافور والجازورينا غير المشذبة والمحيطة بمنزلهم تموج وتئن بآلاف من العصافير التى تشقشق منذ فجر اليوم، تبنى أعشاشها فى الشبابيك والأبواب، ترسل موسيقى صاخبة لساعات عدة، تنقطع فور

أن تقوم بإحدى غاراتها على حقول القمح، تلاقى مقاومة بالدق على الطبل والصفيح لتغير مرة أخرى .

كانوا يستوردون كل أنواع الطيور، يوزعونها على البلاد، يطلقونها حرة في الحدائق وسماء المدينة، إلا أنها لا تتزاوج، ولا تنجب، وتختفى من السماء، إلى أين تذهب ؟ لا أحد يعرف، قد تقطع عشرات الآلاف من الكيلومترات راجعة إلى بلادها، قد تحرقها الشمس، ويخنقها الهجير .

ترسل طيور أشجار منزله أنغاما صافية، وشقشقة محببة في الوقت الذى يسرى فيه الندى ويتموج ويتهادى ويتغلغل في كل أركان المنزل وفروع الأشجار والنبات، تقف روائح الزهور فى الفضاء المحيط بمنزلهم، من خلال فتحات الأبواب والشبابيك، يموجها ويمسك بها الهواء النقى المنعش، بيت فيه سحر وبهجة، هل ذهبت سناء إلى منزلهم؟ هل شاهدت هذا الجو الذى حدثها عنه، هى القاهرية ، لم تذهب إلى الريف إلا مرة واحدة ، لماذا لا نعى ولا نقيم للأشياء وزنا ولا نعرف قدرها إلا بعد أن نفقدها .

كان الجو المحيط به الآن كئيبا، وعدميا، لم يكن مثيرا للتساؤلات والقرف بقدر ما كان محبطا، يقود سيارته على غير هدى، وصل إلى جبال تهامة، منحدرات رهيبة، جبال من الصلادة، كتل حجارة صوانية تكونت بفعل عوامل التعرية، تنبت منها ومن جوارها نباتات شيطانية وزرع، تنحدر إلى ما لا نهاية، ينبعث من أسفل ومن بعيد ضباب كثيف وثقيل، يشاهدون مياه البحر الأحمر بالنظارة المكبرة، لم يتمكن من مشاهدتها رغم محاولاته المتعددة ، على بعد مئات الكيلومترات تنام " قاف" فى حضن هذه الجبال الممتدة، تكلموا عنها كثيرا، وعن موجات الثعابين التى تجتاحها فى درجات الحرارة القاتلة، فى حالة حصار دائم، مسافات شاسعة من الانحدارات والجبال والخوف، تصطاد السيارات وركابها، لا يخرج منها أحد، لا يستطيع أحد أن ينجد أحدا .

كانت شمس وادى الموت مليئة بالحشرات البدائية التى لا يعرف لها أسماء، وبالقرود، واد عازل طبيعى لا يستطيع احد أن يجتازه، ثم هبت رائحة زنخة وعفنة اثر

قدوم سيارات محملة بكميات هائلة من الدجاج النافق، وأخرى مليئة بريشه وجلده وسقطه، شمها عندما تخطته، أخذت فى تفريغ حمولتها فى الوادى، أوراق قذرة، خيش ملطخ بزرق دجاج وأرجل دجاج، وديدان تشغى، تقوم الشمس بدورها المكلفة به، ازدادت درجة حرارتها، ازدادت الروائح الكريهة، ثقيلة وطاردة، ثمة روائح أخرى تحاصره، تجبره على التحرك .

تكلم كثيرا صامتا، وجد نفسه أمام الفندق ، استقبلوه باشتياق، أبدى عبد المنعم ودا جديدا، هادئا ومتأنيا، قال لم أرك منذ مدة، أتيت منذ دقائق فقط ، كأن لى نصيب رؤيتك، وود الدكتور رشدى أن يفصح عن مكنون صدره حياله، طلب له ليمونا باردا، وكان قد بدا عليه الإعياء، لا يعرف لماذا قادته قدماه إلى هذا المكان ، هل كان مشتاقا إلىالحديث براحة وطمأنينة ؟ هل اشتاق إلى رؤية ناس ؟ لاحظوا عدم حيويته، وعدم فرحته بلقائهم، ثمة شىء غير طبيعى يجتاحه، لا يعرف سببا لهذا الهجوم، عقله يشتعل بالتفكير منذ الصباح، قادته أفكاره إلى طرح تفسيرات فى ذهنه، يعى أهمية عدم القراءة، وأهمية عدم الكتابة، لم يجدوا شيئا يدينه، مفكرة أو مذكرة، أو يوميات أو خطابات ، يتخلص منها أولا بأول، كانت كتاباته ومشاهداته محفورة فى الذاكرة بخطوط من نار تمحى كل من يقترب منها .

وهو يتناول الليمون نادوا عليه : تليفون لك، قال زميله : إن الشيخ يبحث عنك فى كل مكان، توقعنا أن تكون هنا، واصل : لابد أن تأتى بأقصى سرعة، كان صوته قلقا وفزعا، توقع كل شىء إلا هذا الذى وجده، الشيخ حوله بعض الضباط، المكتب مقلوب، منضدة رسمه، كل المشاريع الإبتدائية التى اجتهد فى تصميمها فى الأيام السابقة ممزقة، الأوراق والعقود، رسوم المشاريع التى انتهى منها المكتب والتى تم تنفيذها والجارى العمل بها .

أخذت غرفة طبع الرسوم القسط الوافر من التخريب، مناضد الرسم الأخرى، المطبخ ومعداته البسيطة ، الكنب ، الكراسى، كل شىء تم تمزيقه ، واتلافه ، ذهل لحظة

دخولـه، عندما ركن إلى أقرب كرسى كان جسده يرتعش، تملكه الخوف، وكأن ثمة من يطارده، لم يع شيئاً البتة إلا بعد فترة، وعندما تكلم تذكر أن ما خاف منه قـــد حــدث، وأنهم قد جاءوا، أشار إلى أعلى، صعدوا جميعا، وجدوا كل شىء ممزقا، تجنب الحديث بعد أن قال : لم أبلغ لتجنب المشاكل، لم أتصور أن يحدث للمكتب مثلما حدث هنا .

ينظرون إليه متسائلين، دائم الابتعاد ، لايرغب فى متابعة أو ملاحظــة أو توطيــد معرفته بأحد منهم، إلا آمال التى كان لها الفضل، يعرف أن العمل الذى يؤديه هنا هـــو الفيصل، فعند الانتهاء منه تنتهى المعرفة من كلا الجانبين، ظنوا أنه مغرور ومتعجرف، وخاشمه فى السماء، لكنه يحيط نفسه بسياج من احترام الذات، فظن الذين فى قلوبـــهم مرض فى سياق ظنونهم أنه يحتقرهم لدونيتهم وأصلهم الوضيع .

الذهول يتسلل إليه خوفا من نظراتهم التى تتركز فى عينيـــه تتســاءل بمخاتلــة، متضمنة اتهامه بهذه الغارة، يعى تبعة ما ينتج من أحداث مترتبة على ذلك، كان وقـــع الصدمة مزلزلا لأن تفكيره عن عملية التخريب هذه اقتصر على ما حدث لمنزله، ولــرد فعله البطىء كاد يحكى لهم بما يفكرون فيه، لكن لحظة أن أمسكوا صورتـــه ورســوم سناء الممزقة انتفض لأول مرة صارخا لهول وقع الصدمة، بدا متنبها ويقظا وفائقا من الخدر والانهيار والاستسلام، بدا حجم الكارثة أكثر مما يحتمل، وأن هذه المصيبة تخصه فى المقام الأول، تساءل بينه وبين نفسه من الذى يسبب لى كل هذا الألم ؟

فكر فى تصفية المكتب، أو التنازل عنه، هل سيسمح له " أبا الخير " بالرحيل ؟ أم أنه واهم ؟ وكان مما ساعد ترحيل سناء وعمره المبعثر، ولم يصل خياله إلى ما آلـــت إليه الأحداث وتطورت، فهذا لايقبله، ولا يرضيه، لن يرضخ له، لن يطلب مغادرة البلاد، والأمور هكذا منهارة، وفى الحضيض، لن يرحل إلا بعد إعادة الأمـــور إلـــى نصابـــها، وسيعيد كل نجاحاته إلى سيرتها الأولى، لقد نظر إلى الإحساس بعدم الأمان – رغم أنها مشاعر إنسانية – إلى أنه ضعف أوفشل فى مزاجه الخاص، يحس بالخجل كلما اكتشف

أحد هذا الموضوع، وكان يعرف أن المحارة الجريحة وحدها هى التى تضمد جراحـــــها بلؤلؤة .

طلب من الشيخ فور رحيل الشرطة مبلغاً من المال، أعاد به تأثيث المكتب كــاملا، استعان بالبلدية وبكروكيات مساحية، حتى حصل على أصول جديدة لأعماله الســــابقة، اكتشف أن لديه طاقة أخرى كامنة غير التى يعرف، عمل مكتبه ساعات إضافية وأيــــام الجمع، ساعده الشيخ، استبعده من الأسماء التى خطرت على ذهنه، يعرف أن الشــــيخ يبادله شكا بشك، ازداد اقتناعا بمدى قدرة الشيخ وسطوته، لأن رئيس البلدية قام بإزالة أية عقبة تعترض مهمته، بحث عمرو عن رسوم تصميماته فى أرشيف البلدية .

رفض مساعدة أحد حتى زملائه، جاءه فى المساء الدكتور رشدى وعبــد المنعــم بركات وكل معارفه من المصريين، جاء طــاهر ســليم يلتــف حولــه مجموعــة مــن الباكستانيين عارضين المساعدة، ثم بعد فترة اتصل حامد بشير السودانى الذى قد بــدأ فى عملية سكن الممرضات، وترميم مستشفى الأمراض النفسية منذ مدة، وأثناء انهماكه فى عمله طلبته سناء من القاهرة قلقة عليه ، سألته متى تأتى ؟ أنت وحشتنى خــالص، أنا فى انتظارك ، ساعدته لطيفة وأعطته حتى تحرر جسده وصفا عقله .

روايات الهلال تقدم

قبض الريح

بقلم

على الشوباشى

تصدر : ١٥ مارس سنة ٢٠٠٢

أحـــدث إصـــدارات روايات الهـــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٢٦	البعيدون	بهاء الطود	فبراير ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٧	فيرونيكا تقرر أن تموت	باولو كويلهو	مارس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٨	جبال الكحل	يحيى مختار	ابريل ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٢٩	امرأة ما	هالة البدرى	مايو ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٠	شرف كاتارينا بلوم الضائع	هاينريش بل	يونيه ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٣١	العايقة بنت الزين	محمد ناجى	يوليه ٢٠٠١	٦,٠٠
٦٣٢	متواليات باب ستة	سعيد بكر	أغسطس ٢٠٠١	٥,٠٠
٦٣٣	جبل الروح	جاوزينج جيان	سبتمبر ٢٠٠١	٨,٠٠
٦٣٤	منعطف النهر	ف . س نايبول	أكتوبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٥	ليالى غربال	مصطفى نصر	نوفمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٦	جنرال الجيش الميت	إسماعيل قدرى	ديسمبر ٢٠٠١	٧,٠٠
٦٣٧	إيام وردية	علاء الديب	يناير ٢٠٠٢	٥,٠٠

رقم الإيداع
١٦١٧ / ٢٠٠٢
I- S - B - N
977- 07- 0942-5



محمد عبد السلام العمرى

من مواليد إيتاى البارود -- بحيرة.

بكالوريوس هندسة معمارية ٧٥.

رشح معيداً لمادة تخطيط المدن.

عمل مهندساً معماريا حراً لسنوات طويلة.

متفرغ تماماً للقراءة والكتابة.

له روايات :

«اهبطوا مصر»، «النخيل الملكى»، «قصر الأفراح»، «زيارة السيدة الجميلة»، «نجوم زاهية فى الليل».

له مجموعات قصصية :

«إلحاح»، «شمس بيضاء»، «إكليل من الزهور»، «بستان الأزبكية»، «بعد صلاة الجمعة»، «أرواح القتلى».

ومن الدراسات :

«علاقة العمارة العربية بالفنون»، و«دراسة معمارية فى الفكر المعمارى لحسن فتحى».

هذه الرواية

فى هذه الرواية الموارة بالأحداث وأنساق القيم المذهلة، يكشف الكاتب مناطق مجهولة، أكثر سحرية وغرائبية من أى مناطق أخرى، عالم تلهث لمعرفته، رغم أنك تعيش ثقافته، «جارثيا» مازالت مثار الدهشة، الثروة، التساؤلات المقلقة والحرجة، تبهرك بثرواتها وقصورها، ناسها، طعامها، هداياهم، أحداث متواترة، سلوكيات أغرب من الخيال، مقننة بالثروة والجاه، تضفى مصداقية على إنشاء مصانع السيوف، وشراء مكتبات رواد التنوير من المصريين والعرب، تحتضن الإخوان مفارخ الإرهاب الحقيقيين، تدعمهم، تقوى إيمانهم، أحدث تدخل الثُروة شروخاً بين المصريين، واكتساب عادات ريعية، وفى كل دولة إسلامية، أسواق الذهب، قمع المهمشين لبعضهم تأثراً بقمع المكان لهم، طقوس صيد الصقور وانتزاع عيونها طعاماً، تدريبها وقمعها، ليس مسموحاً بأن تنجح أو تعرف أكثر مما يجب، وإذا ما هربت ستأتى طائعاً مختاراً، تحت حصارك فى عقر دارك، يقدم الروائى الذى اعتبره النقاد أهم روائى كتب عن هذه المنطقة نزيفاً، جراحاً، ومقاومة موازية لرعب المكان وقسوته وغلظته، تقرأ طالبا المزيد، بمتعة لا تنتهى، وطاقة حكى لا تنفذ.


علاء الديب
أيام وردية


اسماعيل قدرى
جنرال الجيش الميت


مصطفى نصر
ليالى غربال


روايات
مصرية للجيب
النغمة الجميلة العذبة
فى ربوع الوطن العربى
من مشرقه إلى مغربه
لفتح آفاق
فى عقول
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٦٨٢٧٠٠٢